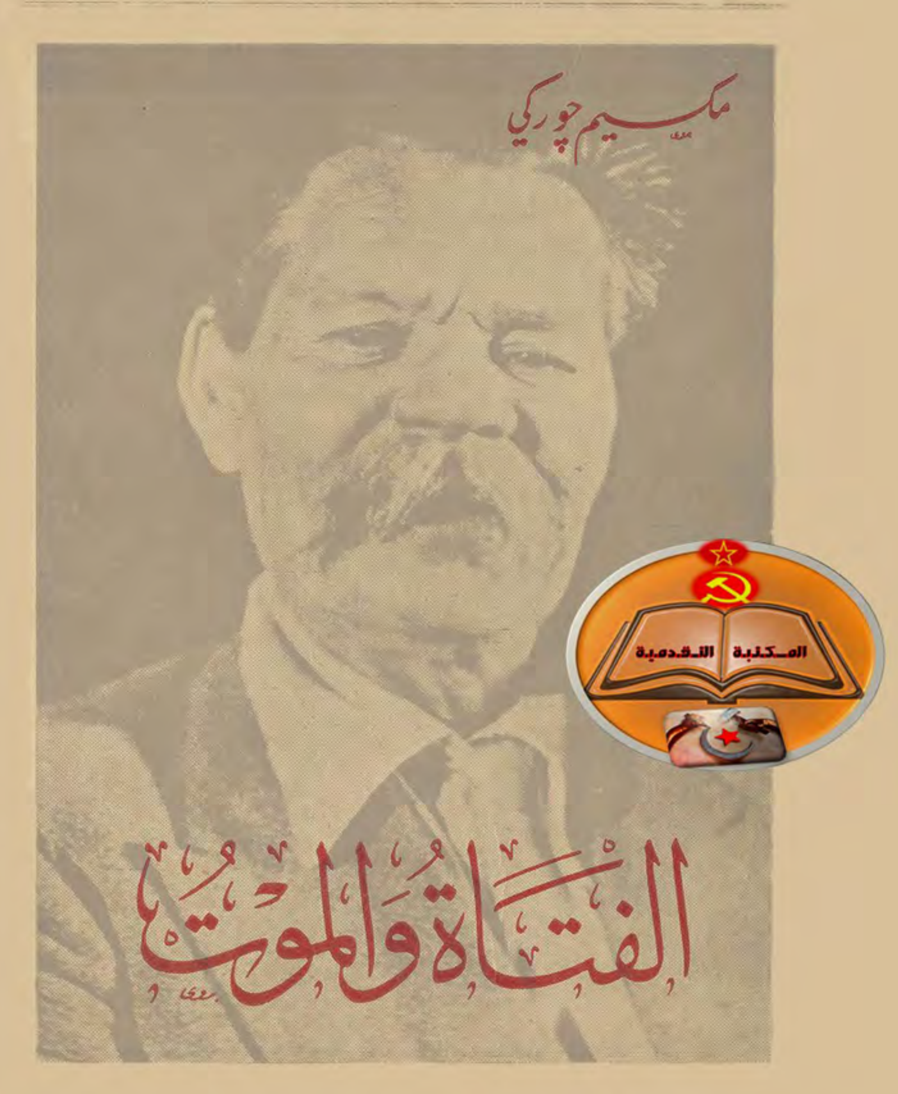
دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية



سلسلة عيون الأدب العالمي

٢٦

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

مكسيم جوركي

المؤلفات الكاملة

المجلد

٤



الدكتور

فؤاد ايوب

سهيل ايوب

سلسلة عيون الأدب العالمي

١٩٥٤

إن الترجمة الراهنة مأخوذة عن الطبعة الأكاديمية لمؤلفات جوركي الكاملة ، الصادرة في ثلاثين مجلداً في موسكو عام ١٩٤٩ .

وهذا المجلد يشتمل على مؤلفات جوركي المكتوبة عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٣ . ولقد ضمّ جوركي نفسه إلى مجموعة مؤلفاته الأقاصيص التالية منها : ماكار تشودرا ، الفتاة والموت ، إميليان بيلاي ، الكناري الذي لا يقول الحقيقة والغراب عدو الكذب ، الجدّ أرخيب ولينكا .

ماکار تشودرا

كانت ريحٌ رطبة قارسة تهب من ناحية البحر فتنشر عبر السهب المترامي الأطراف لحناً مكتئباً حالماً تنشده الأمواج الصاخبة المتكسرة على الشاطىء، كما تردده تلك الوشوشة اللطيفة المتبادلة بين الأشجار المنتصبة القامة على سيف البحر العريض. وكانت أنسامها تحمل، من حين لآخر، أوراقاً مغضَّنة صفراً تصبّها في الجمر المتأجج، مرسلة شيئاً من الحياة في لهيبه؛ بينما ضباب الليل الخريفي يرتعش فيما يحتوِلنا من فضاء، كي يبتعد في بعض الأحيان لثانية واحدة قصيرة، فكأنه مذعور من شيء ما، كاشفاً بذلك السهب العديم الحدود عن شمال، واليمّ المنبسط اللامتناهي عن يمين، وشبح ما كارتشودرا، الغجري العجوز، إلى الأمام مني! إن ما كارتشودرا يحرس خيول معسكره الممتد على بعد خمسين خطوة منا.

كان يضطجع هناك في وضع رائع مفعم جمالاً وقوة، لا مبالياً بنفحات الريح المتجلدة التي تفتح عباءته القوقازية وتعرّي صدره الكثيف الشعر لتصفعه دونما رحمة أو شفقة. استلقى هناك، متجهاً إليَّ بمحياه، ساحباً الأنفاس من غليونه بصورة منهجية، نافثاً من فمه وأنفه سحباً كثيفة من الدخان، محدقاً بعينيه، من

فوق رأسي ، في العتمة الصموت الميتة ، الملفلفة بردائها السهب الفسيح ، متحدثاً إليَّ باستمرار ، دون أن يأتي حركة يتقي بها ضربات الريح الهبّارية الجموح .

— إذن فأنت تجوب الآفاق وتضرب في الفلوات ؟ ما أروع ذلك ! لقد اخترت الحصّة الفضلى ، يا صاحِ . هـذا ما يلزم بالضبط . إضرب في الآفاق وانظر إلى الأشياء ، ويوم تكتفي من الرؤية اضطجع ومُتْ ، وهذا كل شيء !

واسترسل يقول ، بعدما سمع متشككاً إلى اعتراضي على قوله « وهـذا كل شيء » :

— الحياة ؟ البشر الآخرون ؟ وَيْ ، وَيْ ! لكن ، ما عسى أن يفيدك هذا ؟ أفلستَ أنت نفسك الحياة ؟ إن البشر الآخرين يحيون من دونك ، وسيحيون من دونك . أتظن حقاً أن ثمة من هو في حاجة إليك ؟ أنت لست خبزاً ولا عصاً ، وليس من هو إليك في حاجة .

— أن يتثقّف المرء ويثقّف الآخرين ، فيما تقول ؟ لكن هل تستطيع أن تتعلّم كيف تسعد الناس ؟ كلا ، أنت لا تستطيع . فليشبْ شعرك قبل أن تنصب من نفسك معلماً لهم . وكي تعلّمهم ماذا ؟ إن كلاً يعرف ما يحتاج إليه . والأكثر ذكاء يأخذون ما يجدون ، والأكثر حماقة ليسوا يجدون شيئاً ، وكل إنسان يتعلم على حساب نفسه ...

هم سخفاء ، هؤلاء البشر الذين تحدثني عنهم . إنهم يتكدّسون فوق بعضهم بعضاً ، ويسحقون بعضهم بعضاً ، فيما المكان — يا الله ! — ليس ينقصهم على الأرض (وهنا أشار بيده إلى السهب إشارة عريضة) . وإنهم ليعملون دون انقطاع . لماذا ؟ لمن ؟ ليس من يدري شيئاً من ذلك ! إنك لترى رجلاً يحرث الأرض ، وتقول في واليجة نفسك : « لسوف يستنفد قواه قطرة فقطرة بهـذا العرق الذي يُهرق كي يعمل الأرض ، ومن ثم سيغدو فينام في باطنها حيث

سيتفسّخ ويذوب ، وليس شيء باقيــاً من بعده . إنه لا يرى من حقله شيئاً ، فيموت أبله أحمق مثلما وُلِدَ ! »

— يا للشيطان ! أوُلِدَ كي يقلب الأرض ، ومن ثمة يطوي عمره دون أن يجد وقتاً كافياً وافياً كي يحفر لحده الخاص ؟ أيعرف ما هي الحرية ؟ أيقع اتساع السهوب في نطاق إدراكه ووعيه ؟ أيُفْرِحُ قلبه حديثُ أمواج الغَيْلم وهمس الريح في السهب العريض ؟ إنه عبد منـذ ولادته ، عبد طوال حياته ، وفي هذا يقوم كل شيء ! ما عساه يصنع من ذاته ؟ أن يشنق نفسه فقط ، فيما لو ملك شيئاً من نُهىً !

— فيما أنا قد رأيت حتى الثامنة والخمسين كثيراً من الأمور ، ما لو كتب على الورق لما وسعه ألف خرجٍ كالذي تحمل . قل لي ، مثلاً ، أي بلد لم أكُ فيه . أنت لن تستطيع ... بل أنت لا تعرف بلاداً كالبلاد حيث مررت . أجل ، هكذا يجب أن يعيش الانسان . إمشِ ، إمشِ ! كل شيء في هذا . لا تتأخر طويلاً في المكان ذاته ، فمـــا جدوى ذلك ؟ النهار والليل يركضان ، يطارد كل منهما الآخر في ما حول الأرض ، فافعل مثلهما ، ولا تتوقف كي تفكر في الحيـــاة خشية أن تغادر المحبة قلبك . ولكن إذا ما شرعت في التفكير مرة ، فلسوف تكفُّ عن الحب ، إذ هكذا تجري الأمور دائماً . لقد عرفت هذا ، أنا الآخر ! وَيْ ، أجل ، يا صاح !

— كنت في السجن في جاليسيا ، فرحت أفكر ضجراً متبرماً : « لمَ أنا على الأرض ؟ » . إن المرء ليمل في السجن ، يا صاح . آه ! لشدّ ما يضجر ! ولقـد أطبق عذاب أليم على قلبي عندما نظرت البرية من خلال النافذة ، أطبق عليـــه واعتصره في كماشته دونما رحمة أو عطف . من يقول لِمَ يحيا ؟ ليس إنسان يستطيع ذلك ، يا صاح ! وذاك سؤال يجدر ألا يطرح قط . عش ، كل شيء في هـذا .

وتنقل في أرجاء الأرض ، وتطلع في ما حواليك ، وعندئذ لا يتملكك العذاب مطلقاً . لقد كدت أشنق نفسي بزناري في ذلك الحين ، لو تدري !

— ويْ ! لقد تحدثت إلى رجل مرة ، رجل صارم من لدنكم ، رجل روسي. لقد قال : « يجب أن نعيش لا كما نريد ، بل كما هو مكتوب في كلام الله . إخضع لله وهو معطيك كل ما تسأل » . وكان هو نفسه يتسكع في أطمار بالية مهترئة . ولقد قلت له أن يسأل الله ثوباً جديداً ، فثار غضبه وطردني بالشتائم والاهانات. ولقد كان يقول قُبيل ذلك إنه يحب الصفح عن الناس ومحبتهم . كان يجب مسامحتي في تلك الحال ، فيما لو أساءت كلماتي حقاً لقدرته العليَّة . يا للأستاذ الجميل ، وربي! هم يعلمونك أن تقلل من طعامك ، ويأكلون عشر مرات في النهار .

بصق في النار وجنح إلى الصمت ، وقد انهمك في حشي غليونه من جديد . كانت الريح تزجر شكواها بصوت خفيض ، والجياد تصهل في الظل المنتشر ، وأغنية توزاقية ، حنون ملتهبة ، تدفق من المعسكر ؛ تلك نونكا الجميلة ، إبنة ماكار ، تغني ... كنت أعرف صوتها المنبعث من أعماق الصدر ، صوتها ذا الجرس المفعم نغمات طنانة تتميز أبداً بشيءٍ غريبٍ حانقٍ متسلط ، أكانت تنشد أغنية أم كانت تلقي سلاماً فقط . كانت مهابة الملكات تتربع في محيَّاها المسمرّ الباهت اللون ، فيما عيناها الكستنائيتان القاتمتان المغمورتان بالأخيلة تبرقان بوعيها لجمالها الذي لا يُقاوم ، واحتقارها لكل ما ليس هي .

ناولني ماكار الغليون ، قائلاً :

— دخّن ! أتغني جيداً هذه الفتاة ، إيه ؟ وَيْ ، بلى ! أتريد أن تحبك فتاة مثلها ؟ كلا ؟ عظيم ! هذا ما يلزم بالضبط ، لا تؤمن بالفتيات ، بل ابقَ دائماً حراً طليقاً . إن الفتاة لتسرّ وتفرح إذ تُغمر بالقبلات ، مثلما أسرّ أنا وأنشرح إذ أدخن الغليون ؛ لكن إذا ما قبّلتها ، ماتت إرادتك في قلبك . إنها سترتبطك

إليها بوثاقٍ خفيٍ لن تستطيع له فصماً ، فتضع روحك عندئذ عند قدميها . تلك حقيقة لا مراء فيها ! خذ حذرك من الفتيات ؟ هنَّ يكذبن دائماً ؟ هي تقول لك إني أحبك أكثر من كل شيء في هذا الوجود ؛ لكن جرب أن تخزها بالدبوس ، ولسوف تمزق القلب منك إذن . إني لاعرف ذلك ، أنا ! وَيْ ، وَيْ ! لشدَّ ما أعرف ذلك ! هيا ، يا صاح . أتريد أن أروي لك قصة حقيقية ؟ تذكر هذه القصة . ولسوف تظل كالطائر الطليق ما تذكرتها .

« في ذلك الزمان كان غجري فتىً ، غجري فتىً يدعى زوبار ، لويكوزوبار . وكانت هنغاريا بأسرها وبوهيميا وسلوفانيا وكل البلاد في ما حول البحر تعرفه حق المعرفة : فهو فتىً لا يُشق له غبار ! لم يكن في سائر هـذه البلدان قرية لم يُقسم بضعة من شبانها أمام الله أن يقتلوا لويكو ، لكن أحوال لويكو لم تزدد بذلك سوءاً . ولو شاء سوء حظ أحـد الجياد أن يروقه ، فقد تقوم إذن فرقـة كاملة من الجيش على حراسته عبثاً : فزوبار يسقط عليه ! وَيْ ، وَيْ ! من كان يقدر على إخافته ؟ لو أنه رأى إبليس وحاشيته كلها تأتي إليه ، كن على يقين إذن أنه يغمس فيه سكينه في مثل هذه الحال ، أو يرميه بسيل من الشتائم على أقل تعديل ، ويرسل القافلة بأسرها وفي آذانها دوي لطماته . إني ، أنا ، من أقول لك هذا !

« كانت سائر معسكرات الغجر تعرفه ، أو تناهت أخباره إليها . كان يحب الجياد فقط ، ولا يحب شيئاً آخر . ثم إن هذا الحب لم يك يدوم طويلاً . كان يعتلي صهوة الحيوان ويبيعه ، ويمنح المال لمن يريد هذا المال ، فهو لا يتمسك بأي شيء على الاطلاق . ولو أن الحاجة مسَّتك إلى قلبه ، فهو ينتزعه إذن من صدره بيديه ويقدمه لك مادام ذلك سيسرك ويفرحك . هكذا كان هذا الرجل ، يا صاح !

« كانت عشيرتنا تعسكر في ذلك الحين في بوكوفينا ـ وذلك من مضي عشر سنواتٍ . وكنا نجلس ذات أمسية ربيعية ، أنا ، ودانيلو الجندي الذي قاتل مع كوسوط ، ونور العجوز ، وسائر الباقين ، ورادا إبنة دانيلو .

« أتعرف إبنتي نونكا ؟ يا لملكة الفتيات !أجل، ولكن حاذر أن تقارن نونكا برادا ، فذلك يكون شرفاً عظيماً لنونكا ! كي تتحدث عنها ، عن رادا هذه، تظل الكلمات عاجزة مقهورة . لربما أمكن عزف جمالها على الكمان ! وعندئذ ، يجب أن يعرف المرء الكمان كما يعرف نفسه .

« لقد ذبحت عدداً كبيراً من قلوب الفتيان . وَيْ ، وَيْ ! ما أكثر ما يعدون ! لقد رآها في مورابيا عظيم متقدم في السن ذو ضفيرة ، فظل بعد ذلك مسحوراً بفعل تلك الرؤية . كان يمتطي صهوة جواده وينظرها مرتجفاً كمصاب بالحمى . كان جميلاً كالشيطان يوم عيد ، يرتدي ثوباً ثميناً من البروكار ، ويتخصر سيفاً يتضوأ كالبرق لدى كل حركة يأتيها الجواد السبوح ، وقد كست الحجارة الكريمة هذا السيف بأسره كما زينت مخمل كُمَّتِهِ الأزرق كقطعة من السماء الصافية الأديم : كان فائق الجلالة ، هذا السيد العجوز ! جسَّها بعينيه طويلاً ، ومن ثم قال لرادا : « وَيْ ! إني أعطي صرة من المال في سبيل قبلة واحدة » ... غير أنها استدارت عنه دون أن تضيف شيئاً . فقال العجوز ، وقد نزل عن تجبُّره مباشرة ، ورمى على قدميها صرة من المال ، صرة كبيرة ، يا صاح: « إصفحي عني إن أسأت إليك ، وتطلعي إليَّ بشيء أكثر من اللطف على الأقل » أما هي فقد أرسلت صرة المال في الطين بضربة خاطفة من قدمها . . وكأنها لا تتعمَّد ذلك ، ولم تفعل شيئاً آخر على الاطلاق .

« تنهد صاحبنا ، وخنخن : « يا للفتاة الغريبة ! » ، ومن ثم ضرب بالسوط جواده ، فاذا الغبار يرتفع كسحابة كثيفة .

« وظهر في الغداة .. صاح كالرعد عبر المعسكر بكامله : « من هو أبوك ؟ » وخرج إليه دانيلو ... جلجل به : « بعني ابنتك ، وخذ ثمناً لها جميع ما تريد » . فأجابه دانيلو : « ليس سوى النبلاء يبيعون كل شيء ، خنازيرهم وولدانهم ؛ أما

أنا فقد قاتلت مع كوسوط ، ولست أتاجر بأي شيء كان » . فتأججت نقمة الآخر وعطا يده إلى سيفه ، لكن أحد الفتيان نثر شيئاً من المواد الالاهبة في أذن الجواد فانطلق بذلك السيد كالبرق الخاطف . أما نحن فقد رفعنا المعسكر وغادرنا المكان .. مشينا يوماً ويومين ، وما أسرع أن لحق بنا . . . صاح : « وَيْ ! أيها القوم الطيبون ! ضميري نقي طاهر أمام الله وأمامكم ! أعطوني الفتاة كي أتزوجها ، وسوف أقاسمكم كل شيء ، فأنا ثري جداً » . كان يغلي بكليته ويتذبذب على متن جواده كعشب السهوب إذ تصفعه الريح البارح . ولقد كان في حديثه ما يحملنا على التفكير العميق .

« قال دانيلو في شاربيه : « حسناً ، يا ابنتي . تكلمي ! » .

« فسألت رادا : « إذا النسر دخل برضاه عش الغراب ، إلى مَ يصير ؟ » .

« فضحك دانيلو ، وضحكنا معه ...

« قال : « حسناً قلتِ ، يا ابنتي ! هل سمعتَ ، يا سيدي ؟ لن تنفع جهودك شيئاً ! فتش بالأحرى بين الحمام ، فهنَّ أيسر منالاً » .

« وهؤلاء نحن نعاود المسير ...

« أما السيد فقد انتزع قلنسوته ورمى الأرض بها ، وانطلق خبباً ترتعش التربة تحت حوافر جواده السبوح . هكذا كانت رادا ، يا صاح ...

« وَيْ ، بلى ! وهؤلاء نحن قعودٌ ذات ليلة نرهف آذاننا : إن موسيقى رائعة تدفُّ عبر السهب ، موسيقى فائقة العذوبة رنانة الجرْس ! كانت تؤرّث اللهيب الواهر في الدم الجاري في عروقك ، وتناديك إلى مكان آخر غير الذي أنت فيه . وكنا نحس ، جُفلة ، أن هـذه الموسيقى تبعث فينا الرغبة في شيء ما لن تمسنا الحاجة من بعده إلى الحياة ، أو إن لم يكن لنا بدٌّ في الحقيقة من الحياة ، فيجب أن نعيش إذن ملوكاً للكون جبابرة عليه ، يا صاح !

« وعندئذ انفصل جواد من الظل ، وتقدم يعلو صهوته فارس يعزف ذلك اللحن الجميل . توقف قريباً من النار التي أججنا ، وكفَّ عن العزف ، وبقي هناك يحدجنا بنظراته ، تفترُّ شفتاه عن ابتسامة عذبة .

« صاح دانيلو به : « واهٍ ! زوبار ، هذا أنت إذن ! هـــذا هو إذن ، لويكو زوبار ! » .

« كان شارباه يسَّاقطان على كتفيه و يمتزجان بشعره المجعَّد ، وعينان تتضوءان أشبه ما تكونان بكوكبين برَّاقين ، وابتسامته شمساً خالصة ، إني أقسم لك على ذلك ! كنت تقول إنهما قد صُبَّا من حديدٍ واحدٍ ، هو وجواده جميعاً ... وقف هنالك يغمره لهيب الجمر المتوقـد فـكأنه يغتسل بالدماء ، يضحك بسائر أسنانه المتألقة النصوع ! ألا فلأكن ملعوناً إن لم أحبه كنفسي منذ تلك اللحظة ، قبل أن يخاطبني بكلمة واحدة ، أو يلاحظ مجرد وجودي أيضاً .

« بلى ، يا صاح . إن أمثاله من الرجال يوجدون في هـذا العالم ! كان يتطلع إليك في ملء عينيك ، فيأسر روحك في الحال دون أن تستشعر خجلاً من ذلك؛ بل كنت تفخر بالأحرى وتعتز ... كنت تصير أفضل مع مثل هـذا الانسان ، لأن أمثاله من البشر ليسوا بموجودين ، يا صاح ! ولعل ذلك أفضل على أية حال ، إذ لو كان الخير أمراً ميسوراً لما ظل الناس يعتبرونه خيراً . ذلك صحيح، ولكن اسمع بقية القصة .

« إذن ، فقد قالت له رادا : أنت تعزف جيداً ، يا لويكو ! من صنع لك مثل هذا الكمان الطنَّان الكثير الحسَّاسية ؟ » . أما هو فأغرق في الضحك : « لقـد صنعته بنفسي ، ولم أصنعه من خشب ، بل من صدر فتاة كنت أحبها كثيراً فحبكتُ الأوتار من ألياف قلبها . وما برح الكمانُ يكذب قليلاً ، بيد أني أمسك القوس في يدي جيداً ! »

« وتلك محاولة معروفة ، فنحن الرجال نجرب دائماً أن نلقي ، منـــذ الوهلة الأولى، غشاوة على أعين الفتيات كيلا يلهبن قلوبنا ، بل يتلفلفن على العكس بالحزن بسببنا ... وهكذا فعل لويكو ، لكنه ضل الطريق وأضاع الأثر ، فقد استدارت رادا عنه وهمهمت متثائبة : « ولقد كانوا يدّعون أن زوبار على شيء كثيرٍ من الذكاء ! ما أكثر ما يكذب الناس ! » . وابتعدت ...

« صاح لويكو متألق العينـين ، وهو يترجل عن صهوة جواده : « وَيْ ، وَيْ ، أيتها الفاتنة ! إن لك لأسناناً مدببّة ! نعمتمْ صباحاً ، أيهـا الأصدقاء ! لقد جئت إليكم » .

« قال دانيلو له ، رداً على كلامه : « كن ضيفاً علينا ! » وتعانقنا ، وتبادلنا بضع كلمات ، وغدونا إلى فراشنا ... واستغرقنا في نوم عميق . وماذا رأينـا في الصباح : لقد كان رأس زوبار معصوباً بخرقةٍ ... ماذا حدث ؟ لقد جرحه جواده بضربة من حافره أثناء نومه .

« وَيْ ، وَيْ ! لقد فهمنا من كان ذلك الجواد . . . وتبسمنا في شواربنا . وأطلق دانيلو عن نابيه بدوره : ماذا ؟ أفليس يساوي لويكو رادا ؟ ثم إن الفتاة مهما تكُ جميلة ، تظل نفسها ضيقة حقيرة ، فان علّقت رطلاً من الذهب في عنقها ، فهي لن تساوي بسبب ذلك أكثر مما هي في حقيقة الأمر . أخيراً ، فلنختصر !

« وقضينا فترة طويلة في ذلك المكان عينه ؛ كانت أمورنا تسير على ما يرام في ذلك الزمن ، وكان زوبار معنا . لقد كان رفيقاً بكل معنى الكلمة ! وكان حكيماً كشيخ مغرقٍ في السن ، وعليماً بسائر الأمور ، يقرأ ويكتب الروسية والماجيارية . وعندما يأخذ يروي بعض القصص أحياناً ، فقـد كنا نظل نصغي إليه ولو استمر في ذلك طوال الحياة ! وكان يعزف . . . ألا فلتضربني الصاعقة

إن كان إنسان قد عزف مثله قط ! كان ُيمِر" القوس على الأوتار ، فاذا القلب يرتعش ؛ وكان يعود به ، فاذا القلب يغمى عليه ؛ أما هو فيعزف ويتبسم ، وعندئذ تحدوك الرغبة في البكاء والضحك في الوقت ذاته . إن تأوه بائس يدعو إلى النجدة يخترق الصدر منك تارة كخنجر مرهف الحد ، وفي أحيان أخرى هو السهب يحدث" السماء بأقاصيص كثيرة ، أقاصيص مفعمة حزناً وكآبة . إن فتاة تبكي إذ تودع فتاها ، والفتى يدعو الفتاة أن تتبعه عبر السهب العريض ! وعلى حين غرة ، يالله ! تعلو أنشودة حرة ، رشيقة ، وتتفجر كالرعد ، فاذا الشمس نفسها تتأهب ، فيما يلوح ، كي تتراقص في السماء على إيقاع تلك الأنشودة ! كذلك كانت الحال ، يا صاح !

« كانت كل ذرة في جسدك تفهم تلك الأغنية وتعيها ، فتصبح بكليتك عبداً لها مغلول الوثاق . ولو أن لويكو صاح عندئذ : « إلى السكاكين ، يا رفاق ! » ، فقد كنا ننطلق إذن جميعاً ، نقاتل بالسكين الشخص الذي يعينه لنا . كان يستطيع أن يفعل ما يريد بالانسان ، وكان الجميع يحبونه ، يحبونه كثيراً ، سوى رادا التي لم تكن تنظر إلى الفتى الجميل أو تعنى به . وليتها اكتفت بهذا الموقف منه ، بل لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك ، فهي تسخر منه دون انقطاع ، تاركة في قلبه أثراً عميقاً جداً . ولقد قلت : « عميقاً ! » . كان لويكو يصر بأسنانه ، ويشد على شاربيه ، وتظلم عيناه أكثر من ظلمة الهاوية ، وتشع فيهما أحياناً بروق ترسل الهلع في قلوبنا . إنه يذهب ، والليل قد عسكر ، بعيداً في السهب ، فيظل كأنه يبكي حتى الصباح ، يبكي حرية زوبار ويدفنها . أما نحن فنظل مضطجعين نصغي ، ومن حين لآخر نتساءل : « ما العمل ؟ » . كنا نعرف جيداً أنه عندما تتدحرج صخرتان في اتجاه بعضهما بعضاً فليس ينفع المرء أن يضع نفسه في سبيلها – لسوف تسحقانه إذن .. وكان هذا ما حدث فعلاً ...

« كنا جلوساً إذن ، جَفْنةً ، نتجاذب أطراف الحديث في شؤوننا المختلفة . وراودنا الملل ، فتوجه دانيلو إلى لويكو سائلاً : « غنِّ ، يا زوبار ، وترنم بأغنية صغيرة تُفرح قلوبنا ! » . فأسالَ لويكو نظرةً على رادا المضطجعة غير بعيد عنه تنظر إلى السماء ، ومن ثم ضرب على الأوتار ... وحينئذ راح الكمان يتكلم فكأنه قلب فتاة عذراء حقاً وفعلاً . وغنّى لويكو :

وَيْ ! وَيْ ! إن قلبي جمرةُ حبٍ لاهبة ،
والسهبُ واسع ، أبعاده لا متناهية ،
وجوادي سريع العدو كالريح الجفول ،
ولفارسه ذراعان قويتان كالحديد . . .

« أدارت رادا رأسها وارتفعت عن الأرض معتمدة مرفقها ، ثم انفجرت تضحك أمام عيني المنشد الذي التهب كالشمس المشرقة .

وَيْ ! وَيْ ! هيا ، أيها الرفيق المخلص ،
ولنخبَّ إلى الأمام باستقامة . . .
لقد ارتدى السهب ثوبه الداكن
لكن الفجر ، هنالك ، ينتظرنا !
ويْ ! وَيْ ! فلنسرع لملاقاة النهار ،
ألا حلّق في الأجواء ،
وحاذر أن تمس لبدتُك
السيدَ القمر !

« أواه ! لشدَّ ما كان إنشاده رائعاً ! ليس إنسان يعرف اليوم أن يغني مثله ! أما رادا فقالت ، وكأن كلماتها ماء مجلد ينصب علينا : « يجب ألا تحلّق حتى هذا العلوّ ، يالويكو ، وإلا سقطت متدحرجاً وأنفك في حفرةٍ قذرة توسخ شاربيك. حذار إذن » .

« رماها لويكو بنظرة غضبى دون أن ينبس ببنت شفة، بل استرسل يغني :

وَيْ ! وَيْ ! لسوف يأتي الصباح على حين بغتة ،
ونكون هناك نائمين في غبطة كلية .
وَيْ ! وَيْ ! لما لا ريب فيه إذن
أن كلانا سنحمار خجلاً ...

« قال دانيلو : « إنها لأغنية في الحقيقة . أبداً لم أسمع أنشودة مماثلة . وليمسخني الشيطان إن كنت أكذب ! » .

« وكان العجوز نور يحرك شاربيه ويهز كتفيه ، والحضور جميعاً مفتونين بأنشودة زوبار الجريئة ... وكانت رادا هي الوحيدة التي لم تعجب بها .

« قالت : « هكذا بوّقت الذبابة ذات يوم كي تقلد صياح النسر » .

« فوقعت كلماتها ، مرة أخرى ، كانصباب الماء المجلد ينسكب على الحاضرين.

« قال دانيلو متحركاً صوبها : « العلك تريدين السوط ، يا رادا ، ما ؟ » غير أن زوبار ألقى بكمّته على الأرض وصاح أسود اللون كالتراب : « قف ، يا دانيلو! إنما الجواد الحرون يحتاج إلى لجام من فولاذ . أعطني ابنتك زوجة لي ! »

« فضحك دانيلو ، وقال : « حسناً قلت ! خذها إن كنت تستطيع » .

« قال لويكو : « حسناً ! » ، والتفت نحو رادا مخاطباً إياها : « هيا ، يا فتاة ! أصغي إليّ برهة ولا تتكبري ! لقد رأيت عدداً كبيراً من النساء ، لكن إحداهن لم تمس شغاف قلبي كما فعلت . أواه ، يا رادا ، لقد قيدّتِ نفسي ! هيا ! ما يجب أن يكون سوف يكون ، و ... وليس جواد يمكن للانسان أن يفر عليه خبباً من ذاته ! . . . إني أتخذك زوجة أمام الله وأمام شرفي وأمام أبيك وهؤلاء القوم جميعاً . لكن حاذري ولا تقفي حجر عثرة في سبيل حريتي : إني رجل حر، وأريد أن أحيا على هواي ! » .

« وتقدم منها ، مطبق الفكين ، متوهج العينين ؛ وهـذا هو يمد إليها يده . قلنا في وليجة أنفسنا : « يا عجبا ! هذه هي قـد تملكت زمام جواد البيـداء ! » لكننا رأيناه ، على حين بغتة ، قد ألقى ذراعيه في الهواء وسقط على قفاه ! ..

« ما تلك المعجزة ! ليخيَّل إليك للوهلة الأولى أن رصاصة قد أصابت الفتى في ملء قلبه . لكنها رادا قدضربت مأبضيه بسوطها المصنوع من الجلد ، ثم جرّته إليها بعنف مفاجىء جعله يتهاوى أرضاً .

« وهذه الفتاة من جديد مضطجعة دونما حراك ، ضاحكة في سكون . ترقبنا ما سيحدث ، إلا أن لويكو اقتعد الأرض آخذاً رأسه بين يديه فكأنه يخاف عليه الانفجار . ومن ثم نهض بهدوء ، وغدا عبر السهب دون أن يرى أحداً من الحاضرين . فهمس نور في أذني : « راقبه ! » ، فانزلقت خلف زوبار طيّ السهب تكتنفني ظلمة الليل . هذا ما حدث ، يا صاح ! » .

ونفض ما كار غليونه وأنشأ يحشوه ، فيما تململت في معطفي ورحت أتفحص ، من حيث اضطجعت على الأرض ، وجه العجوز المسود بالشمس والريح . كان يهز رأسه بخطورة وصرامة ، ويهمس بشيء ما لنفسه فيتحرك شارباه الأشيبان فيما الريح تعبث بشعر رأسه لاهية متلاعبة .

كان أشبه ما يكون بسنديانة عجوز أصابتها الصاعقة ، لكنها ظلت رغم ذلك متينة ، قوية ، فخوراً بقوتها .. وكان البحر يتكلم ، مثله قبلاً ، مع الشاطىء بصوت خفيض ، والريح تنشر دائماً وشوشتها على مدى السهب العريض . وكانت نونكا قد توقفت عن الغناء ، والسحب المتكدسة في السماء تضاعف ظلمة تلك الليلة الخريفية .

« كان لويكو يسير مجرجراً أذياله ، مطرق الرأس ، مسترخي الذراعين كشريطين متهدلين مهلهلين . وإذ بلغ الجرف قريباً من الساقية ، اقتعد حجراً

وصعّدتنهدة صارخة ؛ كانت أنّتُهُ صارخة حتى أحسست قلبي يفيض دماً شفقةً عليه . لكنني رغم ذلك لم أدنُ منه ، لأن الكلمات الجميلة لا يمكن أن تفعل للحزن شيئاً . أليس هذا صحيحاً ؟ رائع ! لقد بقي هناك ساعة ؛ ولقد بقي ساعة أخرى ؛ وفي الساعة الثالثة لم يكن قد تحرك بعد من مكانه .

« ولقد تمددت على الأرض قريباً منه . كان الليل صافيـــاً ، والقمر يغمر بالفضة السهب بأسره ، والرؤية ممكنة كما في وضح النهار .

« وفجأة ، ماذا أرى : هذه رادا قادمة تعدو من المعسكر .

« سررت بذلك أيما سرور ، وقلت في نفسي : « إيه ! ذلك رائع ! يا لرادا من فتاة جريئة ! » وهـذه هي تقترب منه ، وهو لا يسمعها . وضعت يدها على كتفه فارتعش ، وحلّ يديه ، ورفع رأسه . وهذا هو يقفز على قدميه ويمد يده إلى سكينه ! وَيْ ! لسوف يقتل الفتاة ، هذا ما أيقنت منه . أردت أن أنذر المعسكر وأن أركض إليها إذ سمعت على حين بغتة : « إرْمِ هذا ! وإلا حطمت لك رأسك ! » . نظرت ، فاذا رادا تمسك غدارة في يدها مصوبة إياها نحو جبهة زوبار . يا لها فتاة شيطانية ! فكرت في ثنايا نفسي : « حسناً ! هما قد تساويا قوة ! ما عسى أن يحدث الآن ؟ » .

« إسمع . لقد دسّت رادا غدارتها في حزامها ، وقالت لزوبار : « لم أقدم كي أقاتلك ، بل كي أصالحك . إرْمِ سكينك ! » . فرمى السكين وتطلع في عينيها مكتئب الطلعة . لشدّ ما كان ذلك رائعاً ، يا صاحبي ! هذان كائنان يقفان وجهاً لوجه يتبادلان النظر كالوحوش الضارية ، شجاعان مقدامان عنيدان . . . وكان القمر الأضحوان يراهما ، وكنت أراهما أيضاً ، وهذا كل شيء .

« قالت رادا : « حسناً ! أصغ إليّ ، يا لويكو . إني أحبك ! » أما هو فهزّ كتفيه بكل بساطة فكأن قدميه ويديه مشدودة الوثاق .

« « قالت : عرفت كثيراً من الفتيان ، أما أنت فتتفوق عليهم إقداماً وجمالاً في الروح والصورة . لقد كانوا جميعاً يحلقون شواربهم في سبيل نظرة واحدة مني ، كانوا جميعاً يساقطون عند قدمي ، ولم يكن عليّ سوى أن أريد ! لكن، ما جدوى ذلك ؟ لم يكونوا على قدرٍ كبيرٍ من الشجاعة . وكنت أجعلهم يتخنثون جميعاً . لم يتبق في العالم إلا قليل ، قليل ، قليل جداً من الغجر ، يالويكو . أنا لم أحب أحـــداً قط ، يا لويكو ، سوى أني أحبك أنت ... بيد أني أحب حريتي أيضاً ! إني أحب حريتي أكثر منك ، يا لويكو . لكني لا أستطيع الحياة من دونك ، كما لست تستطيع الحياة من دوني . وهكذا فاني أريد أن تكون لي جسداً وروحاً ، أتسمع ؟ » .

« فأغرق الآخر في الضحك ، وقال : « إني أسمع ! وحديثك يبعث الغبطة في نفسي . هيـا ، استرسلي ! » . قالت : « ولأقل لك أيضاً ، يا لويكو ، أنك مهما استدرت وتقلبت فسوف أتغلب عليك وتكون لي . لا تضيع وقتك عبثاً إذن ، فقبلاتي ومداعباتي تنتظرك ... لسوف أقبِّلك بقوةٍ عظيمة ، يا لويكو ! ولسوف تنسى في قبلاتي حياتك وما طفحت به من مغامرات ... ولن تتردد بعـد ذلك في السهب أغانيك الرقيقة التي تفرح الشبيبة الغجرية كثيراً ، بل ستنشد أغاني من الحب ، أغاني عذبة لي ، أنا راداك ... لا تضيع إذن الوقت عبثاً ، لقد قلت لك . ولسوف تقدم لي الاحترام غداً ، كما تقدمه لأخيك البكر . لسوف تجثو عنـد قدمي أمام المعسكر بأسره وتقبل يدي اليمنى ، وعندئذ أصير زوجة لك » .

« هذا ما كانت الفتاة المجنونة تريد! أبداً لم يحدث مثل ذلك منذ كان الانسان! ويقول الشيوخ إن تلك العادة كانت متبعة عند قبائل المونغرانيين ، أما عند الغجر فذلك لم يحدث قط . فلنرَ ، يا صاح ! إن كان يمكن اختراع ما يفوق هـــذه الفكرة صفاقة ؟ يمكنك أن تحطم رأسك طوال عام كامل ، فلن تستطيـع ذلك!

« ابتعد لويكو عنها بقفزةٍ قويةٍ ، وأطلق في متّسع السهب صيحة رجل قد أصيب بجرح في صدره . وارتعشت رادا ، لكنها لم تستسلم ... قالت : « هيا ، إلى الغد ! وفي الغد ستفعل ما أمرتك به . أتسمع ، يا لويكو ؟ » .

« فزمجر زوبار ، وقد مد إليها ذراعيه : « إني أسمع ، ولسوف أفعل » . لكنها لم تتكلف التطلع إليه . فأخذ يترنح كالشجرة قد كسرتها الريح ، ومن ثم سقط ارضاً يهتز بالنشيج والضحك معاً .

« هكذاقد استنفدت رادا اللعينة قوى الفتى بما ساقت عليه من عذابات.ولقد بذلتُ جهداً عظيماً كيما أرده إلى صوابه .

« وَيْ ! وَيْ ! لِمَ يتوجب على البشر ، بحق الشيطان ، أن يجرعوا كأس المرارة والأسى ؟ من يُعنى بالاصغاء إلى زمجرات قلب إنسان يمزقه الحزن ؟ هيا ، إليك ما تفكر فيه !...

« رجعت إلى المعسكر ورويت للشيوخ كل شيء . ففكروا وقرروا انتظار ما عسى أن يحدث في الغداة ، وإليك ما حدث : عندما اجتمعنا جميعاً حول النار قَدِمَ لويكو أيضاً . كان الاضطراب بادياً عليه ، وقد نحل بصورة رهيبة في تلك الليلة الوحيدة ، حتى لقد غارت عيناه عميقاً في محجريهما ؛ أطرق بعينيه وقال لنا دون أن يرفعهما : « إليكم الواقع ، يا رفاق : لقد نظرت هذه الليلة في قلبي فلم أجد فيه مكاناً لحياتي الحرة السابقة . إن رادا وحدها تعيش فيه ، وهذا كل شيء ! هذه هي رادا الجميلة تبتسم كملكة متوّجة ! إنها تحب حريتها أكثر مني ، وأنا أحبها أكثر من حربتي . ولقد قررت ان أجثو عند قدميها . لقد أمِرْتُ بذلك كيما يرى الجميع كيف أخضع جمالها البطل لويكو زوبار ، هذا الذي كان من قبلها يلعب بالفتيات كما يلعب الصقر بالأوز . ومن ثم سوف تكون زوجتي ، ولسوف تلاطفني وتقبلني حتى تغادرني الرغبة في إنشاد الأغاني لكم ولا أندم على حريتي ! أليس كذلك ، يا رادا ؟ » .

« رفع عينيه ورماها بنظرة متفكرة . فأجابت هي برأسها أن بلى ، وأشارت بيدها إلى قدميها دون أن تخرج عن صمتها أو تلين . أما نحن فكنا نرى دون أن نفهم شيئاً ، بل لقد كنا نود مغادرة المكان كيلا نرى لويكو زوبار يترامى عند قدمي الفتاة ، ولو كانت هذه الفتاة رادا نفسها . كنا نستشعر ، بغموض ، الخجل ، والرثاء ، والألم ...

« صاحت رادا بزوبار : «إذن ! » . فقال : « وَيْ ! وَيْ ! لا تتعجلي ! فذلك آت من غير بد . وسوف يتوفر لك الوقت حتى تمليه ... » . وانفجر ضاحكاً ، فاذا ضحكه أشبه ما يكون برنين الفولاذ . قال : « وهذا كل الأمر ، أيها الرفاق . ثم ماذا ؟ ثم قد بقي لي أن أجرب ما إذا كان قلب رادا قاسياً بمقدار ما أظهرت لي . لسوف أجرب إذن ، فاصفحوا عني ، يا أصدقائي ! » .

« ولم نجد الوقت الكافي كي نخمن ما يريد زوبار ان يفعل . فاذا رادا متجوِّرة على الأرض ، وفي صدرها قد غُرست سكين زوبار حتى المقبض . وفغرنا أفواهنا دهشة مصعوقين حائرين ..

« لكن رادا انتزعت السكين ، ورمتها جانباً ، وضغطت جرحها بخصلة من شعرها الأسود ، مفتر فمها عن الابتسام ، وقالت بصوت واضح النبرات : « وداعاً ، يا لويكو ! كنت أعرف أنك ستتصرف هكذا ... » وماتت ...

« أفهمت الفتاة ، يا صاح ؟ ألا فلأكن ملعوناً في الأبدية ! فلقد كانت فتاة شيطانية حقاً .

« زمجر لويكو طاوياً السهب بأسره : « بلى ، لسوف أجثو عند قدميك ، أيتها الملكة المتكبرة ! » . وارتمى أرضاً ، وضغط بشفتيه على قدمي رادا الميتة ، وجمد في هذه الوضعة ، فنزعنا عمراتنا ، وبقينا وقوفاً في سكون .

« ما عسانا كنا نقول في مثل هذه الحال ، يا صاح ؟ وَيْ ! بلى ، لقد قال نور : « يجب أن نشد وثاقه ؟ » ... لكن الأيدي ما كانت لترتفع كي تشدّ وثاق

زوبار ؛ لم يكن إنسان يرضى أن يرفع يديه ، وكان نور يعرف ذلك . لوّح بيده مدللاً عن عجزه ، وابتعد جانباً . بينما تناول دانيلو السكين التي رمتها رادا ، وحدّق فيها طويلاً محركاً شاربيه الأشيبين . لم يكن دم رادا قد جفّ عنها بعد ، وكانت نصلتها مقوسة مدببة . ومن ثم اقترب دانيلو من زوبار ، وغرس السكين في ظهره ، في موضع القلب تماماً . لقد كان الجندي العجوز دانيلو والد رادا أيضاً !

« قال لويكو بوضوح ، مستديراً نحو دانيلو : « هكذا ! » . ولحق برادا..

« ونظرنا . . . كانت رادا تستلقي قابضة على صدرها بيدها الممسكة بخصلة الشعر ، وعيناها المفتوحتان تشخصان إلى السماء الزرقاء ، وعند قدميها تمدّد الشجاع لويكو زوبار ، وقد تبعثر شعره على وجهه فأخفاه .

« بقينا وقوفاً ، مستغرقين في التفكير . كان شاربا العجوز دانيلو يرتعشان ، وكان حاجباه السميكان مقطبين . إنه يشخص إلى السماء ولا يقول شيئاً . أما نور الأبيض الشعر ، فقد انطرح ووجهه إلى الأرض ، وطفق يبكي بعنف هزّ الكتفين منه .

« كان ثمة ما يستحق البكاء ، يا صاح !

« ... وهكذا فأنت تجوب الآفاق وتضرب في الفلوات ، حسناً ، إذهب في طريقك إذن دون أن تتلفت إلى الوراء .إذهب قدماً ، لعلك لا تفنى عبثاً . ذلك كل شيء ، يا صاح ! » .

لاذ ماكار بالصمت ، وأخفى غليونه في كيس طباقه ، وضم إزاره على صدره. وأخذت الظلمة تشتد ، والريح تقوي ، والبحر يزمجر في صخب ونقمة . واقتربت الجياد ، واحداً إثر واحد ، من النار التي تنطفىء ، وبعد أن حدقت فينا بعيونها الواسعة الذكية ، وقفت دون حراك مطوقة إيانا بحلقة ثخينة .

صاح ماكار بها بصوت مداعب :

— هوب ، هوب ، أوي !

وصفع براحة يده عنق جواد أسود ، جواده المفضل ، وخاطبني بقوله :

— لقد آذنت ساعة النوم .

ومن ثم افـّ رأسه بقميصه واضطجع على الأرض معتصماً بالصمت . لم تكن بي رغبة في النوم . حملقت في ظلمة السهب . فاذا شبح رادا الجميلة العزيزة يسبح أمام عينيّ . كانت تضغط بيـدها خصلة من الشعر الأسود على الجرح في صدرها ، والدم يسيل قطرة قطرة من خلال أصابعها الدقيقة الملفوحة ، ويساقط ارضاً مثل كواكب حمر مشتعلة .

وإلى الوراء منها ، قريباً جداً ، يحلّق زوبار الشجاع : إن تجاعيد كثيفة من الشعر الأسود تغطي محياه ، حيث تتقاطر دون انقطاع عبرات كبيرة باردة .

واشتد هطول المطر ، فيما البحر يرتل نشيده الاحتفالي الجنائزي باكياً الغجريين العزيزين لويكو زوبار ورادا ابنة الجندي العجوز دانيلو . وكان كلاهما يدوّمان ، بتناسق ودون ضوضاء ، في ظلال الليل ، ولويكو الجميل عاجز أبداً عن الامساك برادا المتكبرة ..

⁕

الفتاة والموت

قصيدة

١

كان القيصر عائداً من الحرب بطريق الريف .

كان عائداً ، وفي قلبه مرارةٌ وفي فؤاده نقمةٌ سوداء ...

وهذا هو يسمع ، من وراء أغصان شجرة بيلسان ،

فتاة تضحك وتضحك ...

عندئذ همز القيصر جواده وانطلق به ،

نحيف الطلعة ، معقود الحاجبين الأصهبين ،

وغار على الفتاة كالعاصفة الهوجاء

صائحاً ، وأسلحته تدوي بصخب كثير ...

صرخ الوحش : « ما بالك ،

« ما بالك ، يا عاهرة ، تكشّرين عن أسنانك ؟

« العدو قد انتصر عليَّ ،

« وجيشي كله مُني بهزيمة نكراء ،

« ولقد أسروا نصف خلاني ،

« وأنا أرجع أدراجي إلى وطني كي أجمع جيشاً جديداً .

« أنا قيصرك ، وإني لفي ألم واكتئاب ،

« وأنت تأتين فتهزأين بي ! يا اضحكتك السخيفة ! »
أصلحت الفتاة من وضع صدريتها على صدرها .
وانبرت ، أثناء ذلك ، ترد على القيصر :
« ألا ابتعد عني ، فاني أتحدث مع حبيبي .
« أيها الأب الصغير ، من الأفضل أن تذهب .
« عندما يحب المرء ، يفقد صوابه ،
« فهو لا يستطيع بعدئذ إلى التفكير في القياصرة سبيلاً ،
« ولا يجد فائضاً من الوقت يتحدث إليهم ،
« فالحب يحترق ، أحياناً ، بصورة أسرع »
« من شمعة هزيلة تلتهب في هيكل الله المعتم . »
ارتعش القيصر ، وهزه الغضب هزاً ،
فاستدار يأمر أتباعه الخاضعين :
« إذهبوا ! إرموا هذه العاهرة الهجول في السجن ،
« او الأفضل ان تخنقوها في الحال » ،
فغار أتباع القيصر ونبلاؤه ،
وقد فتحوا أشداقاً كأبالسة قد كشّروا ،
على الفتاة مثل الوحوش الضارية !
وهكذا تركت الفتاة بين يدي الموت ...

٢

وليخضع والموت للأشرار دائماً وأبداً ،
ولكنه لم يكن في ذلك اليوم حسن المزاج .
لَمِنَ المؤكد أن بذرة الحب والحياة

في الربيع تتفجر ...
وذلك الموت، العجوز يرهقه
أن يتاجر باللحم المتفسخ دون انقطاع ،
وأن يضع للأمراض نهاية ؛
يرهقه أن يقيس الزمان بحشرجات المنيّة .
ليود أن يحيا حياته هذا الموت ؛
فالبشر ، قبل الموعد المحتوم ،
لا يملكون سوى الرجفان والهلع السخيف ..
ذلك الموت قد تعب من الذعر الانساني .
كفاه دفناً ، كفاه قبوراً !
إنه يقوم على الأرض القذرة المروضة
بواجبه الثقيل كأحسن ما يكون ،
أما البشر فهم يظنون الموت عديم النفع ،
وهذا يحيره بكل تأكيد ..
وقطيعنا الانساني يخرجه عن أطواره ،
فينتزع من العالم ، في نقمته،
أولئك الذين ما كان يجب أن ينتزعهم .
إنه ، وهو صديق إبليس ، يقدر
أن يتنشق ، ما شاء ، نار الجحيم ؛
ويبكي من داء الحب
على كتف إبليس ذي الشعر الناري .

٣

إن الفتاة تقف أمام الموت

وتنتظر ، بشجاعة ، الضربة الرهيبة ..

غير أن الموت يهمهم ويرق قلبه على ضحيته :

وحق الموت ما أصباها !

« لماذا أغضبت القيصر إذن ؟

« من أجل ذلك وحده ، يا فتاتي تموتين ! »

فردّت الفتاة عليه : « لا تغضب .

« لِمَ تنقم عليّ ؟

« كان حبيبي ، للمرة الأولى ، يقبلني

« تحت غصن بيلسان رطيب ..

« أ كنت أستطيع ، إذن ، إلى التفكير في القيصر سبيلاً ؟

« أجل – يا للأسف ! – لقد خسر القيصر حربه !

« إذن فقد قلت له ، للقيصر :

« إبتعد ، أيها الأب الصغير ، من هنا .

« لم أتكلم سوءاً ، أليس كذلك ؟

« ولكن الأمور ، كما ترى ، قد انتهت إلى الشر .

« حسناً ! ماذا ! ليس من يفلت من الموت ،

« بيد أني سأموت قبل أن أكون

« قد أحببت حقاً ...

« أيها الموت الصغير ! أواه ! دع لي ، قلبي يسألك ذلك ،

« دع لي أن نقبّل بعضنا بعضاً . آه ! مرة أخرى ! »

كانت غريبة على الموت، هذه الصلاة .

أبداً لم ترفع إليه مثل هذه الالتماسات .

فكّر : « ممَّ أعيش ،

« إذا انقطع الأحياء ، بغتة ، عن العناق وتبادل القبلات ؟ »

وقال الموت ، وعظامه تستدفيء بشمس الربيع ،

وعيناه تسحران الأفعى :

« أسرعي ، يا فتاتي ، قبّليه سريعاً ،

« الليل لك ، وعند الفجر تموتين . »

وجلس على حجر ينتظر ،

والأفعى يلحس المنجل بلسانه ،

والفتاة تبكي فرحةً وسعادةً .

وجمجم الموت : « إذهبي ، إذهبي سريعاً ، إذهبي ! »

٤

وتحدب شمس الربيع عليه وتدفئه ،

فيخلع الموت حذائيه المهترئين ،

ويضطجع على الحجر ، ويستغرق في النوم ..

ويحلم الموت حلماً رديئاً .

لكأن قايين أباه ،

والأسخريوطي حفيد حفيده ،

وهما عجوزان متعفنان ، يتسلقان الجبل

مثل أفعيين يزحفان بلطف وبطء .

كان قايين يزمجر بصوت كئيب : « يا رب ! »
وعيناه القاتمتان نحو السماء تستديران .
وكان يهوذا الشرير يتوسل : « يا رب ! »
دون أن يرفع عن الأرض ناظريه ..
وما فوق الجبال ، في سحابة قرمزية ،
كان الرب واقفاً يقرأ في كتاب .
كان كتاباً مخطوطاً بالنجوم :
ورقة واحدة ، درب التبّان !

وفي قمة الجبل ، إلى الأمام باستقامة ، رئيس الملائكة
يمسك باقة من البروق في يده البيضاء .
وقال لذينك الحاجّين ، قاسياً :
« وراءً ! الرب لن يستقبلكما ! »
وكان قايين يقول شاكياً : « يا ميخائيل !
« أنا أعرف ذلك ، فخطيئتي عظيمة .
« لقد ولدت قاتل الحياة النقية .
« إني أبو الموت اللعين . »
وكان يهوذا يقول : « يا ميخائيل !
« أنا أفدحُ جريرةً من قايين ،
« لأني سلمتُ الموت الدنيء قلب الله ذاته ، النقي كالشمس . »
وكان كلاهما ينوحان :
« يا ميخائيل ! أواه ! لو ان الربَّ يقول لنا
« كلمة واحدة ، كلمة واحدة من الرأفة .

« لأننا لن نسأل إذن ، بعد ذلك ، الصفح عنا !»
فأجاب رئيس الملائكة بصوت مخفوض :
« ثلاث مرات تكلمت من أجلكم حتى الآن ،
« وفي مرتين لم يقل الرب شيئاً ،
« وفي المرة الثالثة قال ، وهو يهز رأسه :
« ألا فاعلم أنه ما دام الموت يقتل حياً واحداً
« فلن يكون صفح عن قايين أو يهوذا .
« ألا فليصفح عنهم من يستطيع
« أن يقهر ، إلى الأبد ، قوى المنيَّة .»
عندئذ صرخ الخائن وقاتل أخيه
وزمجرا ...
وتدحرجا ، ملتف أحدهما بالآخر ،
في المستنقع النتن المنبسط عند سفح الجبل ..
وهناك ، في المستنقع ، كان الجن والشياطين والأبالسة
يهللون في جنون ،
ويبصقون على قايين ويهوذا نيراناً زرقاً من المستنقع .

٥

أفاق الموت عند الظهيرة ..
تطلع حواليه فلم يرَ للفتاة أثراً . .
زمزم الموت ، وهو بَعدُ ناعساً : يا للفاجرة !
لقد كان الليل قصيراً من دون ريب .

وذهب الموت يقطف زهرة عبّاد شمس من وراء السياج .
وشم رائحتها ... وراح ُيعجب بشعاع الشمس .
كيف ُيذهّب بلهبه الحي ورقة الحور ، ويحيلها فلزاً ذهبياً .
واستدار نحو الشمس وأنشأ ، فجأة ، يغني
بصوته الأخن البائس الخافت :
« البشر يقتلون قريبهم
« بيدهم دونما رحمة ،
« ويدفنونه وينشدون :
« فليتقبل القديسون روحه !
« لست أفهم شيئاً !
« الطاغية يضرب البشر ويطاردهم
« ولكنه إذا مات دفنوه
« بدوره : الرْجعُ نفسه !
« للشرفاء وللصوص .
« الألم ذاته على الدوام !
« تغنيه الجوقة الحزينة :
« فليتقبل القديسون أرواحهم !
« الأبله والوحش والمغرور
« أقتلهم جميعاً بيدي .
« ولكن الناس ينشدون بعناد :
« فليتقبل القديسون أرواحهم !

٦

إذ انتهى الغناء بدأ العمل .
ولقد انقضى حتى الآن أكثر من يوم واحد !
ولكن الفتاة لا تعود ...
شرٌّ هذا ! فالموت لا يرغب في الضحك .
ويجتاحه الغضب ، فيلبس حذائيه ،
ودون أن ينتظر ضوء القمر
ينطلق أكثر وعيداً من العاصفة ..
وبعد ساعة لمح في فسحة بين الأشجار ،
تحت شجرة جوز فتية يرصعها الندى ،
على العشب الحريري ، في ضوء القمر ،
الفتاةَ هناك أشبه بإلاهة الربيع ،
كما هي الأرض عارية قبل يقظة الأعشاب .
كان صدرها أبيض عارياً دونما حياء ،
وعلى إهابها الحريري ، إهاب الظبي الفتي ،
تتضوأ نجوم القبلات ...
وكان برعمان ، أشبه بكوكبين ، يزينان صدرها .
وكانت عيناها ، أشبه بكوكبين ، تنظران بلطف
إلى السماوات ، إلى درب التبّان الشديد النقاء ،
درب الليل الأزرق الشعر .
كانت عيناها تغطيها غبشة من ظلال خفيفة .
وشفتاها الرطبتان ، قرمزيتان كجرحين حديثين .

وكان الفتى ينام كوعل متعب منهوك ،
مسنداً رأسه إلى ركبتيها ...
نظر الموت فاذا نار الغضب
تنطفىء على مهل في قحفه الأجوف :
« لِمَ إذن ، يا حواء الجديدة ، قد اختبئت عن الله تحت شجرة فتية ؟ »
فأجابت الفتاة بشجاعة ،
وهي تخفي حبيبها تحت جسدها المصنوع كله من الكواكب والقمر ،
فكأنها تحميه بدرعٍ من السماء :
« انتظر ، لا توبخني .
« وبصورة خاصة لا تُثرْ أية ضوضاء ،
« ولا تخفه ، ذلك المسكين !
« لا ترسل صفيراً من منجلك القاطع !
« سأجيء دون تأخير أضطجع في القبر .
« أما هو ، أما هو فوفِّره بَعدُ !
« مذنبة أنا حقاً ، فقد تركت الموعد يمضي .
« كنت أفكر : ليست المسافة بعيدة حتى الموت .
« دَعْ لي بعد برهة كي أقبِّله ،
« فما أشد قربه مني !
« وهو الآخر يملؤني راحة . أنظر قليلاً ،
« كل هذه الاشارات التي تركها
« على كلا وجنتي وعلى صدري !
« أنظر إليها تزدهر ، شقائق من نار ! »

قال الموت ، خجلان قليلاً ، بصوت خافت :

« ليقال إنك قد قبّلت الشمس ،

« ولكن ، هل تعرفين ؟ فأنت لست الوحيدة ،

« بل لا بد لي بعد من قتل الألوف .

« أجل ، إني أخدم الزمان بإخلاص .

« لما يزل أمامي كثير من العمل ، وأنا عجوز ،

« وكل دقيقة معدودة عليّ .

« ألا فاستعدي ، يا فتاتي ، فقد حانت الساعة ! »

ولكن الفتاة قالت ، دون أن تصغي إليه :

« أنا بين ذراعي حبي ،

« لا السماء أو الأرض توجدان .

« إن قوة فوق طبيعية تملأ نفسي ،

« وفي نفسي يلمع ضياء فوق طبيعي .

« لا خوف أمام القضاء ،

« ولا حاجة ، بعد الآن ، إلى الله أو البشر !

« الفرح ، كالطفل ، لذة لنفسه .

« والحب يتذوق ذاته ! »

سكت الموت متفكراً ، صارماً :

« ليستحيل ، في الحقيقة ، مقاطعة هذا النشيد .

« ليس في العالم إله

« أجمل من الشمس !

« وليس نار من الحب أروع ! »

٧

سكت الموت ، فنشيد الفتاة
يذيب عظامه ، في حفيرة الجسد ،
بنارٍ من الحمى ، بنارٍ من الجليد .
ماذا عسى أن يقول قلب المنيَّة للعالم ؟
المنيّة ! ليست هي أماً ، بل هي امرأة .
وفيها أيضاً يسيطر القلب على العقل .
وفي قلبها المظلم ما برحت بذور
من الشفقة ، من الغضب ، من الحنين الغامض .
ولأولئك الذين تحبهم أكثر الحب ،
لأولئك الذين يحترق قلبهم بعذاب أصمّ ،
تهمس بحب ، إذا جنّ الليل ،
الكلمات الممجدة فرحة الراحة الكبرى .
وعاد الموت يقول : « إيه حسناً ! فلتكن المعجزة .
« إني أسمح لك بالحياة ،
« وسأظل بقربك ،
« وسأظل إلى الأبد ،
« إلى جانب الحب . »
منذ ذلك الحين والحب والمنيَّة معاً
غير منفصلين حتى هذا اليوم .
ووراء الحب ،

تُشرع المنيّة منجلها القاطع .
إنها تتبعه في كل مكان كوسيطٍ له .
إنها تذهب ، وقد سحرها الآخر ،
إلى العرس كما تذهب إلى المأتم .
وإنها لتبني ، دون هوادة ، ودون أن تضعف قط ،
سعادات الحب وأفراح الحياة ...

الجنية الصغيرة والراعي الفتى

حكاية فالاكية

الأقاصيص التي يرويها البشر كئيبة في أغلب الأحيان ؛ ألا فلندع جانباً أمر البحث عن سبب ذلك ، ولنسمع بالأحرى إحدى هـذه الأقاصيص ، وهي حكاية جديدة في موضوع قديم يرددونها على ضفاف الدانوب ، النهر الأزرق ..

ثمة غابة ، عتيقة جبارة ، على طول الدانوب .. أنها تبدأ عنـــد ضفة النهر بالذات ، وتذهب عميقاً في السهول المحاذية له ، تمتد أغصانها حتى ما فوق الأمواج الزرق الطائنانة ، بينا جذورها العقدة المتغضنة تقبّلها وتغسلها المياه المتراكضة على الضفاف المرتفعة بضوضاء عذبة ملاطفة .

وكانت بعض الجنيات تحيا في هذه الغابة ، وجنٌ شيوخٍ حكماء قد بنوا لهم ، تحت الجذور ، قصوراً يفكرون فيها بأمور الحياة ومختلف المواضيع الأخرى التي ينبغي للمرء أن يمعن فيها التفكير كي يصير حكيماً . وكانوا يخرجون في الليل إلى الضفاف الظليلة ، ويقتعدون حجارة مغطاة بطبقة رقيقة من العشب الأخضر الغامق ، أو جذوعاً عتيقة لأشجار حطمتها العاصفة الهوجاء ، ويروحون يتأملون الأمواج المتدفقة صوب البحر ، قادمة من المنأى الغامض ، متوجة بما يشبه ستاراً من الدياجير المضبّبة ، ويرهفون أسماعهم لهمسها ووشوشتها .

وكانت ملكة الجنيات العجوز وبناتها الأربع يقطن هـــذه الغابة أيضاً ؛ وكانت صغرى البنات أمرحهن وأجملهن وأجرأهن . كانت صغيرة جداً ، وكان

رأسها الصغير المجلل بموجة من الشعر المجعّد المفضض يتراءى أشبه ما يكون بزنبقة في إبان ازدهارها ورونقها .

كانت تضرب في أرجاء الغابة أياماً بطولها ؛ فاذا تعبت جلست على أغصان شجرة زان عجوز جوفاء تنتصب قرب حفاف الغابة ، من الجانب المطل على السهب . ذلك كان مكانها المفضل الأثير ؛ ومن هنا كانت ترى السهب بلا نهايته الشاسعة من خلال الستار المتكاثف للأغصان الخضر العطرة المتموجة كالبحر الهموم لدى أقل نفس من الريح السجسج اللطيفة : كانت تلك اللا نهاية تبدأ بعد الغابة مباشرة ، ثم تتراءى هنالك في المنتأى الزهري والأزرق ، حيث تختلط حدوها بلازورد السماء الناعمة .

كانت تجلس هناك عالياً في الأغصان التي تهدهدها الريح الطفل بعذوبة تحتها ، تغني تحت ملاطفات الشمس سعادة الكينونة جنيةً والحياة في غابة عجوز ظليلة .

وكانت محبوبة من العصافير ، وسائر الكائنات التي تحيا معها ، وكانت بذلك سعيدة جداً ! ولكن هذه هي تتعرض لهذا الحادث الحزين الأسيف الذي رواه لي صيادو الدانوب .

كان ذلك في شهر نوار ، نوار الفاتن الخلاب ، نوار الباسم الفرحان . . . وكان الأوراق الندي ، المشرق الخضرة ، الذي ولده نوار هذا يعلن عن فرحته ، وهديره ينتشر في موجة عريضة طنانة في السماء المتدفقة الزرقة حيث تسبح بلطف ونعومة سحب بيض ورية المظهر ، ثم تذوب تحت وطأة شعاعات لاهبة تنثرها الشمس الربيعية المرحة .. كانت الجنية تتأرجح فوق أغصان شجرة الزان الكبيرة وتغني ، فيصدر عن الأغصان المصرصرة موسيقى عذبة ، فيما خضرتها تمتدح بصخب أغاني الجنية الجميلة :

« ما أطيب العيش بين أغصان شجرة الزان ،

والتأرجح في صباح من نوار جميل ،

والنشوة في موج العطور والأصوات ،

أصوات الغابة العذبة المتناسقة .

كانت تلك أغنيتها المفضلة ، وما كانت تنتهي منها البتة .

ما أطيب العيش ، من غصن إلى غصن ،

كسنجاب صغير أمرح ،

كسنجاب يمزق بيده البيضاء

وشاح العناكب الناعم .

وفجأة ، بلغ مسمعيها ، فكأنه جواب على أغنيتها ، أغنيـــة أخرى طنانة جريئة :

ما أطيب العيش في السهب الشاسع

الذي أسكرته الحرارة بلطف ،

والعين تتابع في البحر السماوي

السحبَ تُقلِعُ في الخضم العباب !

دهشت الجنية واجتاحها شيء من الذعر ؛ كانت هذه الأغنية آتية من السهب ، وذلك الذي ينشدها يتقن الغناء ويجيده . كان صوته يتردد متناسقاً جميل الجرْس ، يدعوها إلى مباراته فكأنه يتعمد إغاظتها :

الريح تنطلق من سلاسلها في إعصار جموح

وتجتاز ، كمجنونةٍ ، السهب العريض .

لَيُقال إنها تريد في السماء

أن تطفيء شعلة النجوم .

لم يكُ ذلك الذي يغني هكذا قبّرة أو عندليباً : فهي تعرف سائر أغانيها .
من عساه يكون إذن ؟ إنها لفي لهفة وشوق لمعرفة ذلك .

ما أطيب العيش ، والعين ترى
أغصان الدردار الصغيرة تختلط بالسنديانة العملاقة !

لاذت بالصمت ؛ ولما كانت امرأة ، فقد كانت مزهوّة بنفسها . وفكرت أيضاً أن الغابة لم تسمع منذ منشئها أغنية جميلة رائعة كهذه الأغنية التي أنشدتها لتوها . ولكن هذا النشيد تردد في السهب قبل أن تجد الغابة الوقت الكافي كي تشكرها على إنشادها بهدير أغصانها :

أيها السهب موطني الأم ! الأشعة المفضضة
تغمرك من جانب إلى آخر ،
والرياح فوق تهبّ بضربة جناح
مثل طير عظيم جبار ،
وأنت تحلم تحت ملاطفاتها .
وهناك عالياً ، عالياً جداً ، من فوقك ،
تجوب السحب زرقة السماء
كالدخان على غير هدىً ...

تسلقت الجنية الصغيرة ذروة شجرة الزان كالسنجاب ، وألقت بأبصارها إلى السهب . كان النهار ينفث لهبه الأخير ، وذلك الجانب الذي تتحدث عنه الأغنية مصبوغاً بقرمز زاهٍ ، فكأنه مغطى بشعار هائل من المخمل ، طياته تتألق بنيران الذهب الوهاج . وكان هيكل غريب جميل يرتسم على روعة القاع ، هيكل يمسك بيده عصاً ، ويتدلى جلد خروف أبيض من كتفيه حتى حضره . كان ينتصب فوق إحـــدى تلك الهضاب حيث تعيش الأخلاد ، يغني وذراعاه ممدودتان نحو

الغابة . وما كانت العين ترى شيئاً آخر . وعندما انتهت الأغنية الرنانة الجريئة ، اجتاحت الجنية رغبة عظيمة في رؤية المنشد عن قرب حتى كادت أن تعدو إليه . ولكن ما أن تذكرت أقاصيص أمها عن أولئك البشر الذين يجوبون أرجاء السهب والذين يجب ألا تصادفهم إذا شاءت ألا يقع مكروه ، ما أن تذكرت ذلك حتى تمالكت نفسها ، وإن ظلت عيناها مثبتتين في المنشد بسكون ، فهي لا تستطيع أن تحيد بها عنه . أما هو ، فما انتهت أغنيته حتى لوّح بعصاه فوق رأسه ، وأرسل من فمه صفيراً حاداً ، وألقى في اتجاه الغابة بهذه التحية : « أو-هي ، وداعاً : »، ثم انطلق بخطاً سريعة في السهب ، من حيث تسبح لملاقاته أمواج دقيقة من الظل الأزرق الغامق ، انطلق وقد أخذ ينشد من جديد :

هل أكثر كآبة على القلب

من رؤية السهل المسطح العاري ؟

كان صوت الجنية يرن مثل أجراس من الفضة وهي تلقي بهذا التحدي ، فيما تلقت منه هذا الجواب :

إن الغابة العجوز المكتئبة ،

حيث تتعانق الأغصان السود ،

تخفي عن أنظاري الجائعة

قبة السموات اللازوردية .

عندئذ ثارت ثائرة الجنية . أفلم يكن لازورد السماء بيناً من خلال أغصان الأشجار ؟ إن ذلك الذي ينشد هذه الأغنية لم يعبر الغابة أبداً : وأي شيء جيد في السهل الأجرد اللامتناهي ؟ إن الحكيم نفسه يعجز عن الاجابة على هـــذا السؤال . وصاحت بصوت قوي في اتجاه السهب :

عندما يكنّس الاعصار السهب

تزمجر الريح بأناشيد متوحشة ،
والغابة ترتعش فرقاً
فينتزع هديرها المذعور من عينيّ الرقاد .

وإذ أرهفت أذنها ، سمعت شخصاً يضحك بمرح في السهب العريض، فهتفت في وليجة نفسها : « آه ، يا للوقح ! » وأحست رغبة جموحاً في الانتصار عليه :

من الغابة أنشد المدائح .

أنشدت ذلك بصورة رائعة حقاً ، فهدرت الغابة بأمرها ، حتى أضأل كل غصن فيها ، بأوراقها المخملية بلطف كثير ؛ وارتفع صوت مابيا ، كالقبّرة ، في عرض السماء :

أيتها العصافير ، أصغي إلى صوتي .

وإذا العصافير الصغيرة التي تغني دون كلل تلوذ بالصمت بصورة مباغتة ، كي تصغي وتتلقن مدائح الغابة :

رنّ ، جريئاً ، يا نشيدي ،
وانتشر في السماء الرائعة !
وأنت ، يا شمس ، اغمري أغنيتي
بعطف أشعتك الذهبية .
ألا فلتكن نغماته أنواراً
نقية ، صافية ، طاهرة .
ألا فلتذهب دون كلام ، عبر الليل ،
صوب الغابة المهيبة .
فلتتضوأ ، حشرات براقة
في خضرة السنديانات الجبارة .

عندئذ انتصبت على غصن عظيم ، وألقت برأسها إلى الخلف ومحياها يطفح ألهاماً ووحياً ، ورفعت يدها الصغيرة البيضاء نحو السماء ، واسترسلت تغني :

يا غابتي العجوز ، الطيبة ، المدهشة .

أنت كونٌ خفي

انت مملكة من العجائب !

وفي العطور الكثيفة ،

المتصاعدة من الورد الذي تهدهدين ،

تمجدك العصافير

في جوقة إلهية .

تحت كل غصن وكل ورقة

تحتبيء فراشة أو خنفساء ،

والخلد القاطن تحت الجذور

يسكن قصره الملوكي .

الأرنب الخجول والثعلب ،

والحية الصفراء والسنجاب ،

والجنيات المجنونات والجن الحكماء ،

في حضنك يجدون ملجأ .

إيه ، أيتها الغابة : العصافير جميعاً وزقزقتهم

لو أنشدوا طوال ألف عام ،

ليلة بعد ليلة ، يوماً بعد يوم ،

فلن يستطيعوا أن يغنوا كل شيء ،

يا غابتي الجبارة العجوز المدهشة !

فقذفت إليها الجواب يقول :

النسيم يطرد السحب ،
وظلالها تحلق فوق السهب ،
والسنابل المفضضة تنحني
عندما يُثقل الظل على جذعها .
ووشوشة السنابل العذبة
تنزلق بأمواج هادئة في السماء .
ويخيل إليّ أن أساطير تتردد
بصوتٍ خفيض ..
أساطير تُفرح قلبي الطفل .
مثل نقطة سوداء في الفراغ
يدوّم نسر كاسر ويحلق وهو يصغر حجماً .
وصياحه يهبط إلينا
ناقماً ، جباراً ...

مملكة القوة الحرة ،
هو أنت ، يا سهبي الجبار ...

ثم أضحت كلمات الأغنية غامضة ، فأصداؤها وحدها تبلغ الغابة ؛ وكانت الجنية تجد لذة عظيمة في سماع هذه الأصداء ، حتى إذا تلاشت أخيراً ، ضائعة في سهل السهوب اللا متناهي ، غاب هيكل المغني عن أبصار الجنية في الوقت نفسه ، غارقاً في بحر الدياجير القطاني .

عندئذ هبطت إلى الأرض نهباً الأفكار ، وعادت أدراجها إلى قصرها صامتة لا تنبسُ بحرف . ولكن كل ما كان من قبل يطفح أهمية بالنسبة إليها :

الاعيب الجنيات مع الفراشات ، وتألق الحشرات البراقة ، وعمل العناكب بين الغصينات ، وتكسر الأوراق تحت قدميها ، والظلال الدقيقة التي تغمر الأشياء كلها ، والجن الشيوخ المنطلقون إلى النزهة ، محنيين كالأقواس ، هذا كله لم يوقف عينيها الصافيتين ... كانت تفكر في ذلك الذي غنى بمثل تلك الروعة ما لا يحصى من الأغاني الجميـــلة ، هنا في السهب ، وتنتابها رغبة عظيمة في معرفة هويته . ووجدت أمها وأخواتها يتهيأن لعرس فأر عظيم الجدارة ، فدعونها في الحال لمرافقتهن . ولكن هذا لم يعنِ شيئاً بالنسبة إليها أيضاً . عندئذ سألتها أمها :

– فيمَ هذه الكآبة ؟ هل أنت متعبة ؟ أم أنهم ألقوا الذعر في قلبك مرة أخرى ، أولئك الغربان الأشرار ؟

– كلا ، لا شيء من هذا القبيل ، يا أماه ، لا شيء من هذا القبيل مطلقاً .

وحدثتها بكل ما جرى لها ، ثم سألت من عسى أن يكون ذلك المغني .

ولم تدهش أخواتها لحكايتها ، بل هتفن :

– ولكنه لم يكن سوى راعٍ بكل بساطة ؛ وأنت ،إنك حمقاء صغيرة !

وانطلقن وهن يتضاحكن ، يترامين بالورد ويصرخن :

– إننا في انتظاركما .

قالت الجنية الأم :

– أجل ، ليس هو سوى راعٍ ، يا ابنتيَ . وهو شاب بعد بكل تأكيد ، ولذا فهو يغني . عندما تمضي عليه السنون ، فسوف ينسى كيف الغناء ...

كانت عظيمة التجربة ، ملكة الجنيات تلك !

سألت مايا :

– وما هو ، قولي يا أماه ، الراعي ؟

– الراعي ، هو إنسان أيضاً . إنه يرعى الخراف ، ولذا فهو يدعى راعياً .

والرعاة أفضل من بقية البشر على أية حال . هم أقل خبثاً وكذباً ؛ ولا ريبة أن السبب في ذلك أنهم يعيشون معظم أيامهم مع الخراف .

– ولكنه لا يستطيع أن يُلحق بي أي أذىً ، يا أماه ؟

– بلى ، أظن أن بلى ، فهو كما ترين إنسان على أية حال . غير أنه لن يأتي إليك بكل تأكيد ، وأنت أيضاً لن تذهبي إليه ، أليس كذلك ؟ فلا حاجة بك إلى الخوف إذن ، يا فتاتي الصغيرة .

وإني أعود فأقول ذلك مرة أخرى : لقد كانت ملكة الجنيات امرأة نادرة المثال . كانت على قدر كبير الذكاء ، وكانت تعرف البشر جيداً . ولكن يبدو أنها نسيت شيئاً ما ، هذه المرة ...

لاذت مايا بالصمت ، ورافقتها إلى عرس الفأر . كانت الحماسة عظيمة هنالك ، فالغابة كلها قد اجتمعت للاحتفال .. فثمة جمهور عظيم من الجداجد والصراصر تؤلف أوركسترا تعزف بصورة رائعة ، فيما جنيات وفراشات وسكان آخرون من أهل الغابة يرقصون ويغنون . وكانت ملكة الجنيات وفتياتها يجلسن على عرش مهيب من السوسن يخدمهن فريق من الجملان ، فيقدمون إليهن الندى بنسغ البنفسج تارة ، وحليب الجوز البري تارة أخرى ، ومختلف أنواع المآكل والحلويات الأخرى . وكان الجن الحكماء يتناقشون فيما بينهم بموضوع الحياة وأسرار أخرى ، والأكثر حكمة فيما بينهم يزدادون رسوخاً في إيمانهم بأن كل شيء في الحقيقة ليس سوى عبث وغرور ووهم خالص . لقد كانت الحماسة عظيمة حقاً !

كان الخطيب جميلاً ، كثير الوقار ؛ وإلى ذلك لم يكن غبياً مطلقاً ، بل كان يملك ثروة كبيرة أيضاً . وما كان في مكنة المدعوين أن يتأففوا من أي شيء البتة ، فهم يرهفون آذانهم بابتسامات ملاطفة إلى آرائه عن «العائلة التي هي جوهر

حياة المجتمع ، الأمر الذي اقتنع به فأقبل على الزواج ، فهو بذلك يخدم المجتمع بطريقة ما ، إذ يضيف حلقة جديدة إلى سلسلة العائلات الذهبية » .

وكانت الخطيبة على غاية السعادة بكل تأكيد ، ما دامت تلوذ بالصمت طوال الوقت . وعندما كان أحدهم يطرح سؤالاً عليها ، فما كانت تجيب ، بل كانت تبتسم بدلاً من ذلك ابتسامة معسولة لذيذة .

وتسرب الملل إلى قلب مايا ؛ وإذ سنحت لها الفرصة ، فقد اكتسبتها وسألت فأراً عن رأيه في الرعاة .

قال :

— الرعاة ! بـِر ... بـِر ... إن كنت أعرفهم ! آه ِ — بلى ! يا أميرة ، لقد كان لي وإياهم شأن ، أنا . هم فقراء على الدوام ، ولذا فهم جميعاً أشقياء لصوص . آه ِ ، بلى ، ذلك حق لا مراء فيه ! هكذا هي الأمور ، فالرعاة لا يملكون شيئاً سوى أنفسهم ، وكل من لا يملك شيئاً اص بالضرورة ، إذ من أي شيء يحيا إذا لم يك لصاً ؟ وعلى أية حال ، فيمكن أن يكون له مساعد أيضاً ، الأمر الذي يزيد الطين بلة ، لأن السرقة عمل رغم كل شيء . إن أحد هؤلاء الرعاة قد ألقى يوماً عصاه الطويلة عليّ ، وطاردني حتى اللحظة التي اختفيتُ فيها في جحر أرضي . أجل ، صدقيني .

فسألت مايا :

— ولِمَ ألقى عصاه عليك ؟

— لِمَ ؟ لهذا السبب البسيط ، فيما أعتقد ، وهو أني نسيت الحذر والاحتراس فمررت بجانبه ، وهذا كل شيء . وليس شيء أكثر من ذلك على الاطلاق . ذلك إن الرعاة ، كما ترين ، بشرٌ .. قولي ما شئتِ ، فيجب ألا نطلب منهم الكثير .

كان ضجر مايا يزداد شيئاً فشيئاً . إن كل ما يجري أمام عينيها لم يعد يثير

الاهتمام مثله من قبل . وقد غمرتها السعادة عندما قالت لهـا أمها إن وقت العودة إلى الدار قد أزف . رجعن أدراجهن ، والحشرات البراقة تعدو أمامهن كي تضيء لهن الطريق . وكانت الغابة قد رقدت ، والسماء قد رقدت أيضاً ، والنجوم تنظر من عل إلى الأرض وتبتسم لها بعذوبة حائرة متفكرة .

وبلغن قصرهن .. تهالكت مابيا على سريرها الصغير المصنوع من السوسن ، وما غلبها النعاس حتى رأت السهب الفسيح بصورة لا متناهية تحرقه الشمس ، وهناك على الهضاب ينتصب عدد وفير من الرعاة ، في أيديهم عصي طويلة ، والريح تلعب في شعرهم الأسمر المجعد . كانوا يغنون بأعلى أصواتهم أغنية مخوفاً تتحدث عن الحرية وعن السهب ، وكانوا يطاردون الفئران وهم يزعقون بصوت قوي : « إهو-هو » . كانوا مخيفين أشراراً ، يرسلون في قلبها هلعاً عظيماً ، ولكن ذلك لم يمنعها ، منذ شروق الشمس ، عن الاسراع إلى مكانها المفضل وتسلق أغصان السنديانة .

كان هناك ؛ وكان يغني :

في الغابة ، على ضفة النهر ،
ذات مرة ، كانت جنية
تستحم في كل ليلة .
وإذا المغفلة ، يوماً ،
تقع في الشباك رغماً عنها
فيحملها الصيادون في دهشة .
وإذا ماركو ، الرفيق الطيب ،
يأخذ بين ذراعيه الجنية اللطيفة
ويقبلها في حمية وهوى .

اما هي فكانت تتلوى
بين ذراعيه كغصن من الخيزران ،
وعيناها في عيني ماركو تغوصان.
من كان يستطيع أن يقول
لمَ كانت ضحكتها بعذوبة ترن ؟

وتلاطفا طوال النهار ،
فما هبط الليل حتى اختفت الجنية ،
بينما ماركو قد تبددت قواه .

ضرب طوال النهار في الغابة على غير هدى ،
وفي الليل كان يجلس على ضفاف الدانوب ،
يستوضح زرقة الأمواج : أين هي ، الجنية ؟

فتضحك الأمواج الزرق وتضحك : لا ندري .
بالوحل المرير المرتعش ،
شنق نفسه ماركو ، بالحور !
فدفنه أصدقاؤه عميقاً
في حفرة على ضفة الدانوب الأزرق ..

وعلى قبره ، في كل ليلة ،
دون ضوضاء ، تأتي فتجلس الجنية ..
وتظل هناك قاعدة ، وتضحك ..
آهِ ! لشد ما تحب المرح !

إن الجنية تستحم في النهر ،
كما كانت تفعل فيما مضى ، قبل ماركو ..

لقد مات ماركو ، ولم يعد ماركو

سوى أنشودة غرامياته .

كانت أغنية مرحة جداً ؛ وكانت ضحكة لا مبالية حرة ، مثلها مثل الراعي نفسه ، تتردد في صوته الجميل ..

وفكرت الجنية في وليجة نفسها : يا لهـا أغنية غريبة ! من علمه أن يغنيها ؟ وإن جنية هذه الأغنية لغريبة ، وماركو غريب أيضاً ... لمَ شنق ماركو نفسه ، وما عسى أن يكون معنى شنق النفس ؟ كان يخيل إليها أن تلك الأغنية لم تكن أغنية مرحة ـ إنها أغنية كثيرة الحزن ، على العكس ؛ ومع ذلك كان الراعي يغني بمرح كثير .. تطلعت إليه من خلال ذرى الأشجار وتمنت أن يقترب أكثر ، سوى أنه لم يتقدم ، بل استمر يغني ويلوّح بعصاه في الفضاء ، بصورة موقعة مع اللحن الذي يُنشد . وعندما ينتهي من أغنية ، كان يهتف بصوت قوي : « إهو » ، ويبدأ أغنية أخرى :

إني أعرف أغنية أيضاً .

إنها أغنية القوزاقي العجوز

الذي كان يهبط ، ذات ليلة ،

تيار النهر على متن قارب صغير .

كانت الأسماك في المياه تستيقظ

بسبب هدير مجذافيه ،

وفي السماء كان البدر يسبح ،

هو الآخر ، والنعاس يثقل جفنيه ...

وكان الحنان يتضوأ

في عيون النجوم الأناث ،

اللاتي يعرفن ما سيعقب
مصير الشيخ الحزين .

كانت مايا تصغي وتفكر أن ليس مُغنٍ آخر ، وربي ، يعرف مثل هـذا العدد الوفير من الأغاني الجميلة .. يا لها أغاني جميلة كئيبة ! وما أصدق ما يقول عن النجوم اللاتي يعرفن كل ما يمكن أن يحدث غداً وما بعد ذلك أيضاً ! ما أطيب إرهاف السمع إلى هذه الأغاني الجديدة ! وهـــذه مايا ، دون أن تنتبه لذلك ، تنتقل من غصن لآخر حتى تبلغ حدود الغابة .

واسترسل المغني ينشد :

وفي القارب بغتة
جلست إحدى عرائس البحر
وانتزعت ، بصورة مفاجئة ،
المجذاف من يديه الضعيفتين .

ولكنه توقف هنا ، ناظراً إلى المنتأى البعيد وعلى سيماه دلائل التفكير العميق ، وهو يصفر بعذوبة لحن أغنيته : « إهو » !

إنها جميلة ؛
فتية وعارية ؛
وقطرات من الماس
تسيل من شعرها ؛
وهي تلعب ، ضاحكة ،
بلحية القوزاقي ...
وقالت له : « أتريد أن تحبني ،
أيها العجوز الأشيب ؟

ولكن ، حقاً ، هل تستطيع ذلك ؟
أنظر نفسك ، ضعيفاً مهزولاً ،
فملاطفاتك لن تطفىء أبداً
لهيب رغبتي ...
كي تعانقني وتضمني ،
أنت أضعف من ذلك ، أيها القوزاقي الشيخ ...
هيا ! جرب ! قبلني
كما أفعل ... هكذا .. هكذا ... »
واستولت عليه وشرعت
تقبّله ...
وفي أذنه راحت
تهمس بأغانيها بلطف كثير .

كانت مايا تصغي وتفكر : « ما أجمل ذلك ! » . كان جسد عروسة البحر يلوح ، في شعاعات القمر ، عذباً شفافاً ؛ وشعرها الكثيف يكسوه بخصل ثقيلة ، فيروح يتألق بين هذه الخصل فهو ضياءٌ يعمي الأبصار ؛ كانت تتلوى كالأفعى على صدر القوزاقي العريض ، فتمتزج خيوط لحيته الفضية بشعر العروسة الذهبي ، فيما هي تغني بصورة عذبة حنون ، وأغنيتها عذبة من دون ريب ، مثلها مثل ضجيج الأمواج في السواقي زمن الخريف ، وبريق عينيها متأجج كبريق النجوم المنضوئة على مخمل السماء الأزرق القاتم ، هذه النجوم التي تبتسم وتغمر بنور شعاعاتها الرقيقة النهر ، والقارب ، وذينك الجالسين في القارب يتبادلان القبلات. ما أجمل ذلك ! . . . وكان ثمة موسيقى أيضاً . . . الموسيقى التي يصنعها همس الأمواج ، وصخب القبل ، وهدير الأشجار على الضفة الغارقة في الأمواج

الطرية التي تنشرها الدياجير ، والأغنيات الهادئة التي تنشدها عروسة الماء !..
كل ذلك كان يذوب في لحن عذب حزين إسمه فرحة الحياة .

واسترسل المغني :

أحس القوزاقي بقية
من قواه الفتية تتحرك ...
« إني أقدر » ... وانزلق همسه
على المياه الهادئة ،
دون أن يوقظ في الظل
الضفاف الناعسة ...
وحلّق ....
مثل كبة من الثلج في سماء نقية ،
ومات كآبة في مكان ما .
كان الكون نائماً
والعجوز المسكين ، في بهمة الليل ،
لم يسمع أي صوت آخر ...
وكان النهر الجميل ، مثله دائماً ،
يُدحرج أمواجه الحريرية اللازوردية .
ولكن ذلك البائس لم يعد
بين الأحياء البتة !
وحدقة عروسة الماء
لن تغوي بعد الآن قلبه المجنون !
إن القوزاقي المسكين يرقد في أعماق حفرة

و ... ذلك كل شيء !

هكذا انتهت إذن أغنية الراعي ! ما كانت مايا تتوقع مثل هـــذه الخاتمة ، فأحست الحزن يكتسح قلبها . لقد كان ذلك رائعاً جداً ، وهذا هو ينتهي على مثل هذه الصورة القاسية ! « وفيمَ إذن هذه الكلمات : « ذلك كل شيء ؟! » ؟ . لقد كان في تلك الأغنية كثير من الأشياء الجميلة !.. تطلعت إلى الراعي . إنه الآن قريب منها ، فهي تستطيع أن ترى أنه حزين هو الآخر . كان مطرقاً برأسه الذي يهزّه بصورة لطيفة ، مثبتاً عينيه في الأرض . وأحست رغبة في محادثته ، فصاحت دون أن تفكر لحظة واحدة فيما قد ينتج عن فعلتها :

– طاب صباحك . قل لي ، لِمَ تنتهي أغانيك الجميلة على مثل هـذه الصورة الكئيبة الأسوانة ؟

هبّ الراعي على قدميه ، واقترب حتى حفاف الغابة ، وإذ اكتشف الجنية بين الأغصان ابتسم بنظرة عينيه السمراوين ، وأشار لها برأسه ، وأجاب :

– لماذا ؟ ولكن لأن سائر الأغاني لهـا خاتمة ، وقد سمعت الناس يرددون أن ليس ثمة شيء ، حتى هـذا اليوم ، ينتهي كما بدأ . هـذه أنت التي تملئين الغابة بأناشيدك ؟ هكذا أنت مصنوعة إذن ! كنت أفكر حقاً أنك صغيرة ، بسيطة ، ورقيقة . إن صوتك ليشبهك كل الشبه ...

جنحا إلى الصمت وشرعا يتفحص كل منهما الآخر . ارتفق عصاه ، وأسند رأسه إلى راحة يده ، وراح يتأمل طويلاً ، هناك عالياً ، الأغصان التي ينظر إليه من خلالها وجهٌ صغير ناصع ذو عينين براقتين جوزيتي اللون . ما أعظم فتنته في إطار أوراق نوار !

قالت مايا ، بعد أن تأملت ما طابت لهـا نفسها عينيه السوداوين كالهاوية ، ووجنتيه الملفوحتين المكسوتين بوبرٍ مذهب :

– أنت تغني بصورة رائعة !

فقال الراعي :

– إني أغني كما أستطيع ، لا أفضل ولا أسوأ ، أيتها الفتاة . إنزلي إذن إلى الأرض حتى أراك عن قرب أعظم . ذلك أنك رائعة الجمال ، هل تعلمين ؟

آواه ! هذا ، إنها تعرفه، تعرفه بيقين لا يجاريه يقين ... في الليل ، عندما تنام السواقي الجارية في الغابة ، فكثيراً ما كانت تعجب فيها بفمها الصغير ، وبكل شيء آخر فيها . أن الحسناوات جميعاً يعرفن أنهن حسناوات ؛ وإنهن ليعرفن هذا ، بصورة دائمة تقريباً ، قبل أن يبلغن السن التي تؤهلهن لمعرفته . ويمكن أن نفكر أن الأمر لو كان على غير ذلك ، فان بعض الأشياء كانت تكون إذن على غير ما هي عليه .

وأحست مايبا رغبة في النزول ، لكنها تذكرت ما قالت أمها وما ردده الفأر. سألته :

– هل أنت شرير ؟

– مَنْ ؟ أنا ؟ لا أدري ؛ إني راعٍ ...

فأسرعت مايبا تقول :

– هذا ، إني أعرفه . فأنت صالح إذن ؟

قال الراعي ، وهو يهزّ خصل شعره بمرح :

– لا أدري .

– إذا كان الأمر كذلك ، فلن أقترب منك ، لأنك شرير من دون ريب ! ليس في العالم سوى أشرار وصالحين ، وليس ثمة أي نوع آخر . وإنك لتجرب أن تخدعني .

فصاح الراعي :

ـ يا لك حمقاء صغيرة ! إفعلي ما تشائين ؛ إذا كنت لا تريدين أن تأتي ، فلا تأتي إذن . ولكن إذا جئت ، فسوف أقبِّلك .

ـ لا أريد أنا أن تقبلني .

ـ آهٍ ! أنت لا تقولين الحقيقة هنا ! فكل فتاة تريد أن تُقبَّل ، أفتحسبين إذن أني لا أعرف ذلك ؟

ـ حسناً ، فأنا لا أريد !

ـ في الحال ، قد يكون ذلك ممكناً ؛ ولكن بعد ساعة ، أو غداً ، فسوف تريدين ذلك أنت أيضاً . أنت لن تقضي حياتك كلها على أية حال في تسلق الأشجار . كذلك هي الأمور ، وهذا كل شيء !

طفقت مايا تفكر : « ربما كان من الأفضل أن أقبله في الحال ، إن كان ذلك أمراً محتوماً حقاً . مما لا ريب فيه أن ثمة لذة عظيمة في تقبيله هناك ، في تلك الحفيرة التي في وجنته عندما يبتسم ، وفي تلك الحفيرة الأخرى على الوجنة الثانية . »

قالت ، وهي تضحك :

ـ حسناً ، إني نازلة !

وقفزت عن الأغصان ، بين ذراعيه رأساً .

قال ، وهو يتطلع في عينيها :

ـ آهٍ ، لشدّ ما أنت خفيفة !

وقبَّلها على شفتيها ...

أواه ! ما أطيب ذلك ! عذب مثل نسغ السوسن ، دافىء كشعاع من شمس الصيف .. لقد سالت القبلة ، مثل دم جديد رائع ، في أوردتها حتى قلبها الذي هبّ يخفق بصورة مؤلمة ، هبّ يخفق بقوة وعذوبة ...

قبلته بدورها ، فردّ لها قبلتها . ومرة ثانية ومرة ثالثة ... وتبادلا القبل إلى ما لا نهاية .

كان المساء يهبط أثناء ذلك والشمس تتطفّل ؛ وكانت العتمة تجتاح الغابة ، فيما طفقت ظــــلال سبّاقة لليل تزحف في المنتأى ، على السهب المديد .. عندئذ تذكرت مايبا أن وقت العودة إلى البيت قد حان . ولم تك بها أدنى رغبة في ذلك، فقد كانت سعيدة جداً مع الراعي !

سألها :

— أتذهبين منذ الآن ؟ إنك لم تبقي طويلاً ! ولكن تعالي غداً ، فسوف أقول لك شيئاً عندما تأتين .

قالت مايبا :

— سوف أجيء ، فأنا سعيدة جداً معك . ولكن قل لي في الحال ما تريد أن تقول غداً حتى لا أضطر إلى التفكير فيه طوال الليل .

— أفلن تفكري فيه عندما تعرفينه ؟

— كيف يمكن التفكير فيما نعرف ؟

— كلا ، اذهبي . إلى الغد .

— إلى الغد .

تعانقا ، ثم غدت مايبا إلى الغابة ، فغنى الراعي كي يرافقها إحدى أغانيه ، لكنها كانت هـــذه المرة أغنية عذبة حنوناً مثل نسيم الصيف ، لا إحدى تلك الأغنيات القديمة ، العنيفة الجريئة ، الأشبه بريح السهوب .

عادت مايبا إلى البيت وروت كل ما حدث لها ذلك النهار . أبداً لم يسبق لها ، طوال حياتها ، أن رأت أمها وأخواتها مذعورات حزينات كما أصبحن بعد ما سمعن روايتها . كانت أمها تغضب تارة ، وتبكي تارة أخرى وهي لا تبرح تقول :

« ماذا فعلتِ ، أيتها الحمقــاء ، ماذا فعلت ؟ » . وكانت أخواتها يلذن بالصمت ، والغابة تلوذ هي الأخرى بالصمت ، متفكرة لائمة . أحست مايبا ذلك ، فذعرت دون أن تعرف لذلك سبباً .

كانت الأم تبكي وتقول :

ـ يا فتاتي ، لقد ضيعت نفسك .

وكانت أخواتها يعتصمن بصمت الأموات ، وهن يبكين أيضاً ...

ـ لمَ ذلك ، يا أماه ؟ فلنرَ ! إذا كنا قد تعانقنا ، فليس في ذلك ما يبعث على الرعب ، بل هو لذيذ بكل بساطة . ثم هو يقول إن العناق ، على أية حال ، أمر ضروري ، فاذلم يحدث اليوم ، فلا بدّ أن يحدث غداً . ذلك أمر محتوم !

ـ يا ابنتي ، ولكنه إنسان !

ولكن مايبا ما كانت تفهم عمق الهاوية التي تغطيها هـــذه الكلمات ؛ كانت تتحدث بلغتها الخاصة ، فتقول إن العناق أمر لذيذ ، وإن الراعي كان على قدر عظيم من الجمال ، وإن كل ما وقع كان سيقع بصورة محتومة لا مرد لها . كانت كلتاهما على حق ، وكلما أوغلتا في المناقشة ازدادتا قناعة بأنها على حق ، بحيث انتهت المناقشة كما تنتهي دائماً : لقد شعرتا بالاضطراب ، وبنقمة متبادلة .

قالت الأم :

ـ إنك لن تبتعدي عن هذا المنزل إلى أبعد من هذه السنديانة .

كانت السنديانة تقع على بعــد ثلاث خطوات من غرفة مايبا ، الأمر الذي ضاعف اضطرابها . اقتربت من تلك السنديانة وجلست تحت ستار أغصانها الأخضر الكثيف . بقيت وحيدة ، إذ أن والدتها وأخواتها قـد رجعنّ إلى القصر وهنّ يتهامسن مضطربات قلقات . لقـد أتعبها كل ذلك ، فاستغرقت في نوم عميق ، ذلك أن ضميرها كان طاهراً مثل ذلك الندى الذي تساقط من السماء قبل برهة وجيزة .

استغرقت في النوم ورأت فيما يرى النائم السهب وقد غمرته من سائر أطرافه شمس لاهبة محرقة ، ورأت الراعي أيضاً . كان ينشد الأغاني ، ويبتسم ، ويقبلها . وكانت عيناه تتضوءان ، وأسنانه تبرق مثل اللآلىء تحت وبر شاربيه الأسودين.

إنها تحس سعادة رائعة ! وعندما استيقظت... أواه ! لشد ما تجتاحها الرغبة في الاسراع إلى هناك إلى السهب ! ولكنها تذكرت أن ذلك ممنوع على مايا الصغيرة ، فأحست الاضطراب والحزن يسيطران على قلبها . لربما كان من الأفضل ألا تتحدث عن الراعي في المنزل ! ... ولكنها لم تكن تعرف أن تسكت عما يحدث لها ... هـذه أمها تدنو منها . إن شعرها العجوز الأشيب قد سرَّحته الريح ، والفراشات المحلقة على صورة تاج حول رأسها تسهر على ألا تقع ذرة واحدة من الغبار على محياها الهرم الطيب ، الصائر الآن قلقاً صارماً .

قالت مايا بلهجة يشوبها التساؤل والعزم في وقت واحد :

– سأذهب إلى السهب ، يا أماه !

قالت الملكة الأم ، وهي تقترب منها :

– لن تذهبي ، يابنيتي . إذا ذهبت ، فسوف تضيعين نفسك .

وأوضحت لها طويلاً أنه من الأفضل للمرء أن يتجاهل ما يحمل له دقيقة من الفرح وسنوات من العذابات ، وأن النفس لا تكون حرة إلا عندما تكون خالية من كل حب ، وإن الانسان يحبُّ نفسه كثيراً كي يستطيع أن يحبّ طويلاً كائناً آخر ؛ وأوضحت لها أموراً أخرى كثيرة عاقلة ، ولعلها صحيحة ، لكنها ليست على أية حال بمثل لذة قبلات الراعي ولا يمكن أن تقارن بها على الاطلاق . أصغت مايا طويلاً بانتباه كثير ، حتى اللحظة التي دفدف فيهـا من السهب ذلك الهتاف الرنان : « إهو » ، وترددت أصداؤه في أرجاء الغابة ، ثم حلقت في إثره أنغام أغنية الراعي الجميلة المتناسقة :

يجب ألا يُضيّع الوقت
من يريد الحياة .
من يريد أن يتذوق الحياة ، وأفراحها ،
من يرغب في السعادة،
يجب ألا يضيّع الوقت .
تعالي ! تعالي ! إني أنتظرك بحميا مجنونة .
سريعاً تعالي ! فقلبي لك
سوف يدندن أغاني من الفرح .
أواه ! تعالي ، دون أن تضيعي دقيقة واحدة !

كانت مايا تسمع هذه الأغنية فيرددها قلبها . وكان صوت أمها يتردد مثل دوي الزنبور ، فيما أنغام الأغنية ترنّ مثل نداء النسر .

قالت مايا :

— كلا ، سأذهب !

وأخذت الغابة تهدر جواباً على صيحات الألم المنطلقة من صدر الملكة .

— يا ابنتي ! لا تذهبي !

— ولكنها قسوة ، يا أماه ! أنا أريد ذلك ، وأنت لا تريدينه ، فلم يجب إذن إن تُنفّذ إرادتك أنت ؟ ألا افهمي إذن أني أريد ذلك ، أنا ، إني أريده !

— يا ابنتي ! إني أعرف ما سينتج عن ذلك ! لا تذهبي !

— وأنا ، إني لا أعرف عن ذلك شيئاً ، وسوف أذهب !

فقالت الملكة :

— إذن فلن تكوني ابنتي بعد الآن .

ورددت الغابة صيحتها أكثر من مرة واحدة ..

إن الأمهات البائسات ينسين دائماً ـ وليس من يدري لماذا ـ الزمن الذي لم يكنّ فيه سوى فتيات ، الأمر الذي ينتج عنه صراخ كثير لا لزوم له ؛ ولكن ذلك لا يمنع أن يسلك كل شيء الطريق التي يجب يسلكها .

ذعرت مايا .. وعندما رأت أمها تبتعد عنها تضاعف خوفها أيضاً. غير أن هذه الأغنية دفدفت من السهب :

أواه ، تعالي ... فالحياة بالسعادة فقيرة جداً !
إنها قصيرة جداً !... فاسرعي إذن !
إشربي كأس الحياة حتى الثمالة
وعجّلي ، قبل أن تجتاحها البرودة !

تطلعت مايا حواليها . إن أغصان السنديان العقدة ، وأغصان السندر البيض المرنة تتعانق بعنف كثير بحيث أن الشمس لم تنفذ أبداً إلى الغابة بمثل هذا الاملاق من خلال شبكتها المشدودة . وكان الهواء رطباً خانقاً ، والمرء يشم رائحة الورد وخضرة نوار الرطبة أقل مما يشم رائحة الأوراق المتعفنة ورائحة أخرى لا تقل عنها ثقلاً ... بينا هنـــاك ، في السهب ، إنه الفراغ الطليق ، والنور ! وكانت أغنية تأتي من هناك :

أواه ! تعالي ! إذا كنت تريدين الحياة
فلتكن لك الجرأة إذن .
أسرعي ! دون رحمة ودون خوف ،
ولا تسمعي سوى صوت قلبك
ولا تحجري عليه !

وخيّل إلى مايا أن الغابة قد شبكت أغصانها أكثر من ذي قبل ، فهي تريد أن تمنعها من الذهاب ، وأن ذرى الأشجار تهمس ، وهي تنحني نحوها :

لا تذهبي من هنا ؛ فهناك ينتظرك الحزن ، وينتظرك شيء آخر أيضاً » . وراودها الشعور بأن هـذه الأشجار ستتّم في الحال لتسد عليها الطريق ؛ ولكنها كانت تريد الذهاب رغم كل شيء ، وقد عزمت على ذلك ، فانبثق من أعمق قلبها هذا النشيد المجبول من التحدي والرغبة :

إن صدى هذه الأناشيد الساحرة
يسيل فرحاً عذباً في صدري ..
إيه ، أيتها الغابة : لمَ انتابك الاصفرار ؟
إني خائفة ! ما أعذبها على قلبي
أصداء هذه الأناشيد الساحرة !
إيه ، أيتها الغابة ! ثمة قليل من الشمس تحت القبب ،
حتى ليستحيل الغناء بكل حرية .
إني أضجر ! وإني لمتعبة من الحياة ههنا .
فشبكة أغصانك قاتمة حزينة ،
والشمس لا تنفذ منها إلا بصعوبة ، بصعوبة كثيرة .
إني أريد الحرية ، أريد السهب !
وإن ظلك ليثقل على قلبي !
لقد اكتفيت من هذه الأسوار الخضر !
دعيني أذهب ، إن كنت لا تريدين ضياعي .
إني أريد الحرية ، والشمس والسهب .

صاحت أخواتها :

— مابيا !

وانتصبن ، هن الثلاث ، إلى جانب بعضهن بعضاً ، يعترضن سبيلها .

وصاحت الملكة الأم بمرارة ، وهي تمدّ ذراعيها نحوها :

– يا ابنتي ، فأنت تريدين أن تحطمي قلبي !

توقفت مابيا . إن إحساساً من البرودة والهلع لم تجربه قط يتملك مشاعرها.

بيد أن الأغنية كانت تدفق من السهب :

تعالي ، يا حبي ، فقلبي متعب

من هذا الانتظار الطويل !

وحصة السعادة التي تحفظها لنا الحياة

سأعطيك إياها بكاملها .

لم تنظر مابيا إلى أمها ، ولم تنظر إلى أخواتها بل انطلقت إلى الأمام ، تدفعهن عنها ، واختفت .. وعندما رجعن إلى صوابهن ، لم تكُ مابيا هناك .. كانت الغابة تزمجر بصورة صمّاء ، فيما الملكة العجوز مطروحة عند قدم السنديانة العظيمة ، يتوجها شعرها المفضض ، وقد تصالب ذراعاها وفارقتها الحياة ..

صاحت مابيا ، وهي تسرع صوب الراعي :

– هذي أنا ! هذي أنا ، فأناشيدك قد انتزعتني من الغابة وانتزعت من قلبي كل ما كان ينطوي عليه حتى الساعة التي سمعتها فيها .. انتزعته وزرعت فيه عميقاً شيئاً جديداً قوياً . وهذي أنا قد هجرت الغابة ، وأمي ، وكل شيء . . . وجئت إليك !

– حسناً ، فذاك رائع ! أنت الآن حرة ؛ أنظري : هذا هو السهب ، لا حدود له ، وهو كله ملك لك . وأنا أيضاً ملك لك إن شئتِ ذلك ، وأنتِ ملك لي ! أو أن ليس هناك أنت أو أنا ، بل نحن فقط ، وأنت أنا ! أنظري ما في ذلك من روعة . في السهب فقط يشعر الانسان بالسعادة ، لأنه فيه حرٌّ طليق . ولسوف نحيا كالعصافير ؛ سوف أنشد لك أغنياتي ، وسوف تنشدين لي أغنياتك ؛

ولسوف نكون ، كلانا ، أسعد مما كان أي إنسان على وجه الأرض ! إنسي ما بقي هناك في الوراء ، وكوني حبيبتي !

فتنهدت مابيا ، وقالت :

— أجل ، سوف أكون حبيبتك ! أنت تغني بصورة رائعة ! وما في الغابة قد نسيته منذ الآن ! لستُ أندم على الغابة ... ولا على أمي . . . ولا على أخواتي . . . ولكن سريري الصغير المصنوع من السوسن قد بقي هناك ... وإني لأندم عليه ! كل شيء كثير القساوة هنا ! على مَ سوف أنام ؟

— أواه ! يا لها فكرة غريبة ! ولكنك سوف تنامين بين ذراعي ، وتضعين رأسك الصغير على صدري . هل ستكونين هكذا على كثير من الضيق ؟ إليك . وأنا سوف أغني بعذوبة ، بعذوبة كلية ، وأهدهدك بأغانيَّ . إني أعرف كثيراً من الأغاني ...

أخذها بين ذراعيه ، فأسندت رأسها إلى صدره البرونزي المتين ... وطفق يغني ، والشمس تنظر إليهما من علياء السماوات البراقة الزرقة . لم يكُ يسبح فيها أدنى سحابة وبرية ، فهي طاهرة مثل روح الجنية الصغيرة ، والقبّرات وحدها ، هذه التي لا تستطيع العين بلوغاً إليها ، كانت تمزج أغانيها بشعاعات الشمس ، فيما موسيقى رائعة تسبح فوق السهب ، في سهل السموات العديم الحدود ...

جلس الراعي في ظل شجرة سندر منعزلة قد ابتعدت عن الغابة ، بسبب من حبها للحرية ، كي تنبت في ملء السهب ؛ كانت تنتصب بكبرياء وجرأة وتؤرجح بلطف أغصانها تحت ملاطفة الريح التي تهبّ من البحر . أما هو فكان يلعب ، وعيناه في عيني مابيا ، بالكمّة المصنوعة من أجنحة الفراشات الملقاة على كتفيها ، ويغني بحنان :

أيتها الزهيرة الجميلة : دعي وشاح المخمل الذي يدفئك

ينزلق عن كتفيك
فالازورد في السماء كثير النقاء ،
والظل ههنا كثير الندى ،
وما أطيب أن يتمدد المرء فيه ،
هذا النهار الجميل من الصيف !

كان صوته يرنّ مثل جريسات صغيرة من الفضة :

النسيم عذب عطر ،
يحمل من كل حدب وصوب
تنهدات ، وهمساً ، وزقزقات ..
ما ألذّ أن ينام المرء !
فالنوم سوف يكون عذباً طاهراً
في روعة مثل هذا النهار الجميل ..

استغرقت مايا في النوم على أصداء هـذا النشيد ؛ استغرقت في نوم عذب ، ومن خلال ضباب النوم كانت ترى الأشعة تسيل من عيني الراعي باستقامة في قلبها . كان يحرقها بالقبل ، فتردها له دون حساب .. ألا ما أعذب ذلك ! ومن ثم طارت ، عصفوراً سريع الجناحين ، فلاقتها السماء بابتسامة لاهبة محرقة ...

وعندما استيقظت ، كان الليل يرين على السهب . ألا ما أعظم جمالكما وقوتكما إذن ، أيتها الحرية وأيها الحب ! وأنشدت مايا أغنية عندليب قديمة تجد الحب ، مدخلة إليها مديحاً للحرية من وحيها الخاص . ولكن من يستطيع أن يمزج الخمرة بالنار ، أو يستعيض عن النار بالخمرة ؟ ... لقد كانت نتيجة ذلك المزيج أغنية رديئة ، فمديح الحرية كان يرنّ فيها جريئاً قوياً ؛ ولكن هذه الأنغام الجريئة القوية كانت تتفجر في ملء اللحن العذب الحنون المرفوع إلى الحب . غير أن

الراعي قبّلها فردتله قبلته ، ولم يلاحظ أي شخص كان ، أللهم سوى العصافير ، أن نشيد الحرية لا يتفق مع نشيد الحب .

هكذا عاشا إذن . كانا يغنيان ويتعانقان منذ مطلع النهار ، وكانا يتعانقان ويغنيان عندما يلفّ الليلُ السهب بجلبابه . كانا يذهبان عبر السهب ويأتيان ، حرين فرحين كالعصافير .. هكذا كانا يعيشان .. وفي بعض الأحيان ، عندما تنطفىء الشمس مساءً ، فيتلفلف السهب بوشاح رقيق من العتمة ، كان هذا الوشاح يغطي قلب مايا أيضاً ، ملقياً بضباب لا يكاد يبين على بريق عينيها المتأجج. وفي مثل هذه الحال كان الراعي يضاعف كثرة قبلاته لها وقوتها ؛ وبينا هو يقبّلها كان القمر يطلُ خلف الغابة ويُغرق السهب كله بفضته المزرقّة ، فاذا الظلمة تذوب في قلب الجنية الصغيرة كما تذوب في السهب الشاسع . . لقد كانا يعيشان سعيدين ...

ولكن العاصفة تجمعت ذات يوم هناك في الشأو المغرّب تجمعت بصورة غير محسوسة ، أشبه ما تكون باديء ذي بدء بسحابةٍ صغيرة صغيرة زرقاء مسودّة . وهذه هي تجتاز بسرعة خاطفة السهب كله ، المغمور بنور الشمس اللاهب، فترتمي على التربة أثناء مسيرها ظلال تبدو للسهب أشبه بابتسامات مظلمة مذنبة : فكأن السحابة الصغيرة تريد أن تقول إنها لم تطلب ، هي ، أن تخفي الشمس وتخيف العصافير الصغيرة ؛ بل الريح هي التي أمرت بذلك . . . مرّت بسرعة ، تزحف خلفها سحب أخرى أكبر أو أصغر .. كانت هذه السحب تتجرجر وتنظر باكتئاب إلى السهب ومايا ، الجالسة هناك مع راعيها ؛ ثم تجمعت قطعان مظلمة زرق غامقة ، وغطت السماء بأسرها ..

وانطلقت الريح ، في زوبعة غريبة ، فوق السهب في اتجاه البحر ؛ كانت تخبّ وتزمجر بصرخة رهيبة متوحشة ، طاردة أمامها إعصاراً من الأوراق

الجافة ؛ وكانت الأعشاب تنحني بخوف نحو التربة . وارتمت مايا، مخلوعة الفؤاد ، على صدر الراعي الذي صاح بصوت قوي : « أو ـ هي » ، وسألها وهو يقبّلها بعنف كثير على خديها :

ـ ممَّ تخافين ؟ هذه ليست سوى عاصفة تتجمع ، وسوف ترين كم سيكون ذلك مفرحاً ! ليس في العالم ما هو أقوى من العاصفة وأجمل . آهٍ ! عندما تمرّ على السهب ، فكم من سهم ذهبي سوف ترمي على الأرض ، وكم من أغنية متوحشة سوف تزمجر بها في وجهها ! هل تعرفين لم هنالك عواصف ؟ آهٍ ! أنت لا تعرفين شيئاً عن ذلك ! إنها السماء التي تنظر إلى الأرض ، وتنقم عليها أخيراً ، لأنها تنساها .. إن السماء ترثي للأرض ، ولعلها تضمر لها بعض الحب أيضاً ... ولكنها إذا غضبت ، فانها تجمع سائر السحب التي تجدها ، وتسلّحها بالبروق ، وتبعثها في رعد جبار على الأرض ، فكأنها تريد أن تقول : ألا فاحذري ، إن شئت ، فان الأرض بأسرها سوف تتطاير إرباً إرباً ! هذه هي العاصفة ! هل فهمتِ الآن ؟

فتنهدت مايا :

ـ إني لأخاف الآن ! فلنذهب إلى هناك !

واستدارت نحو الجهة ، حيث تقع الغابة ..

ـ أن نهرب من العاصفة ! هذا ما وجدتِ ! إن كنت لا تريدينها ، فاذهي لملاقاتها إذن ، وبذلك تتجاوزك بصورة أسرع ؛ أما أن تفلتي منها ، فليس ثمة سبيل على أية حال إلى الافلات منها ! لا حاجة بك إلى الذعر ! العاصفة !! أو ـ هي ! ما هذا ! كوني ثابتة ، وهذا كل شيء .

لكن كل ما كان يستطيع أن يقول ما كان ليهدىء من روعها شيئاً . كانت ترتعش بهلع ، وتلتصق به أكثر فأكثر ، ولا تريد أن تلتي بأبصارها هناك ، في الأفق الذي أصبح الآن باهت السواد .

وهذه قطرات كبيرة باردة تشرع في التهطال ؛ وحيثما تقع قطرة ترتفع سحابة صغيرة من الغبار . ثم لمسرع من بعيد زمجرة صماء ، بينما انبثق هنـاك في المنتأى لهيب أزرق . وفجاءة ، انتفضت السحب في السماء ، ثم تمزقت قطعاً قطعاً وهي ترسل رعداً رهيباً ؛ وبرق بتمزقها سهم الصاعقة المتألق منيراً الدياجير ، وغار نحو التربة ، منطفئاً قبل أن يبلغ إليها .

واجتاز السهب همس من التمرد والثورة ؛ كان يتقدم بأمواج عريضة قاتمة، فتردد الغابة صداه . وانهمر الغيث مدراراً ...

كانت سهام البروق تمزق السحب ، ولكن هذه السحب تعود فتتلاحم وتتقدم فوق السهب في قطعان قاتمة تحمل الهلع والرعب . ومن حين لآخر كان شيء مستدير كالشمس يهوي على الأرض نوراً أزرق يعمي الأبصار ... يرافقه رعد رهيب ؛ وكانت الغيوم تلمع متوعدة ، وتتخـذ مظهر جيش من الأشباح السود المخوفة ، ترتدي بالمخمل والذهب ، وتشرّع سيوفاً مصهورة من الذهب ما برحت حمرا من لهيب الأتون . كانت الأشباح ترعد وتدوّم ، متوعدة السهب الذي أخرسه الرعب ، بينما لعناتها وتهديداتها تطير بعيداً أشبه ما تكون بموجة هائلة لا نهاية لهـا تتسع حتى تبلغ أبعاد البحر ، وتقصف فكأن جبالاً تتفجر بصورة مباغتة وتعود فتساقط بصخب وضجيج على الأرض ؛ فتسحقها وتطير بها في الفراغ اللامتناهي، مثل حجر يدك حجراً آخر ويرسله في الفضاء شظايا متناثرة ؛ وكانت تقصف فكأن السماء قد تفجرت قطعاً صغيرة ، وانسحقت على الأرض من الأعالي اللازوردية ... تلك كانت الأصوات الصادرة عن السحب !

إن القلب ليتملكه الهلع في هذه اللحظات القصيرة من الانتظار ، التي تقسم إلى رعود ما يصدر عن العاصفة من زمجرة غير مميزة ؛ إن الرعود تقصف فتتمزق الغيوم مطلقة على الأرض سهم البروق الذهبية . ويتدحرج الرعد ، فتتأرث السحب

فلهيبها أزرق مرعب ، وترتعش صحراء السموات ، فيما الزلازل تهزّ الأرض المذعورة هزاً . ليس في العالم حادث أقوى وأهول من العاصفة في السهب الفسيح، ومن ثوران الاعصار فوق البحر .

كان السهب يلوذ بالصمت خائفاً بصورة غريبة ، والقصف المتوحش يتدحرج فوقه دون انقطاع ؛ وعندما كانت السحب تزداد سواداً ، كانت خيوط الغيث الدقيقة تتألق في نيرانها كالفولاذ . كان الغيث ينهمر دون هوادة ، فيصوّر للمرء حين يصغي إلى صوته الرتيب أنه يسمع بكاء إنسان ملتاع بائس .

كان الراعي يقف في السهب ، ثابتاً كالصخرة الصمّاء ، معرضاً صدره للمطر ودفقات الريح ، والبروق التي تخطط السماء توحي بأنها لا تجرؤ أن تمسه ، فكأنها تخشى إذا هي اصطدمت بصدره البرونزي أن تتفتت إلى غيث من النيران . وكان هو ينظر إلى السحب مبتسماً ، معجباً بجمالها القاتم وقوتهـــا ، يبرق في عينيه السوداوين نارٌ من الغيرة ، نارٌ لا تقل لهيباً عن البروق نفسها . لقد نسي مايبا ، التي أطبقت على ساقيه بذراعيها الصغيرتين الناحلتين وهي متمددة على الأرض ، وراحت تضغط عليهما برأسها الصغير ، ونسي نفسه ، ونسي السهب . . . كان يودّ أن يطير هو نفسه بين السحب ، وأن يغني معها أكثر أغانيه رنيناً ...

لم تكن العاصفة تزمجر الآن بتلك القسوة التي كانت عليها قبل فترة وجيزة . كانت تتوقف دقيقة ، ثم دقيقتين ، ثم ثلاث دقائق ؛ وكانت تزمجر بصورة وحشية وكأنها تتفحص الرجل المقدام الواقف وحيداً في وجهها : مما لا ريب فيه أنهـا لا تفهم جيـــداً لمَ يثبت هناك ، وما ينتظر في السهب المقفر ، تحت سيول المطر الغزير ... وعندما كانت تلوذ بالصمت لحظة ، فقـد كانت تهزّ السحب من جديد وتلعب مع البروق ، وهي تصبّها بغزارة على الأرض ، فيما خيوط الغيث الدقيقة تسّاقط منها دون انقطاع ، ودون انقطاع تلتهب في نار البروق : كانت تلوح مثل

شبكة من خيوط فولاذية دقيقة تلقي العاصفة بهـــا على الأرض كي توقعها فيها : وعندئذ سوف تحمل العاصفة هذه الأرض إلى البلد الذي تقطن مع الليل ، حيث الظلمة ترين على الدوام ، وحيث جرّت من قبل كرات أخرى عديدة كالأرض تلعب بها عندما تضجر ولا تستطيع سبيلاً إلى الخروج .

كان البرد قارساً في السهب ، والظلمة شديدة متكاثفة الأمواج . وعنـدما كانت البروق تحلق فوقه ، فقد كنت تقول إن زفرة ثقيلة من الاعياء قـد رفعت صدره المريض الجامد بتأثير الرعب والخشية . وعنـدما كانت البروق تصفعه ، فقد كان يتهادى مزمجراً تسحقه الدياجير تحت عبرات الغيث الرتيبة .

كان الراعي ينشد واقفاً على قدميه ؛ وكانت تلك الحميَّا غير الهيابة التي تجعله قادراً على تقديم صدره ، وحيداً ، للعاصفة دون أن يرهب شيئاً تلتهب دون انقطاع في قلبه . ما كان يكفّ عن الغناء ، ولكن عندما تفجرت سائر السحب ، دفعة واحدة بصورة مباغتة ، في نار زرقاء تعمي الأبصار ، خفض عينيه رغماً عنه نحو الأرض فشاهد عند قدميه مايا التي نسيها . كانت تضطجع منداة الأعضاء جميعاً على الأرض المبتلة ، ومحياها الصغير المسكين مزرق ميت ، وعيناها مغلقتان ، وشفتاها الورديتان مطبقتان شاحبتان .

صاح مدهوشاً :

— لقد ماتت ! ماذا جرى ؟

انحنى ، وأخذها بين ذراعيه ، وشدَّها إلى صدره . لشدّ ما كانت تثير الشفقة! إن دمعتين قـد جمدتا في زاويتي عينيها . ولقـد ارتمى رأسها إلى الوراء ، صغيراً ضعيفاً ، فيما تدلى ذراعاها ، بائستين عاجزتين .

سألها بصوت خفيض :

— هل بارحتِ الحياة ، يا مايا ؟

وأحسّ قلبه يتمزق بفعل ألم جارح لا يطاق . أبداً لم يستشعر من قبل مثل هذا الألم ، حتى يوم وقع على الأرض فانكسرت ذراعه . وهذا الألم قد كان الرثاء .

أطلق زمجرة هائلة أشبه بالنشيج ، وأطلق الرعد فوق رأسه تماماً ، جواباً عليها ، ضحكة متوحشة ساخرة .

ارتعش الراعي وأحنى ظهره ؛ تطلع حواليه يفتش عن مكان يلجأ إليه بمايبا الصغيرة ؛ وانتابه الأسف المرة الأولى لأنه لا يملك كوخاً . وانقلب رثاؤه ذعراً : كان يرتجف من أجلها . عندئذ رفع مايبا بذراعيه فوق رأسه وعذاب عظيم يقطع قلبه حتى قد تراءى له أن دماً لاهباً ينبثق من شقوق قلبه إلى صدره . وصاح بكل قواه ، متعذباً ، مذعوراً :

— الرحمة !

كان الرعد يضحك ، والسحب تمرّ ، والغيث لا ينى يهطل ويبكي ، والسهب يرتعش ، والغابة هناك ، في البعيد البعيد ، تطلق نشيجاً أصمّ بائساً ... ولكن الدياجير كان تشحب شيئاً فشيئاً ، في تلك الناحية حيث تأتي الغيوم ، ومن حين لآخر تبرق فيها ابتسامة السماء الزرقاء الملاطفة .

كان الراعي ينتصب بكل قامته ، ممسكاً بالجنية الصغيرة عالياً جداً فوق رأسه ، وهو نفسه ينظر باكتئاب نحو الأعالي حيث تعدو السحب غير المبالية بالراعي أو بمايبا . لقد أتت هذه السحب لأنها قد أتت ؛ ولقد ذهبت لأن أوان الذهاب قد آذن . ولقد كانت قتلته لو أنها قتلته ، ولكن هذا لم يحدث : لم تكن لتأبه ، بكل بساطة ، بالراعي او بمايبا أو تلتفت إليها . لعلها ترغب في شيء ما ، لكنه ليس شيئاً صغيراً مثل الراعي وجنيته بكل تأكيد ! إنها تحلق فوق الأرض ، وتتسلى على هواها ومرامها .

وهذه الشمس تلمع بغتة في الأفق البعيد في زاوية من السماء خالية من الغيوم؛ وهذا شريط عريض خالص الزرقة يمتد منذ الآن هناك .

والراعي ما برح ينتصب ممسكاً بمايبا مرفوعة نحو السماء ، يتساءل بعذاب أليم إن كانت الشمس ستبرق عما قريب فوق رأسه ؛ لم يكن يفكر حتى في إمكانية الذهاب للقائها .

إذن فقد برقت الشمس ، والماس واللازورد يتضوءان في شعاعاتها على جذوع السنابل التي قصفها الغيث ، ولقد أصابت هـذه الشعاعات محيا مايبا وصدرها أيضاً ... وفي أثناء ذلك ، كان الرعد يقصف بعد في الجهة التي فرت السحب إليها.

عندئذ صعّدت الجنية زفرة حرّى وتأوهت بصوت خفيض :

ــ أواه ! يا أماه ! يا أماه !

شدّها الراعي بقوة عظيمة إلى صدره ، وأحسّ الفرح يتملّك كينونته بأسرها :

ــ فأنت حية إذن ! أواه ! ما أعظم سعادتي ! وأنا الذي كنت أحسب أن الرعد قد قتلك !

قالت مايبا بصوت خافت جداً :

ــ أريد أن أذهب إلى الغابة ! إني لأخاف ههنا !

فصاح الراعي :

ــ ولكن ، فلنرَ ! إنها ذهبتْ ، العاصفة !

ــ لسوف تعود ! خذني إلى الغابة !

ــ كيف أستطيع حملك إلى هناك ؟ لن أذهب ! ماذا في الغابة ؟ أشجار... وهذا كل شيء !

فأصرّت الجنية :

— بلى ، خذني إلى هناك سريعاً !

فاستوضح الراعي ، مستغرقاً في التفكير :

- وأنا سأبقى هنا وحيداً ؟

كان ثمة شيء على غير ما يرام ... أهو البقاء وحيداً ؟ لقد كان وحيداً على الدوام ، وإن الغابة لكثيرة القرب شديدة الألفة ، فلمَ لا تحدوه الرغبة في الذهاب بها إلى الغابة ؟ ذلك أنه كان راغباً عن ذلك تماماً !

قال :

— أتعلمين ، ليؤتى لي أني إذا حملتك إلى هناك ، فذلك كأني أقطع نفسي إلى نصفين يذهب كل نصف منها في اتجاهه الخاص : أجل ، النصف الواحد في السهب والنصف الآخر في الغابة . ليفضل ألا أفعل ذلك . ماذا تقولين ؟

— ولكني أخاف هنا ! لأريد العودة إلى الغابة ! أنا الأخرى سأضجر من دونك ... أتحسب أن لا ؟ أواه ! بلى ، سوف أضجر كثيراً ... سوى أني أريد الذهاب إلى الغابة ! إني أخاف هنا ! يا لها من عاصفة !...

— وكيف نفعل إذن ؟ أنت لن تكوني سعيدة بدوني ، ولا أنا بدونك ... إبقي معي إذن ! ماذا يهمك من العاصفة ؟ عندما تأتي سأغني ، ولسوف أغني ما دامت على السهب ، وهذا كل شيء !

— آه ! هل تستطيع أن تتفق مع العاصفة ؟ لسوف تختطفك وأنا معك ، وهي تستطيع أن ترمي بنا بعيداً جداً بحيث نطير حتى البحر !

فقال الراعي ، حالماً :

— حتى البحر ليست بالمسافة البعيدة ! ولكن كيف أحملك إلى الغابة عندما لا تحدوني إلى ذلك أية رغبة ! ... إيه ؟ ... ثم . . هنا ، قد وهبتك السعادة ، ووهبتنيها ، بينا في الغابة ... أخبريني إذن ما عساك قد رأيت فيها ؟

عندئذ استغرقت مايبا في التفكير ، وبعد لحظات قصيرة من الصمت قالت بكآبة :

– أنت على حق ، فالسعادة هنا ! ولكن ... إن ذلك لقليل جداً ! هـذا ما كنت أريد أن أقول لك عندئذ ، في المرة الأولى . لا ريب أن السعادة ليست إلا في الانتظار ؛ هذه حقيقة سعادتك !...

أحسا الكآبة بعد ذلك . أما السماء ، فوق رأسيهما ، فكانت تفترّ ، وقد بعثت العاصفة فيها النشاط ، عن ابتسامة عذبة ملاطفة . تأملها الراعي ، ثم ألقى عينيه فيما حوله ، فلم يجد في أي مكان جواباً على أفكاره .

– هيا ، فليكن ؛ سوف أحملك حتى حفاف الغابة .

حملها في سكون ؛ ما كان ينظر إلى عينيها مثله قبلاً ، بل إلى الأرض القاتمة المبتلة بالمطر ؛ وكانت مايبا تلوذ بالصمت ، هي الأخرى ، بين ذراعيه . كان ثمة شيء جديد فيهما لا يفهمانه جيداً ، وإن كان يمنعهما من تبادل القبلات بذلك الفرح الذي كانا يتبادلانها به من قبل .

سألها ، وهو يضعها على الأرض عند حدود الغابة ، تحت الأغصان المزروعة بقطرات المطر الشبيهة بحجار ثمينة تتألق في الشمس وترتاح في سكينةٍ من العاصفة :

– وداعاً ! ... متى تأتين للقائي من جديد ؟

فأجابت مايبا :

– متى أعود ؟ لا أدري ... عندما تحدوني الرغبة إلى ذلك ، وليس قبل ذلك البتة !

– إذن ، فهبيني قبلة الوداع .

عانقته بشدة ، بشدة عظيمة ، ووهبته قبلة ، قبلة مريرة من الشك ، ثم دخلت إلى الغابة دون أن تلقي عليه نظرة واحدة . كانت قطرات كبيرة باردة تساقط عليها من الأغصان المنفعلة بعد فتجمدها . وكانت الغابة تعتصم بصمت كئيب مركز . وكانت الدرب قد أصبحت أشد كثافة ، لكنها أقل جمالاً منها قبلاً ، والأزاهير لم تكن على بهائها السابق ، وكانت إلى ذلك ضئيلة العدد ... لقد كان كل شيء غريباً ، مختلفاً ، فكأن لمايا الآن عينين جديدتين .

أما في السهب ، ألا ما أعظم الاتساع ، وما أكثر النور ! مما لا ريب فيه أنه قاعد تحت أغصان شجرة حور يفكر ، ونظره غارق في المنتأى ، ورأسه مستند إلى يديه . ما أكثر ما يجلس هكذا ويفكر . وكثيراً ما كانت تتأمله ، عندماتنام بين ذراعيه فيكفُّ عن هدهدتها بأغانيــــه ، تتأمله من خلال رقادها الناقص ، فتسرُّ بغمس أنظارها في عينيه اللاهبتين ، وإن بدا لها أن قلبه بعيــد عنها ! ... كانت تسير . وكانت أغصان الأشجار تمس بحذرٍ كتفيها وذراعيها فكأنها تريد أن تهمس بشيء ما في أذنها ؛ ولكنها ما كانت تحسُّ شيئاً ، سوى أن الحزن يفعم قلبها ...

وهذه زنبقة تنتصب في عرض طريقها ، رائعة مهيبة ، مثقلةبالغيث ، وكأسها المخملية الثرية المفضضة تتأرجح – من يقول لماذا – بحزنٍ كثير ... إنها ناصعة البياض ، كثيرة الطهر ، عظيمة الحيوية ! وإنها لتبدو عظيمة الاعتزاز بذلك !

وضعت مايا قدمها عليها ، فانقصف جذعها بصورة بائسة ... وهذه هي ، تلك الزنبقة الفائقة الطهر ، مرمية في الطين مرضوضة محطمة !

نظرت مايا إليها ، وانتابها الخجل والرثاء .

— لقـــــد فعلت الآن ما فعل ذلك القضاء الرهيب الذي روى لي قصته في السهب ! ولكن هذا قصر أمي !

لقد كان القصر على مثل جماله السابق ، لكن ثمة شيئاً حزيناً يطغى عليه .

صاحت مايبا ، وهي تبكي :

ـــ أماه !

وعلقت أبصارها بثبات في درجات البوابة . كانت هذه البوابة ، كالعهد بها سابقاً ، مغطاة كلها بمخمل خضرة اللبلاب القائمة حيث تتألق ببريق شديد زهور الياسمين البيض العاطرة ، وزهور الأكاسيا الصفر التي يفوح منها عطر كثيف يجتاح النوافذ المفتوحة . وكانت أخوات مايبا ينظرن إليها من إحدى هـــذه النوافذ ، خلف الورد ، والقسوة والحزن مرتسمان على وجوههن ، وإن ما برحت هذه الوجوه تشبه الورد الأبيض المتفتح .

سألت مايبا من خلال عبراتها ،دون أن ترتقي درجات السلم:

ـ أماه ؟

فرددت الغابة وراءها بكآبة : « أماه ؟ » ، أما أخواتها فهززن رؤوسهن بحزن وصرامة ، وكذلك هزت الأشجار ذراها ، فيما انثالت عبرات كبيرة تساقط من أغصانها .

قالت الأخت الكبرى :

ـ لقد قتلتها .

وأضافت الأختان الأخريتان :

ـ أنت لم تعودي لنا أختاً .

نظرت مايبا إليهن متجلدة القلب ... إذن فقد ماتت أمها ؟ ... ماتت ؟ ...

أحنت الجنية الصغيرة رأسها على صدرها ، يهدهد إليها أن أفعى صغيرة قـد عضت القلب منها ... ولكن فلنرَ ، لقد كانت أمي متقدمة كثيراً في السن منـذ ذلك الحين ؛ هل ماتت لأنني لم أصغِ إليها ، أم لأن أوان الموت قـد حان بالنسبة

إليها ؟ إن أخواتي لا يستطعن أن يعرفن عن ذلك شيئاً ! » لمَ هن يحدثنها إذن بمثل هذه الصرامة ، ثم هؤلاء هن الآن يسخرن منها ، هناك عالياً ، بين الأزهار ؟ هل قد شعرن بالراحة بعد أن قلن لها كل شيء ؟ وأي شر قـــد صنعته بحقهنّ ؟ لا شيء ! إذن فليبقين مع بعضهن بعضاً ! إنها لا ترثي لهنّ ما دمن قد جرحنها ، وإن الغابة لا تروقها !

ذهبت مايا خلال الغابة حتى شجرة الزان المفضلة عندها ، وتسلقت بـين أوراقها المتـكاثفة العطرة المغسولة بالغيث . نظرت إلى السماء ! إن النجوم لتشتعل فيها منذ الآن ، صغيرة خابية الشعلة بعد ، تغمز بعيونها بكآبة فائقة ! لقد كانت السماء حزينة ، فيما يلوح لهـــا أن الغابة تحتفظ بصمت يضمّ كثيراً من اللوم ، والصرامة ، والغضب . لقد كانت وحيدة ، فانخرطت تبكي .

كانت الدموع تتدحرج من عينيها على ورقة زان ، ثم على ورقة ثانية ، فثالثة ، ثم على الأرض ؛ وعندما هبّت من نومها في بكور الغداة ، كانت زهور ثالوث صغيرة تبـــدو تحت الشجرة ، بين عروق العشب ، فيما أغنية تنتشر من السهب على الغابة :

وآهٍ ! لمَ أنت بعيدة ؟

الشمس تبرق منذ زمن طويل ،

وحرارتها باردة هذا النهار ،

والقلب في صدري ينام .

ثمة شيء يخنق نشيدي

إهو ! ما أشد تعاسة المرء الذي ينتظر !

آهٍ ! لا أريد أن أعرف

كيف أطير في السموات الخالية من السحب .

كنت أغدو إذن إلى الرعد أسرقه

سهامه الملتهبة ،

وكنت إذن أصهر منها تاجاً

لتلك التي كنت بالأمس أقبّلها .

– هذا هو قد شرع يغني ! ما أعظم كآبة صوته اليوم ! لسوف أردّ عليه

فكرت برهة ، ثم شرعت تغني :

الغابة المكتئبة تلتفّ

بالسكون والظلمة ،

وأوراق الأشجار وحدها

توشوش بحنان .

الشعاع يتيقّظ ويلألىء

والساقية تتبعثر

في انعكاسات من الألوان .

ليقال إن جنياً ساحراً

قد فتح راحته الكريمة ،

وزرع حجارة كريمة ،

على مرآة النهر .

فردّ صوت فرح في السهب :

– إهو !

بخيوط نشيدك

سوف أزين بالشرط قلبي .

الشمس تبرق أشد صفاء

عندما تصغي إلى أغانينا .
وأغنيتي تمسك بارتعاشات
أغانيك اللطيفة .

السهب الفسيح يلوح في عينيّ ضيقاً !
هكذا أحبك .

فاسترسلت :

إني أتنشّق
عبير الورد العطر ،
وأسرع إليك
كي أقبلك ..

الورد يقول لي :
إذهبي ، واحملي إليه سريعاً
روائحنا العذبة .
أما أنا ، فإني أعدو إليك عدْواً .

ولم تمضِ دقيقتان حتى كانت عند حدود الغابة .

انطلق إلى لقياها ، فخيل إليها أن السماء قد اشتعلت بلهيب زهري براق حنون لدى قبلته . ألا ما أطيب ذلك !

وعادا يعيشان ! إن الحياة تعدو ، يوماً بعد يوم . وعندما اعتادا بعضهما بعضاً ، شرع الملل يتسرب إلى قلبيهما . كان الراعي يرغب بصورة دائمة في الذهاب إلى هذا المكان تارة ، وإلى ذلك المكان تارة أخرى ، فيما مايا تتوجع قدماها الصغيرتان بسبب هذه النزهات غير المنقطعة .

وفي ذات يوم جميل ، امتد فيما بينهما ظلٌّ دون أن ينتبها لذلك . إن كل إنسان يعرف كيف يحدث ذلك ، وكل حديث أطول عنه زائد لا معنى له .

كانا جالسين ذات يوم إلى جانب بعضهما بعضاً جانحين إلى الصمت . كان النهار متألقاً ، فتياً ، قوياً ! إنه يوم جريء من أيام السهب ، ذلك النهار ! كانا يحسان الحزن ينتابهما . تطلعت ماييا في عيني الراعي فرأت أن هاتين العينين قاتمتان ، وأن الحاجبين الأسودين فوقهما منعقدان بصرامة .

استوضحته بلطف :

— أولن تقول لي شيئاً إذن ؟

وأخذت تلعب بلطف بخصل شعره .

قال ، وهو يهزّ كتفيه :

— وما عساني أقول لك ؟ أستطيع أن أقول إني أحسّ نفسي منجذباً إلى هناك ، نحو ذلك الموضع المضب العذب ، هناك هناك ، في الشأو المغرّب حيث تُرى شعاعات الشمس ساقطة باستقامة على الأرض في شرط عريضة ... هذا ما أستطيع أن أقول لك ، ولكني أعلم أنك لن تذهبي بعيداً معي ، سوف توجعك قدماك الصغيرتان إذن ! وبدونك ، كيف لي الذهاب ؟

جنح إلى الصمت ، وكذلك جنحت إليه ماييا ، وقد أطرقت برأسها في كآبة ... فيما السهب يتكلم بألف صوت في وقت واحد .

— ولمن المؤكد أني أستطيع التفوه بكلمتين أو ثلاث كلمات أيضاً لولا خوفي من إزعاجك .

فنظرت إليه بحنان .

— عندما كنت لا أراك ، لم يكن في باطني حزن البتة . في ذلك الزمان كنت حراً ، وما كنت أرغب في أي شيء على الاطلاق ، وما كنت أرثي لأي إنسان

مطلقاً . ذلك كان لزمان الطيب ! كنت أحيا و كنت أغني ؛ كنت أركض في السهب من أقصاه إلى أقصاه ، فاذا جُنّ الليل نظرت إلى السماء متسائلاً من عساه يحتاج إلى كل هذا العدد من النجوم المشتعلة فيها ، أو ما عساه يوجد هناك عالياً ، فوق السماء . وكان ينتابني عندئذ كثير من الرغبات ... كنت أريد أن أعرف كل شيء وأن أصنع كل شيء . أما الآن ، منذ صرتِ معي ، فقد أصبح من المستحيل عليّ أن أعيش كما أهوى ، كما كنت أعيش من قبل ، لأن الذهاب وحدي يعني إيلامك ، وأنا أحبك ، وإني لأرثي لك . إنك لفائقة الجمال كثيرة الصبا ! وعندما يحب المرء شيئاً ما أو يرثي له أو يرغب فيه أو يخشاه ، فانه لا يكون حراً إذن ! هذا ما كنت أريد أن أقول لك ! وإني لأتعذب ، لأن كل ذلك حق وصحيح.

وجنح الراعي إلى الصمت ، لتسبح عيناه في المنتأى ، وهو يهزّ رأسه باكتئاب ...

تجلّد قلب مايا لدى سماع هذا الحديث ، وامتلأت عيناها بلطف بالدموع .

– تقول إن تلك هي الحقيقة ، وإني لأقولها لك أيضاً . عندما كنت أعيش في الغابة ، هل كنت سيئة الحال ؟ آهٍ ، كلا ! وإنك أنت نفسك ، إن كنت تذكر ، الذي اجتذبتني خارج الغابة بأغانيك ! ولقد بارحت الغابة لأني ظننت نفسي سأكون أفضل حالاً هنا معك . لقد بارحت الغابة ، وخسرت أمي ، وأخواتي ، وبيتي ، وكل شيء ! ... وبِمَ استبدلتها ؟ قل لي ! أليس بهذه الدقائق الصغيرة حيث تصير القبلات عظيمة اللهب حتى لتؤلم وتوجع ؟ إذا كان هـذا هو الثمن ، فانه غالٍ كثيراً ! ... وهذا الذي تعلمته منك ، كان يفضل ألا أعرفه ، لأن ذلك كله يحمل على التفكير ! ... لقد حدثتني عن القضاء وعن الموت . . . ولكن أي شيء حسن فيها ؟ لو أني ما كنت أعلم وجودها ، فقد كنت أكون أكثر مرحاً إذن ، لأن حياة المرء لا تصبح أفضل إذا كان يتقن التفكير ! ...

إليك ، لقد قلت لك أنا أيضاً بضع كلمات ، ولربما كنت أقول لك أشياء أخرى كثيرة لو كنت أستطيع انتزاع قلبي من صدري وحمله في يدي حتى عينيك ؛ كنت ترى إذن ما يكمن فيه ؛ أنت ذكي ، فأخبرني إذن لماذا آلت الأمور إلى هذا المصير ؟

كان يطرح على نفسه السؤال عينه . أجل ، لماذا ، في الحقيقة ؟ هل نال كلاهما بمقدار ما أعطيا ؟

أما السؤال الأول ، فلا الراعي ، أو السهب والسماء اللذان يتأملها بكآبة كثيرة ، قد أجابوا عليه .. أما السؤال الثاني ، فان مابيا نفسها قد سبق فأعطت الجواب عليه .

— أواه ! ما أجملها ، وأهدأها ، وأقواها ، هذين الشيئين : السهب الذي لا نهاية له ، والسماء التي لا قاع لها . يا عامتي ، ليس حكيم يستطيع أن يقول لماذا ؛ لأحسب أن ذلك الحكيم غير موجود . ولكننا إذا تمعنا في الأمور عن قرب أعظم ، فلربما وجدنا أن ثمة أشياء كثيرة أخرى لا توجد ! . . . أنحن مذنبان تجاه بعضنا بعضاً ؟ لا أظن ذلك ! . . . تمددي إذن على صدري ، فسوف أضمك وسوف أقبلك ...

نظرت مابيا إليه .. لقد كان من قبل جميلاً ، قوياً ، مقداماً ، نقي الجبين ، متأرث العينين المصنوعتين من النار ! إنه لجميل الآن أيضاً ، مهزول قليلاً ، مستغرق في التفكير . وإن نظرته قد أضحت كالسماء عمقاً . ضمته ، وأسندت رأسها إلى صدره وهي تقول :

— غنِّ لي إحدى أغانيك القديمة . لقد مضى زمن طويل دون أن تغني .

— إن باطني لا يغني ! الآن ، إني لا أستطيع أن أغني ؛ ليلوح أن سائر أغانيَّ قد أنشدت ! ... هل تعلمين ، تلك الأغاني لم تكن مني : لقد كانت جميعاً أغاني

الآخرين ؛ إن إنساناً آخر قد ألفها ، والناس جميعاً ينشدونها . ولقد كنت أسمعها ، فاذا أنا أغنيها بدوري . . . ربما لم تكن سوى أغانٍ بسيطة . وربما كان فيها شيء خطر على القلب .

كان يتكلم وهو يهزّ رأسه بكآبة . أما هي فكانت تبكي ، إذ ما الذي تبقى لها الآن ؟ ...

وعاشا هكذا . عاشا هكذا وهما يصبحان ، إذ ينظران إلى بعضهما بعضاً ، عديمي النفع أكثر فأكثر . كانا يتضايقان أكثر فأكثر ، وأكثر فأكثر يفهمان ويريان ... وكان الراعي يرغب أكثر فأكثر في الذهاب إلى مكان ما ، بعيداً ، بعيداً جداً ، حيث ليس ثمة شيء لا يعرفه ، أو يستطيع أن يتصوره ، فيما مابيا تذبل وتشحب يوماً بعد يوم ، ولا تفعل سوى التفكير : « لماذا ؟ لماذا؟»

وكان الخريف يقترب ، فالعواصف تجتاز السهب أكثر فأكثر ، وأكثر فأكثر تعبس سماء متزايدة السوادِ ؛ وكانت النهارات تقصر أكثر فأكثر ، فيما ظلال الليل تكثر وتزيد ... وكانت مابيا ترى أحياناً بين هذه الظلال رأس أمها الأشيب ، أمها التي تهزّ رأسها بألم ، والتي يلمع عذاب هائل في عينيها العجوزين. وكانت الغابة تكتسي بالذهب تحت الشمس ، مرتدية حلتها القرمزية الخريفية .

كان الراعي جالساً على الدوام إلى جانب مابيا ، محدقاً في المنتأى بنظرات جشمة ، وكان يلوذ بالصمت ؛ وأحياناً كان يضم الجنية الصغيرة بصورة مباغتة ويقبلها بعنف كثير حتى تكاد أن تختنق بين ذراعيه ... وكانت مابيا تذبل ، تذبل دون انقطاع .

وذات صباح جميل ـ وكان صباحاً خريفياً كئيباً بكل معنى الكلمة ، تتعلق فيه السحب واطئة فوق الأرض ، ثقيلة متوعدة ، فهي تكاد أن تقع بين لحظة

وأخرى على السهب وتغطيه بلحاف أزرق أسود ـ في ذلك الصباح إذن أفاقت مايـيا وتوجهت إلى الراعي بقولها :

ـــ إني أموت ، يا حبيبي ! بلى ، إني أموت !

فبرقت عينا الراعي حزناً وفرحاً في وقت واحد ، ونهض واقفاً ، وقال وقد أفعمه الغمّ :

ـــ أواهٍ ! ألا فاسكتي ! يا يمامتي .

ـــ كلا ، بل إني أموت . لقد مات الصيف ، وأنا سألحق به . إحملني إلى الغابة ، سريعاً !

فأخذها وحملها .

كانت الغابة داكنة معتمة ؛ لم تكن توشوش كما كانت تفعل فيما غبر من الزمان ، بحنان كثير وعنف كثير في وقت واحد ؛ إن أوراقها ، وقد كانت من قبل خضراً متوهجة ، قد غطتها الآن لطخ الخريف الحمر ، وقد سقط عدد كبير منها عند جذور الأشجار . وكان السكون يرين في كل مكان : إن الأشجار تنتصب في صمت ، وهي تفكر وتعيد التفكير في الصيف ؛ والسحب المعلقة واطئة ، واطئة جـــداً فوق ذراها ، تبكي بغيث خريفي ناعم مستمر شيئاً لا يعرفه أحد .

عند حدود الغابة ، أوقفت مايـيا الراعي وقالت بلطف :

ـــ ضعني على الأرض .

فوضعها ، وجلس على الأرض ، بجانبها .

وهبت نفحة ريح من السهب وانتزعت من الأشجار كثيراً من أوراقها ، فانتثرت عريضة حمراً على رأس مايـيا ورأس الراعي ؛ كانت الأشجار تهدر

ـ ضوضاء رتيبة ـ فلا يقدر المرء أن يميز إنْ كانت ترحب بمايبا أم تسخر منها وتعتب عليها .

قالت للراعي :

وداعاً ، وأنت أيتها الغابة ، وداعاً . وداعاً أيضاً ، أيتها الشمس ، هناك عالياً وراءالسحب . وأنت أيتها السحب ، وداعاً ؛ لقد كنت ترسلين الهلع في قلبي من قبل بجرأتك الجموح ، ولكنني أعلم الآن أنالريح تقودك ، وأن الريح نفسها مقودة أيضاً بشيء ما آخر ، وأن القدر يسيطر على كل شيء ، وهو نفسه عبد من دون ريب لأحد ما ، ربما للموت الذي يريد أن يأخذني . . . ولكن مما لا ريب فيه أن الموت نفسه ليس حراً طليقاً ؛ فهو لا يصلب ذراعيه قط ، بل لا يني يعمل دون انقطاع ، ويعمل أيضاً ... لماذا ؟ هيا ، وداعاً مرة أخرى ، يا شجاعي . هـذا أنت الآن حر مرة أخرى كالنسر ؛ ولكن بأية فائدة سيعود ذلك عليك ؟ هل سألت نفسك هـذا السؤال ؟ وداعاً ، ولسوف أفكر على الدوام فيك ، إن كنتُ زبداً على سطح البحر ، أم بخاراً مزرقاً فوق الجبل ، أم ظلاً مسائياً فوق السهب . وداعاً ! هلا قبَّلتني مرة أخرى .

وبينما هو يقبلها ، ماتت .

كانت تضطجع تحت الأشجار التي تهمس باحتجاج أصمّ . لقد كانت فائقة الصغر عظيمة الهدوء ، وقد أضحى محياها الصغير أشد من الزنهقة شحوباً . . .
وهبطت الغيوم إلى أوطأ من ذي قبل فوق السهب والغابة وبكت بقوة أعظم أيضاً ... وأحسّ الراعي قلبه يهوي في صدره ويمتلىء حتى حفافه يأساً ...

كان ينظر إليها . . لم تعد الآن على مثل جمالها وهي على قيد الحياة ، ولكنها الآن أعز على قلبه ، فهو يحبها أكثر الآونة ، في هـذه البرهة من الغم . أجل ،

إنه ليحبها أكثر ، لأنه قد فقدها ... وكان قلبه يتوجع ، وكان يبكي !... وإذا الحقد يغلي فيه مثل ينبوع لاهب .

وشرع يغني ، ربما للمرة الأخيرة :

ذلك الذي سكب المرة الأولى
سمَّ الحب في كأس الحياة ،
ألا فليستقِ من هذه الكأسِ
طويلاً ، دون انقطاع ودون نهاية !

وإذا رغب في الموت ، فليعش ،
فليعش إلى الأبد .

وتردد ، عبر الغابة ، صدى طنان :

« فليعش إلى الأبد . »

ولكن ما هذه الأغنية إذن ؟ لقد أدرك الراعي أنها لم تك أغنية حقاً ، فانتابه شعور بالأسف والخجل .

لوَّح بعصاه الطويلة فوق رأسه ، وصفر بصوت خافت وبحزن ، ثم انطلق نحو الأفق في اتجاه الغيوم ، واختفى .

كانت الجنية لا تبرح تضطجع عند حدود الغابة ، والأوراق المبتلة تساقط، تساقط دون انقطاع . . . وحوالي المساء ، انزلق شعاع من الشمس من خلال الغيوم ؛ لم يرَ شيئاً عند حدود الغابة ، أللهم سوى كتلة كبيرة من الأوراق الحمر والصفر يجثم إلى الأعلى منها ، على غصن سنديانة أسود مبتلٍ ، خطّاف يصفر بصوت خافت حزين : عندئذ اختفى شعاع الشمس من جديد ، فعادت الظلمة

ترين على كل شيء ـ وبقيت هكذا الجنية الصغيرة المرحة تحت أوراق الخريف..

وهذا كل شيء ...

في ذلك المساء ، على ضفة الدانوب ، كان ثلاثة من الجن الحكماء يجلسون على جذع سنديانة قصفتها العاصفة وغطتها الأشنيات ، ويتكلمون عن موت الجنية الصغيرة مايا ، كانوا يعرفون منذ الآن أنها ماتت ، كما أنهم يعرفون كل ما يحدث في أي مكان من هذا العالم ، بل يعرفون بعض المعرفة أيضاً ما قد يجري غداً . كانوا يتحدثون ، فقال واحد منهم هذه الكلمات :

ـ وهذه هي كل حياة مايا الصغيرة . حسناً ! لقد نالت كل ما كان يمكن أن تنال ، وليس لها أن تشكو شيئاً .

وبعد عدة دقائق من الصمت ، قال جني ثان كان أحكم أيضاً من الجني الأول:

ـ ليلوح أنهم يسمون الحب « متعة » ، وذلك لأنه عذوبة قوية جداً فقط ، لا أرثي للجنية كما أني لا أرثي لأي شيء آخر ـ لأن كل شيء سخيف عبث .

أما الجني الثالث ، فقد جمع بعض الحصى في يده ، ورماها في تيار النهر وهو مستغرق في التفكير ؛ وراح يتطلع مبتسماً إلى الدوائر التي رسمتها تلك الحصيات على صفحة الماء ، كيف هي تنمو ثم تتلاشى ، يمحوها التيار . ولم يقل شيئاً ، لم يقل كلمة واحدة ، وإن لم يفكر أقل من رفيقيه ، وقد تخدّد جبينه بغضون أكثر عدداً من الغضون المرتسمة في جبين صاحبيه . إنه لم يقل شيئاً .

ولقد كان هو أحكمهم جميعاً .

حسناً ! إليك : لقد رويت قصتي . ليست هذه الأقصوصة بجديدة ، ولعل الحياة قد كتبتها في قلبك منذ زمن طويل . ولكنهم يقولون إنه ليس في الحياة شيء لم يكن من قبل ...

.. ولقد كانت بي رغبة عظيمة في روايتها .

عرض للحوادث والافكار التي جفف فعلها المتبادل أفضل أجزاء قلبي

أديل ! لم أنت تفسرين على مثل هذه الصورة السيئة جميع كلماتي ؟

(من رواية ألمانية)

وإذا كنت أطعم ، فقد كنت أطعم قليلاً من العسل ، ولهذا - فاني أموت .

(الملوك الثاني)

٥ نيسان ١٨٩٣

عرض :

في السنة ١٨٦٨ ، اليوم الرابع عشر من شهر آذار ، في الساعة الثانيـــة صباحاً ، أقدمت الطبيعة ، طبقاً لحبّ الدعابات السيئة الذي يميزها ، وسعياً إلى توسيع مجموع البلاهات التي خلقتها في مختلف العصور ، على إنجاز ضربة عريضة من منقاشها الموضوعي ، فرأيتُ النور.

وأنا شخصياً لا أذكر هذا الحدث ، رغم أهميته ، ولكنّ جدتي قد حدثتني أني أخذت أصرخ منذ اللحظة التي أتخذتُ فيها الصورة الانسانية .

وأريد أن أظن أن ذلك كان صراخ نقمة واحتجاج .

الانطباع الأول في ذاكرتي :

عبر طريق ضيقة مظلمة ، بين منازل ضخمة لونها أحمر قذر لا تمتـد السماء فوقها بل هو رداء سرير مصنوع من نسيج قطني عتيق رمادي الصبغة ترشح المياه من خلاله فتسقط على الأرض قطرات دقيقة متجلّدة ، عبر هـذه الطريق يتقدم موكب جنائزي . كانوا يدفنون أبي . إني أقتعد ركبتيّ جدتي ، وجدتي تركب

عربة ، والعربة تغرق في الطين حتى وسطهـا ، فتنطلق دفقات الوحل من كل حدب وصوب ، فألاحقها ببصري وأفكر في أبي .

إنه إنسان باسق القامة ، ذو عينين كبيرتين رماديتين عميقتين ، وصوت عذب جميل الجرس ، وهذا كل شيء . وإلى ذلك فقد كان يدعوني القرد الصغير ، فيما أناديه أنا بأبتاه ، الأمر الذي كان من حقنا نحن الاثنين دونما ريب ، وإن لم يكُ فيه أي شيء جديد فهو لا يوقظ فيّ أية عاطفة على الاطلاق .

هؤلاء نحن ندخل المستنقع ، الذي كان المقبرة في الوقت ذاته . وحُمل نعش والدي على أذرع الرجال ، ثم وضع على حافة حفرة تملؤها الميـاه حتى نصفها . ورتل الكهنة قليلاً ـ لقد كانا اثنين ، أحدهما كبير كثيف الشعر جداً حتى لا يرى من وجهه سوى الأنف الأحمر المدبَّب ، وسوى عينين فاحمتين مخوفين ؛ وكان الآخر صغيراً ينبح بعنف كثير ـ ثم طلبا إنزال والدي إلى الحفرة من حيث فرّت فصيلة من الضفادع المذعورة . تملكني الخوف فانخرطت في البكاء ، فاقتربت مني أمي ، وكان وجهها صارماً في كثير من الغضب والنقمة : فتضاعفت عبراتي . أعطتني جدتي قطعة من الخبز ، فيما لوّحت أمي بيدها دلالة نفاد صبرها وابتعدت دون أن تنبس ببنت شفة . هذا كل شيء من أجل والدي . وإنه لقليل .

أنا ، بكل تأكيد ، كنت أترك شيئاً أكثر لأبنائي ؛ وما كنت أنسى ، على أية حال ، أن أعتـــذر منهم بسبب اضطرارهم إلى الوجود بجريرتي (نصفياً على الأقل) .

ذلك واجب كل أب محترم ، واجبه الألزم .

الانطباع الثاني . مركب بخاري ، وضجيج يصمّ الآذان ، وغرفة . . أمام النوافذ يركض كثير ، كثير من الماء ، مغطىً بالزبد ، إلى حيث لا يدري أحد . إني جالس إلى إحدى النوافذ المدورة كالفطيرة ، أتطلع حواليّ . في الغرفة ، ما

عداي ، نعش صغير موضوع على الطاولة ، وفي الوسط أمي وجدتي . إني أعرف أن في النعش أخي مكسيم الذي ولد يوم وفاة والدي ومات بعد ثمانية أيام من ذلك . وإن سلوكه في تلك المناسبة ايدل على أنه كان يتمتع بذكاء نادر المثال كثير العمق . هذه المياه وقد أخذت تركض أقل سرعة وأكثر هدوءاً أمام النوافذ ؛ وفي العالي يتضاعف الضجيج ، فيدف إلى الآذان وقع أقدام ثقيل ، فيما يداف إلى الغرفة رجل يرتدي بالزرقة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ؛ إنه يمسك بيده كُمَّةً صغيرة بيضاء ذات شُرُط ، ويقطع محياه الكبير المخيف خط أحمر يجتاز بصورة منحرفة ، من اليسار إلى اليمين ، جبهته وخده .

سأل :

ـ أيحب أن آخذه ؟

فأبكي ، ذلك أني لا أريد الرجل الأزرق أن يأخذ أي واحد منا . لكنه يقترب من الطاولة ، ويأخذ أخي تحت ذراعه ، ويحمله وهو يرسم إشارة الصليب . ويصبح محيا أمي أحمر ، بينا جدتي تسحب من حيث لا أدري منديلاً أحمر وتزرعه في عينيها ، وتزعق بشيء ما بصوت غاضب ، ثم ينهار كل شيء ، وأنا معه...

غرفة صغيرة في منزل ، نيرة ، دافئة ، كئيبة . إني أقتعد كرسياً ، وأمامي مجلد سميك أحرفه كبيرة تبعث على الضحك ؛ قبالتي وجه جدي الأصهب الشرير . إني أسأله :

ـ ما هو الانسان السعيد الذي لا يأخذ بنصائح العصاة ؟ إنه ليس الخال يا كوف ؟

فيقول جدي :

ـ يا للخبيث !

لكنه لا يوضح من هو الخبيث : الانسان السعيد أم الخال يا كوف .

ويقول جدي من جديد ، ولحيته ترتعش :

– الرجل البليد ! الرجل البليد ، إنه أنا : إذن فالخبيث هو أنا أيضاً .

ولا يؤثر بي هـذا الاستنتاج مطلقاً . فأتهجأ وأنا أدندن كلمات القصيدة : « ودرب الخطيئة لا تسلك » ، فيما أحك عن صفحات الكتاب ما عليها من قطيرات الشمع . وينفتح الباب ، فتداف منه جدتي إلى الغرفة .

قالت :

– أيها الأب ، ثمة جنرال غريب قد أتى ، وهو يدعوك إليه .

– ممن ؟

وينهض جدي ببطء ، محدقاً بصورة مضحكة في الباب حيث يقف رجل طويل القامة يلبس قبعة مزينة مثلثة القرون ، وثوباً عسكرياً أحمر اللون مزيناً بأزرار ضخمة ، حمراء هي الأخرى ، وجوارب تبلغ منه ما فوق الركبتين ، وحذائين صغيرين مرصعين بابزيم جميل . وكان يعتلي وجهه الرهيب الصارم أنف أحمر طويل منحن نحو الأسفل ، في أقصى نهايته ثؤلول يركبه .

– صبا ـ باح الخير ! يا صا ـ صاحب السـ ـعادة . تفضل بالجلو ـ وس . أر ـ رجـ ...

كان جدي ، وقد غاض لونه تماماً يعدو عبر الغرفة بصورة مضحكة ، وضحك الجنرال ، وضحكت جدتي أيضاً . حملق جدي بباصرتيه ، فعرفت أمي . آلمني ذلك وأخافني ، فصحت :

– أماه ! أأتي عنك هذا كله !

فأغرقت في الضحك أكثر من ذي قبل ، ثم قالت بصورة مباغتة ، وفي صوتها وعيد كثير :

– والآن ، إذا لم تكف عن التشرد في الطرقات وعن الدراسة على مثل هذه

الصورة الرديئة ، فسوف آخذك إلى الفصيل، فتضطر إلى حشو المدافع ،وأجعلهم يجلسونك فوقها عندما يطلقون النار .

أواه ! لقد ذعرت من تلك المدافع اللعينة ! عندما يطلقون النار في المعسكر، فان الزجاج يرتجف هلعاً ، ويتراءى لي أنهم إذا أطلقوا النار مرة أخرى، فسوف تنشق الأرض وينهار منزلنا .

ورغم ذلك فقد اضطربت إذ رأيت والدتي ، وهي كثيرة الجد فائقة الجمال على الدوام ، على هذا القبح وهذه السخرية الآن . لم يعد فيها شيء يخيفني ، وإن فيها لكثيراً من الأشياء لا تروقني !... وبصورة خاصة تلك الأزرار. أبداً لم أشاهد أزراراً أقبح وأضخم .

سألتها :

— ارمي عنك هذا ، يا أماه ، فهو ليس حسناً .

فضحكت :

— أيها الأحمق الصغير. إنه العيد ،وقد تنكرت بمناسبته ولكني سأكون غداً كعهدك بي دائماً .

أما أنا فاني أريدها أن تكون في الحال كما هي في كل يوم ، فرحت أصيح بها من جديد ، لكن بغضب هذه المرة ، أن تخلع تلك الثياب ، فضحكت .. عندئذ قفزت عن مقعدي ، وأطبقت على زر من أزرار لباسها الأحمر ، وانتزعته وأنا أصيح ، ناقماً باكياً :

— هيا ، أيها الجرو الصغير !

ولم تهدىء الصفعة الأولى من روعي . لكنني وجدتني ، بعد عدة صفعات، متكوماً في زاوية بقيت وحيداً فيها ، لأن الجميع قد ذهبوا بعد أن أطفأوا الأنوار وأغلقوا الباب في الخارج . إن الظلمة ترين . وإني لأخاف . أقلعت عن البكاء ،

وأرهفت أذني للضوضاء الآتية من الأسفل . هناك ، إنه الرقص،والموسيقى ، والضحك . وثمة شيء أسود ، ضخم ، يسبح أمام عيني ، وعلى الجدران تقفز شرارات صغيرة مذهبة ، تشتعل تارة وتنطفىء تارة . ثم استغرقت في النوم .

وإني لأتذكر هنا حلماً ، أحد تلك الأحلام التي هي ملاطفة للقلب والتي لاينساها الانســـان مطلقاً . ولربما كان يفضل أن أصفه بكتابة نقاط تعجب لا بالـكلمات ، لكن ثمة هدفاً لي — غريباً نوعاً ما ، خيالياً حتى درجة ما ، ولعل الوصول إليه مستحيل — يدفعني إلى الـكلام بصورة أبسط ، هدفاً تخيله مجنون أو مريض ؛ فليكن — ولـكن الحقيقة هي أن هـذا الحلم يستبعد كل إمكانيات السكوت عنه .

ثمة نافذة مفتوحة : ومن الحديقة ينصبّ في الغرفة ، في تيار مستمر ، وشوشة الأزهار وأشجار التفاح وعبيرها . وأنا مضطجع في فراشي ، أحاول أن أحصي النجوم الظاهرة في تلك الزاوية من السماء الواقعة ضمن إطار النافذة . تلك الزاوية صغيرة ، ومع ذلك مطرزة بكثرة عظيمة من النجوم المتكاثفة جداً ، حتى إني أخطىء الاحصاء طوال الوقت .

سألتني أمي :

— لمَ لاتنام ؟

إنها جالسة بجانبي ، وهي تنهض بين الفينة والفينة لتلقي من النافذة نظرة على الحديقة ، في الأسفل .

أجبتها :

— لا أريد أن أنام !

قالت ، مستاءة :

– نم ، نم . ما معنى هذا : لا أريد أن أنام ؟

ولكني أريد أن أقبلها ، لا لأمر الذي أعلنته بصوت مرتفع . إنها تروقني اليوم، وإني لأحبها حباً طاهراً قوياً مجرداً عن تلك الخشية وذلك الاضطراب الممتزجين على الدوام ، بنسبة تزيد أو تنقص ، بما ينتابني من أحاسيس عندما أقترب منها ... قبلتني في ذهول ، ورددت :

– نم ، نم !

ولكن تلك القبلة لم ترقني ، فأخذت أغني بعد لحظة من الصمت .

صاحت أمي :

– نم !

فجنحت إلى الصمت ، ينتابني الحزن وتراودني الرغبة في أن يسيئوا معاملتي.

– نم ، قلت لك !

ولكني أغني رغم ذلك وأتوصل إلى غايتي : إنهم يسيئون معاملتي . ذلك عظيم المرارة وفائق العذوبة ؛ وبدأ النعاس يضايق أجفاني في ملء عبراتي ، فأحس قبلة أمي الصغيرة الدافئة ، فأبتسم وأرى فيما يرى النائم حلماً .

في الغرفة يضع نور القمر كثيراً من الضياء ، فأرى خلف ستائر سريري شخصاً عظيماً ذا وجه شاحب وشاربين كبيرين أسودين ؛ إن شعراً طويلاً يساقط على جبينه ووجنتيه ، وهو يقبل أمي ويلاطفها ، يلف قامتها باحدى ذراعيه ، ويضم بالذراع الأخرى رأسها إلى صدره ويمسح على شعرها . وإن وجه أمي لمرفوع إلى الأعلى ، وهي تنظر في ملء عينيه . إنها لفائقة الجمال ، عظيمة الطيبة ، كثيرة الحنان الآن! وإني لأرى بكل وضوح أنها سعيدة،فأسرّ بذلك، من جهة لأن إنساناً في البيت لا يحبها عدا جدتي ، ومن جهة أخرى لأن محبتها لي ستتضاعف الآن بعد أن أصبحت تعرف حلاوة الملاطفة .

قالت بصوت مخفوض ، لكنه واضح :

– لقد كنت أنتظرك وأنتظرك ؛ وكان الكائن الانساني فيّ ، أكثر من المرأة ، هو الذي ينتظرك . إن الأمور هنا لاتطاق ، فأحسّ قلبي مرهقاً ، والجميع يكرهونني ماعدا أمي ، وهي نفسها تخشى أن تدللني بصورة علنية ... لأجدني مهملة ، وحيدة ، ولكني لا أتراجع أمامهم إصبعاً واحدة . لا أريد ، لا أستطيع أن أخضع و ...

قال الرجل الأسود الشاربين :

– دعينا من الحديث عن هذه الأمور ! قريباً سينتهي كل شيء ، قريباً ! اصبري بعض الوقت أيضاً ، أما الآن فقبليني !

إنه يتكلم بصورة لطيفة لا يمكن وصفها ، وعيناه تبرقان بطيبة تلوح مبالغاً فيها .

وأريد أنا الآخر أن يلاطفني ، ولهذا أقول :

– أماه ، أريد أن يقبلني أنا أيضاً ، ولو مرة واحدة فقط !

فينتفض كلاهما ، ويتحركان صوبي .

قالت أمي :

– ألم تنم بعد ؟ مامعنى هذا ؟ يجب أن تنام ، يا لولو !

وأمرّت يداً مرتجفة على رأسي وهي تبتسم لي .

قلت لها ، كي أهدئ من روعها :

– لقد نمت زمناً طويلاً ، وشاهدت حلماً .

وأضفت بلهجة يقين وأنا أنظر إلى الرجل الذي يتفحصني وعلى شفتيه ابتسامة متفكرة :

– وإن هذا السيد لطيب جداً ، يا أماه !

قال :

– نعم ؟ إني أروقك ، أيها الصبي الصغير ؟ لشدّ ما أود أن أوثق معرفتي لك !

وأخذني بين ذراعيه ، وقبلني مرة ، ومرتين ، وحملني حتى النافذة .

– تعال عندنا كل ليلة ، وهذا كل شيء . مادمتَ حلماً ، فأنت لا تحيا سوى في الليل .

فضحك كلاهما بصوت خافت .

قالت أمي :

– انتبه ، فسوف ينتابك برد .

– كلا ، لا تخشي شيئاً . وعلى أية حال ، أعطيني الغطاء !

ولفاني بالغطاء الطري الواقي ، فاضطجعت بين ذراعي السيد الأسود الشاربين أصغي إليه يحدثني عن نفسه وعن أحلام أخرى تضاهيه جمالاً تعيش هناك بعيداً ، بعيداً جداً ، حيث السماء تعانق الأرض .

ألقيت أنظاري إليه ، وإلى أمي ، وأنا أتشرب أصداء قصته الدافئة الحنون ، وعبير الحديقة في الوقت ذاته ، ومن ثم رقدت ، أو هويت في شيء ما ، أو حلقت في مكان ما .

وحين أيقظت في الصباح رأيت أمي: إنها جالسة بجانبي ، وهي هادئة،صارمة، مثلما دائماً . كنت أتمدد في فراشي ، أفكر وأنا أنظر إليها ، وأتذكر حلمي .

سألت أمي :

– حسناً ! هل أيقظت ؟

فهززت رأسي مؤكداً بكآبة .

عادت تسألني :

– إروِ لي ماشاهدت في الحلم .

ورمقتني بانتباه وصرامة كثيرين في ملء عيني .

فرويت لها .

ـ حسناً ، يا لولو . هذا الحلم ، يجب ألا ترويه لأي إنسان كان ، حتى ولا لجدتك ، ولا لأي شخص كان ! ذلك أن رؤية مثل هذه الأحلام خطيئة .

سألتها لمَ يكون ذلك خطيئة ، فأعطتني تفسيراً طويلاً مملاً . أما أنا ، فكنت أرتدي ثيابي دون أن أفهم شيئاً ...

إني أضطجع في سريري ، وجسدي برمته مغطى بقشور الجدري ، أنظر إلى وجهي في المرآة قبالتي . إن القناع المتقيّح المقرف الذي يغطيه يلقي بي في هوة اليأس والخور ، فأحس خبلاً يئيد على جسدي كله . ولقد أوثقوا يدي وقدمي ، كي لا أحك جلدي بخشب سريري . ولم يكن أحد يأتي لزيارتي سوى جدتي ، خوفاً من العدوى ، بحيث أظل متمدداً وحيداً طوال أيام مديدة ، يرهقني مظهر وجهي الفظيع . كنت يومذاك في السابعة من عمري ، ويخيل إليّ أني ما كنت أعرف بعد كيف أفكر ، لكنني كنت أشعر منذ ذلك الحين .

إن جدتي لا تأتي ، رغم أن أوان إشعال النار قد حان منذ زمن بعيد . وإني لأتخيل أين عسى أن تكون جدتي الآن ، وما تراها تصنع . ويتراءى لي بغتة أنها متمددة خلف الباب ، عند العتبة ، في قميصها وحده ، مفتوحة الحلق ، مثل تلك الدجاجة التي ذبحها ذات يوم رومان ، بوابنا . ويملؤني الهلع ، فأقفز من مكاني ، وأمزق الأربطة التي توثقني بخشب السرير ، وأنطلق نحو النافذة ، فأحطمها ، وأرمي بنفسي منها ، فأقع على كومة من الثلج الطري .

إني طريح السرير ، فريسة المرض : لقد تجلد قدماي بسبب بقائي في الثلج مدة طويلة نوعاً ما . وتأتي جدتي لمشاهدتي في غرفتي ، تحمل على ذراعيها رزمة : ثمة شيء يتحرك فيها وينق . سألتها :

– ما عسى أن يكون هذا ؟

قالت جدتي :

– إنه الله الطيب قد أرسل لك أخاً صغيراً .

وأرتني في الرزمة رضيعاً بنفسجياً أحمر ، تغمره الغضون حتى ليبعث على الضحك .

– أهي أمي التي ولدته ؟

– بكل تأكيد ، ليس جدك الذي فعل ذلك !

لم يوقظ كل هذا فيَّ أي فضول شديد ، فظللت متمدداً في فراشي بسكون.

ويدخل جدي الذي يجلس على سريري ، وهو يتنهد .

قال ، وهو يرسل ضحكة رديئة :

– حسناً : فليكن الله مباركاً ، هؤلاء نحن .

قالت جدتي بصوت ملاطف :

– لا بأس ، أيها الأب . إن البذرة التي تحملها الريح تعطي نباتاً قوياً .

وراحت تحل أقمطة الرضيع ، وهي تقترب منه .

– إذهبي عني ، أيتها الشمطاء ! إنك أنت المذنبة ، أنت ! ما كنت تستطيعين أن تراقبي ابنتك ، كلا ، أيتها الساحرة العجوز !

ويزمجر جدي ، وترتعش لحيته الصهباء وتنتفض ، ويكفهر محياه حتى يصير رهيباً ، ويضرب جدتي ، فتقع كمتها عن رأسها .

قالت ، وهي تتراجع ، مذعورة :

– أيها الأب ! ماذا دهاك ؟ إنك تفقد صوابك !

– سوف أقتل نفسي ! أغربي عن بصري !

إن جدي يساقط الضربات على رأس جدتي وكتفيها ؛ وإنها لتتقهقر صوب

الباب ، تدور حول نفسها دون مقاومة ، محاولة أن تحمي الطفل من ضربات جدي الذي يزعق : « هذا لك، هذا لك ! » وإني لأخاف وأغضب ، فأروح أصيح بدوري بأعلى صوتي . وأخيراً هربت جدتي إلى ما وراء الباب ، فاعتمد جدي المدفأة وهو يتنهد باعياء ، وراح يجفف عن جبينه عرق العمل .

قال ، وهو يلوّح يده بصورة متوعدة :

– ماذا أصابك حتى تزعق ، إخرس !

ولكني أحسُّ موجة « من الهلع والشجاعة في وقت واحد » فلا أصمت .

قال جدي :

– إخرس ، يُقال لك!

وانحنى فوقي ، وهو يصرُّ بأسنانه .

صحت في وجهه بكل ما أوتيت من قوة :

– أيها الشرير ، أيها الأصهب الشرير !

فقال :

– آه ! آه ! أيها الشقي ! إنك مثال أبيك تماماً !

ويلطمني على جبهتي ، ثم يولي الأدبار وهو يزمجر :

– أيها الشياطين ! أيها الجلادون !

وإني لمسرور بأن أكون مثال أبي تماماً ، وإن كانت جبهتي تؤلمني .

. . . تلك كانت المشاجرة الأولى التي رسخت في ذاكرتي ؛ وإن سلسلة طويلة من المعارك المرتبة التي تستحق انتباهاً يزيد أو ينقص ، والتي كانت تقع بصورة دائمة بين شخصين أو ثلاثة أشخاص في عائلتنا ، لتبدأ مع تلك المشاجرة الأولى . كان خالاي يعودان إلى الدار سكرانين ، فيكسران الزجاج ...ووجه جدي وجدتي . ولقد كانوا ينهالون عليها بالضرب أيضاً ، ويسوقونها إلى مركز

الشرطة . أية عواطف كانت تتقاسم أهلي ، هـذا ما أجهله ، ولكن هـــذه الاشتباكات التي كانت تبعث فيّ كثيراً من الخوف بادىء ذي بدء قـد انتهت إلى إثارة ميول حربية فيّ تدفعني إلى الاشتراك في المعارك ، لكنها تختفي سريعاً حـين يحين أوان الاشتراك فعلياً في الصراع . وحينئذ كان ذعر متوحش يأخذ مكانها.

واكني لم أستطع ، ذات مرة ، أن أتمالك زمام نفسي .

إني أتذكر تلك اللحظة بسرور ، وأبدأ منها تاريخ تطوّر استقلالي واحترامي لذاتي . كنت أتنزه ذات يوم في الحديقة ، عندما سمعت أمي تصيح في الغرفة . وما مضت برهة حتى كنت بجانبها : كانت تقف على قدميها ، تحمي نفسها بالطاولة ، وتمسك ملقطاً ثقيلاً بيدها ، وهي تقول للخال ميخائيل الواقف قبالتها:

ــ إذهب ، يا ميخائيل ! أنت جبان ، إذهب ، وإلا حطمت رأسك !

فصفر العدو من بين أسنانه :

ــ أنت تكذبين ! لن أذهب قبل أن أضربك !

ودار حول الطاولة ومشى عليها . رفع يــــده ، فقفزتُ في اللحظة ذاتها ، وأحطت بذراعي قدم خالي بلذة وذعر وحشيين ، وغرست بعنف أسناني في عقبه.

وحدث شيء رهيب بغيض .

استعدت صوابي في المساء مرهقاً بالصفعات محطم الأعضاء . كانت أمي ، وجدتي ، وجدي ، يضحكون جميعاً بحنان ، بينا قال الخال ياكوف وهو يقبلني:

ــ إنك لبطل حقيقي ، أيها القرد الصغير !

وكنت فخوراً سعيداً ، فقبلت الجميع ، وبكيت ، ورويت سخافة ما ضاعفت ضحكهم ، الأمر الذي لا يقع ذنبه على كاهلهم بكل تأكيد ، لأن البشر منـذ الأزمان السحيقة يتبادلون المديح والاحترام من أجل ما يستحق العقاب . وفي أمسية الغداة كنت أقف على قدمي من جديد ، وأقترح على ابن خالي ، الذي كان

يكبرني سناً ، أن يرافقني كي نضرب أحد رفاق الشارع الصغار . وعندما رفض ـ والله وحده يعلم سبب رفضه ـ مثل هذا الاقتراح الرائع ، قلت له باحتقار :

ـ ما أنت إلا جبان ...

قال لي يوماً ابن خالي يا كوف :

ـ أتعلم ماذا ؟ أتعلم ماذا ؟ إن في القبو كثيراً من البيض المصبوغ ؛ فلنذهب ونسرق منها ، ولنبع ما نسرقه ، ثم نشتري بعد ذلك بالمال حلويات وأكعاباً .

انتابني قليل من خوف ، لكنني قررت القيام بتلك العملية بعد طول تفكير. وانزلقت بعد ابن خالي إلى القبو ، وملأنا بالبيض جيوبنا وقمصاننا ، واستبدلناها عند جيراننا الصغار بصندوق كامل من الأكعاب التي ظللنا طوال النهار نلعب بها خارجاً ـ إنهم نادراً ما يتركونني أخرج إلى الشارع خشية الاتصالات الضارة بأخلاقي. ولكن جدي نادانا في المساء وسألنا بصرامة :

ـ ترى هل بلغكما صدفة ، أيها الصبيان ، من سرق البيض من القبو ؟

فأجاب ابن خالي بثبات :

ـ لا علاقة لنا بذلك !

ولقد أكّد بهذا الجواب صحة القاعدة : « أسرع على مهل » .

قال جدي :

ـ وأنا كنت أحسب أنكما السارقان . وهكذا فلا علاقة لكما بالأمر ؟

واستدار نحوي وعلى محياه دلائل الزلفى . لكنني جنحت إلى الصمت ، وأنا لا أشعر بالارتياح . كنت خجلان وكنت خائفاً . إن جدي ، وجدتي ، وأمي ، يرموننا جميعاً بنظرات صارمة .

ومنذ تلك الحادثة أتذكر نفسي ، مفكراً وكاذباً .

سأل جدي ، وهو يرسل ضحكة ساخرة قصيرة :

— ما بالك تلوذ بالصمت ، يا لولو ؟

فأجبت ، وأنا أنظر في عيونهم ، جميعاً ، بجرأة :

— لا علاقة لي بالأمر !

فأعلن جدي بوعيد هادىء :

— ربما كنت أنت السارق ، تكلم بصراحة ، ولا تخفِ شيئاً ، فسيكون ذلك أسوأ إذن .

فهززت رأسي نفياً .

— حسناً ، إذن فأنت الذي فعلت ذلك ، يا ساشا . اعترف سريعاً ، وبذلك ينتهي كل شيء .

فنظر الآخر إليّ ، ثم أطرق بأنظاره ، وقال بحياءٍ وذلّ :

— عفواً ! ... إننا نحن ...

فأعلنت بصوت مرتفع ، مليء بالاعتزاز ، والهدوء ، والاحتقار لابن خالي الذي أرجمه بنظرتي :

— إنه يكذب ! أنا لم ألمس البيض أبداً !

فسألت أمي :

— أصحيح ذلك ؟ قل لنا ، يا ساشا ، كيف حدث ذلك !

فروى كل ما جرى ، فبدا لي ذلك خيانة دنيئة من قبله .

رحت أصيح ، وأنا أضرب الأرض بقدميّ :

— إنه يكذب ! إنه يكذب ! أنا لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف شيئاً !

فاقترح جدي :

— أقسم على ذلك ، كي نرى !

لم ينتابني الخوف أبداً من الله الطيب ، هـــذا ما أتذكره جيداً . فكل ما حدثوني به عنه حتى ذلك الحين لم يوقظ فيّ أي عطف نحوه . كانوا يقولون لي إن

الله يعيش في السماء ، فما كنت أستطيع أن أتخيل كيف يستطيع امرؤ ألا يخاف من العيش على مثل ذلك الارتفاع العظيم ، ووحيداً من كل رفيق . كانوا يقولون لي : « إنه يدير الحياة والناس جميعاً » . ولكنه جدي ، في بيتنا ، هو الذي كان يدير الجميع ، وليس الله من كان يفعل ذلك . أما ما كان يحدث في مكان ما وراء حدود بيتنا فما كان يعنيني ، لأنه لم تك لي به أية صلة على الاطلاق . وكانوا يقولون لي إن الله يأتي بالناس إلى العالم ، لكنني كنت أسمعهم غالباً يقولون إن النساء هنّ اللواتي يقمن بأعباء تلك المهمة . ينبغي أن نصلي إلى الله . وكنت أصلي. ينبغي أن نطيعه . لقد كنت أخاف كثيراً من جدي ، لكنني ما كنت أصغي إليه، هو نفسه ، إلا قليلاً جداً . إذن فالله الطيب . . . يستطيع أن يعطي كل شيء . لكنني ما كنت في حاجة لأي شيء كان .

لسائر الأسباب المذكورة آنفاً ، جثوت ، ورحت أنكر بمهابة أي اشتراك لي في سرقة البيض .

قال جدي :

– إذن، ياساشا ، ماذا سأصنع بك الآن ؟ وأنت، يا لولو ، تعال وخذ درساً . سوف أعطيك من هذا درساً .

كان ابن خالي يخلع ثيابه في خضوع وذل ، فأنظر إليه وأنا أتأرجح بين الاحتقار والشفقة . وكان التركيز والمهابة اللذان يتهيأ الكبار بهما للتنفيذ يبعثان في قلبي جليد الرعب والهلع .

ومع ذلك كنت ألوذ بالصمت .

أخذوا يجلدون ابن خالي ، بينما هو لا ينفي يصيح :

– لن أعمل ذلك بعد الآن ! لن أفعل ذلك بعد الآن !

كان يصيح بصوت قوي ، ويبكي مثل جبان رعديد . وكنت أرتعش ،دون أن أدري سبباً لذلك ، وكنت ألوذ بالصمت .

قال جدي بخبث ، وهدوء ، وهو يجلد ابن خالي بوحشية :

— لن تفعل ذلك بعد الآن ؟ آه ! آه ! ولمَ لم تقل في التو واللحظة أنك أنت الذي فعلت ذلك ؟ لماذا وشيت بألكسي . أيها الكذاب القذر . لم يكن معك ، اعترف بذلك ، إنه لم يكن هناك ؟

فصاح ابن خالي بصوت يزداد ارتفاعاً وترجياً :

— آي ! إنه لم يكن هناك ، إنه لم يكن هناك ، إنه لم يكن هناك !

فقلت بصوت قوي ، وأنا أجرب أن أتهكم بهدوء ، لكنني كنت أرتعش انفعالاً :

— إنه يكذب !

فقال جدي مدهوشاً ، وهو يكفُّ عن الضرب :

— ماذا ؟

— إنه يكذب ! لقد كنت معه ، وقد سرقت !

أخذ الجميع يضحكون : كانوا يحسبون أني أتهم نفسي عمداً في انطلاق من الشهامة كي أنقذ ابن خالي . ولكنني برهنت لهم ، في كثير من الخطورة ، أني كنت هناك ، الأمر الذي أكده ابن خالي في كثير من الخبث . كنت سعيداً باثبات ذنبي ، فرحت أشعر بلذة لا حدود لها لكوني مذنباً .

سألوني في دهشة :

— لمَ أقسمت إذن ؟ لقد كنت تكذب ؟ لماذا ؟

أواه ! هذا ، إني ما كنت أستطيع أن أفسره لهم !

أجبت :

ـ هكذا !

ولقد كنت أستطيع ، إلى ذلك ، أن أفسر لهم ممن تعلمت الكذب . ولكنهم لم يسألوني عن ذلك .

ـ هكذا ؟ حسناً !

وأخذوا عندئذ يجلدونني ، عقاباً « لكذبي الذي لم يكن في موضعه » . وكنت أصيح :

ـ سوف أستمر في الكذب ، سوف أستمر ، سوف أستمر !

ولقد نلت نصيباً جدياً من الضرب .

وكانت نتيجة هذا الحادث الصغير أني ابتعدت كثيراً عن الجميع ، وأن الجميع ـ خلا جدتي ـ قد ابتعدوا عني . ولقد أخذوا منذ ذلك الحين لا يعيرونني انتباهاً إلا في سبيل غاية واحدة ، ألا وهي ألا أقوم بحيلة خبيثة ما . وكنت أعيش تلك الحياة الكثيرة الابتذال الذي يعيشها صبي من البورجوازية الميسورة ، فكنت أغدو للنزهة في الشارع أو في الحديقة ، وأتعلم القراءة في « كتاب الساعات » و « كتاب المزامير » ، والكتابة على لوح حجري ، إلخ . . . وكنت أكره الذهاب إلى الكنيسة مع جدي الذي كان يصفعني بشدة على رقبتي ، كي يجبرني على تقديم واجبات الاجلال ، فيؤلمني بذلك كثيراً .

وكثيراً ما كنت أشعر باحساس من الملل ، والبرودة ، والاذلال . عندئذ كنت أغدو إلى الحديقة . هناك ، خلف غرفة الغسيل ، كانت حفرة قد غمرتها الأعشاب الرديئة . كنت أتدحرج حتى قاعها ، وأتمدد هناك ، وأروح أنظر إلى السماء : هذه السماء تزداد عمقاً بمقدار ما ينظر إليها المرء بانتباه أعظم ، وليوقظ ذلك فيّ على الدوام كآبة حزينة . في تلك اللحظات تكون الحياة في مكان ما ، بعيداً عني ، فتدف أصداؤها إليّ بصعوبة ، وأنا في قعر الحفرة ، وعندما كانت

الريح تهب على الحديقة ، كانت الأعشاب الرديئة النابتة على حفاف الحفرة وفي قاعها تهدر بجفاء واكتئاب . كنت أتمدد هناك ، وأحياناً أبكي دون أن أعرف لذلك سبباً ، وفي أحيان أخرى أصرّ بأسناني ، وألهث أنفاسي ، وأرهف السمع إلى همس أشجار الحديقة . كان ذلك الشعور بالعزلة يلذ لي : ثمة شيء فيه يتملق محبة الذات ، ويرفع الانسان إلى أعلى بكثير من أشباهه . وكان أهلي يتراءون على الدوام ، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من مثل هـذه العزلة ، أسوأ مني . وينبغي القول إن نفوساً نادرة ، نبيلة حقاً ، قـد تكون قمينة بألا يراودها شعور الرضى عن النفس حين تتأمل من هم دونها . وإنه لمن السذاجة بمكان عظيم أن نحسب أن ذلك الشعور أمر معقد جداً بالنسبة إلى نفس صبي صغير .

ذات يوم في طريق العودة من نزهة قمت بها مع جدي في الحقول ، لقيت أمي تتأبط ذراع فتى باسق القامة . كان ذا لحية مدببة ، وعينين رماديتين واسعتين ، وبنية جميلة ، وصوت عذب ملاطف ، ومع ذلك لم يرقني . رمتني أمي بنظرة صارمة وقالت إن أوان العودة إلى البيت قد حان . وتفحصني رفيقها بدوره وألقى على أمي سؤالاً ضحكت له واحمرت وجنتاها ، وهي تحدق فيّ وعيناها ترميان بريق الغضب . وحين وصلنا إلى البيت التقيت بسيدة مجهولة .

قالت :

ــ أهذا هو ابنك ؟ أنعم صباحاً ، يا صغيري !

كانت تتكلم وهي تصرّ بصوتها مثل مفصلات صدئة ، مظهرة أسنانها بصورة كثيرة الملاطفة ــ كانت أسنانها مدببة ، طويلة ، بيضاً ــ ليقال إنها تريد أن تعضني . كانت ذات محيا أخضر ، وعينين خضراوين ، وشرائط خضر في قبعتها ، وكانت ترتدي ثوباً أسود ، الأمر الذي جعلها تتراءى أكثر خضرة أيضاً . وهكذا فقد فررت بعيداً عنها .

ثم التقيت بجدتي التي قالت لي إنه سيكون لي أب جديد عما قريب . وما كنت أحس أدنى حاجة للآباء ، أجداداً كانوا أم قدماء ، بحيث كدت لا أعير خبرها أدنى اهتمام . ولكن ضيوفاً كثيرين جاؤوا في المساء ، فقدمت إلى السيد الذي لقيته بصحبة أمي ، وقيل لي إنه أبي الجديد . ووخز « الأب الجديد » خدي بشاربيه ، وقال إنه سيشتري لي علبة من الألوان يا للمبادرة الطيبة ! ومن ثم قادوني إلى السيدة الخضراء وقالوا لي إنها جدتي الجديدة . ولم تكن هذه الجدة الجديدة كثيرة الجدة ، وكانت ذات أصابع طويلة هزيلة بصورة لا تصدق . غرست أصابعها هذه في شعري ، وشرعت تسألني عن أشياء لا أذكرها ، لكنني ما كنت أرغب في الحديث معها ، فكنت أبحث بباصرتي عن أمي . هذه هي ! إنها اليوم أجمل منها في أي وقت مضى ، ومما لا ريب فيه أنها فائقة الطيبة . إن لعينيها بريقاً عظيم العذوبة ! اقتربت منها وسألتها الأذن لي بالذهاب في الغداة مع البواب إلى المعسكر ، وباعفائي من حفظ أمثولة طويلة يدور موضوعها حول طريق مغبرة.

لكنها دفعتني من كتفي وقالت لي : « إذهب ! » أدهشني ذلك : فقد كنت أعرف حق المعرفة أن المرء يصبح طيب القلب عندما يكون مسروراً . ولذا فقد أعدت عليها سؤالي .

صاحت :

— دعني في سلام ، قلت لك !

ولطمتني على جبهتي ، فأحسست أني شقي حتى درجة بعيدة .

في الغداة احتفل بزواج أمي من أبي الجديد . كنت مكتئباً ، وهذا ما أذكره جيداً ؛ وبصورة عامة ، فان ذاكرتي تكاد تخلو من كل فراغ منذ ذلك اليوم . وإني لأذكر كيف كان الأهل جميعاً يرجعون من الكنيسة ، فرأيتهم من النافذة ، وعندئذ وجدت من الضروري أن أختبيء تحت إحدى الكنبات .

وإني لأريد اليوم أن أفسر ذلك السلوك بالرغبة في معرفة ما إذا كانوا سيفكرون فيَّ عندما لا يرونني ؛ ولكنني أرتاب كثيراً في أن تكون تلك الفكرة هي التي قادتني إلى الانزلاق تحت الكنبة . ولم يفكروا فيَّ طوال فترة طويلة طويلة !...
كان أبي الجديد وأمي يجلسان على الكنبة ، وكانت الغرفة مليئة بالناس ، والجميع في فرحة ، يضحكون دون انقطاع . وانتابني الفرح أنا الآخر ، وأردت أن أخرج من ذلك المكان ، إنما كيف العمل ؟

ولكني بينما كنت أحاول أن أجد طريقة للظهور في وسط المدعوين دون أن يلاحظوا ذلك ، أحسست الاضطراب والكآبة يجتاحانني ، فغرقت رغبة الخروج من مخبئي في هذين الاحساسين . وأخيراً تذكروا وجودي .

سألت جدتي :

— أين ألكسي ، يا ترى ؟

فأجابت أمي في لا مبالاة :

— لقد ركض كثيراً بحيث لا بدّ أنه ينام في مكان ما في إحدى الزوايا .

وإني لأتذكر أنها قالت ما قالت بالضبط في لا مبالاة : لقد كنت أنتظر ما ستقول في كثير من فراغ الصبر ، بحيث لا أستطيع إلا أن أتذكره .

قالت جدتي :

— حان لنا أن نرسله إلى المدرسة ، فهو سيبلغ السابعة عما قريب .

فوافقت أمي :

— أجل ، حان لنا ذلك : لقد أصبح شيطاناً كبيراً بحيث لم نعد نستطيع أن نضبطه .

وأضاف جدي :

— إنه صبي مضطرب ، فهو يرتكب تارة من الحماقات ما يستحق أن يجلد

عليها عشر مرات في كل ساعة ، وهو يكاد تارة أن يكون نائماً طوال النهار .

وعلى هذا فقد نسوني ، الأمر الذي لن أنساه أبداً مهما رغبت في ذلك . . .

وبعد فترة قصيرة ذهبت أمي وأبي الجديد إلى موسكو ، فبقيت مع جدي وجدتي . إن زوجاًواحداً من العيون يراقبني الآن،فعينا جدتي ما كانتا تضايقانني البتة ، لأنها كانت تحبني ، ولأنها كانت أيضاً سكرى في معظم الأوقات . كانت تشرب الخمرة دون أن تمزجها بالماء ، حتى كاد ذلك أن يقضي عليها يوماً . وإني لأذكر كيف أخذوا يرشونها بالماء ، وكيف كانت تتمدد في سريرها ، وقد ازرقّ محياها ، وأصبحت عيناها مخيفتين ، عكرتين ، واسعتين بصورة غير معقولة . وكنت أنا الآخر أحبها كثيراً : لقد كانت على الدوام كثيرة الطيبة ، تبعث على قدر عظيم من التسلية ؛ وكانت تروي لي بصورة رائعة قصصاً جميلة مرعبة تبدأ دائماً بهذه الكلمات : « إذن ،يا سيدي الجميل ! ... » كان أنفها هائلاً مغطى بالغضون ، أحمر عندما تشرب ، يجذب بصورة دائمة رأسها الكثيف الشعر الأسود إلى الأسفل . ثم كانت تتمتع بعينين سوداوين كبيرتين ، لا تبرحان ملاطفتين على الدوام ، حتى حين تغضب عليّ .

وفي ذات مرة ، وكانت سكرى ، طفق جدي يضربها ، فسقطت على الأرض وراحت تشتمه وهي ممددة هناك : « إضرب ، أيها الشيطان الأصهب ، ماذا تنتظر ؟ إضرب، أيها الشيطان العجوز ! » كنت نائماً ، لكن الضوضاء أيقظتني ، فقفزت عن سريري ، وإذ رأيت ما يجري أمامي ألقيت على جدي قنديلاً شاعلاً . وكاد أن يشتعل حريق بسبب ذلك ، وقد أحرق جدي ساقيه على أية حال ، وجلدني.

مثل هذه الحوادث كانت تقع كثيراً ، وكنت ألعب فيها على الدوام دوراً فعالاً ، الأمر الذي نتج عنه ازدياد حب جدتي لي ، وتفاقم كراهية جدي لي أيضاً . أما أمي ، فاني لم أفكر فيها مطلقاً ، فيما يخيل إليّ ، طوال فترة غيابها .

كانت حياة الشارع تجتذبني شيئاً فشيئاً في ذلك الحين ، كما كانت الدراسة تتطلب مني كثيراً من الوقت ، إذ كنت أقرأ ، منذ ذلك الحين ، « القديس يوحنا فم الذهب » مع جدي ، بعد أن انتهينا من « كتاب المزامير » و « كتاب الساعات ». وإني لأذكر جيداً أن سائر هذه المطالعات لم تك تترك أي أثر في قلبي أو في رأسي .

ذات يوم جميل ، قال لي جدي بصوت كئيب خبيث :

— غداً تأتي والدتك . لقد شب حريق في دارها ، واحترقت سائر ممتلكاتها . سوف تقول لها أن تربيك على أفضل سبيل .

ويتراءى لي أني لم أحس لدى هذا الخبر سوى الفضول والخوف ، وهما ماستنحصر بهما بعد ذلك سائر إحساساتي البنوية . كنت أسمع أمي ، قبل زواجها الثاني ، تقول أشياء تقتل فيّ سائر العواطف الايجابية نحوها . كنت أضطجع في الحديقة، في حفرتي ، وكانت تتنزه في الممر غير بعيد مني برفقة صديقة لها ، وهي زوج أحد الضباط . كانت تقول :

— تلك خطيئة ، ولكنني لا أستطيع أن أحب ألكسي . أفلم يلتقط مكسيم (أبي) عدوى الكوليرا منه ؟ أو ليس هو الذي يقيد يدي وقدمي الآن ؟ لو لم يكن هو ، فقد كنت أحيا ! ولكن المرء لا يستطيع أن يذهب بعيداً ومثل هذه الكرة معلقة في قدميه ! ...

ولم أفهم بادىء ذي بدء ما تعني ، ثم انتابني الحزن والألم جميعاً ، وعندما ذهبت في صبيحة الغداة ، لدى يقظتي ، أتمنى لأمي صباحاً طيباً ، فقد بقيت واقفاً مدة طويلة أمام باب غرفتها قبل أن أدخل إليها . ما كانت بي رغبة في الذهاب نحوها . وعندما دخلت أخيراً لم أستطع أن أنظر في عينيها باستقامة ، إذ كنت أشعر بجريرة الكذب تجاهها : ما كنت أريد أن أقبل يدها ، ومع ذلك قبلتها .

كان المفروض في هذه القبلة أن تعبر عن احترامي وحبي لها باعتبارها والدتي ، ولكنني كنت أعرف حق المعرفة أني لم أعد أحبها منذ ذلك الحين . وعلى أية حال فاني أشك في أنني قد أحببتها حقاً من قبل ، ولكني كنت أحترمها ، ولعل السبب في ذلك أني كنت أخشاها .

إن النساء اللاتي ينوين التمتع بالحياة ، دون أن يرتبطن بأي شيء مطلقاً ، ينبغي لهن أن يدمرن أطفالهن وهم في أحشائهن ، منذ اللحظات الأولى لوجودهم ، وإلا فمن العار حتى بالنسبة إلى المرأة ، بعد أن تنتزع من الحياة أزاهير اللذة ، أن تدفع للحياة ما لها عليها من دين ... (١)

ووصلت أمي . إنها لم تعد تلك القطعة من الجمال التي بارحتنا ، العام السابق ، إلى موسكو . كان محياها شاحباً ، وثمة شيء ضائع مفعم بالشكوى يطل من عينيها . سررت لرؤيتها ، الأمر الذي لم أدرِ له سبباً . أما هي فقد ابتسمت لي في حنان ، قائلة إن لي مظهراً ينبيء عن صحة جيدة ، وإني قد كبرت . أما جدي فقال إني شقي عنيد . ولكن ذلك لم يكن صحيحاً ، فاحتججنا ، جدتي وأنا ، على ذلك . فابتسمت أمي لي من جديد في صمت . وكان أبي الجديد غاضباً ، فجلس في إحدى الزوايا ، وحيداً ، لا يعير إنساناً أدنى انتباه . ظللت أرجى ، فترة من الوقت ، أن يكونوا قد حملوا لي هدية ما ، ولكن آمالي قد آلت إلى المصير المرير الذي تنتهي إليه معظم الآمال الانسانية .

بعد ذلك ، أمروني أن أغادر المكان ، ففعلت ذلك ، وسمعت من الحديقة ضوضاء أصوات غاضبة ، يعلو عليها جميعاً صوت أمي الذي ينبعث من صدرها . ولقد علت مثل تلك الضوضاء العنيفة الصاخبة في الغداة ، وفي اليوم الذي أعقب الغداة ، إلخ ...

---

(١) بمخلوق أو مخلوقين شبيهين بي . (محذوفة في المخطوط .)

وبعد فترة وجيزة من الزمن ذهبت أمي وزوجها إلى سورموفو ، فبقيت عند جدي من جديد . إني لعلى أحسن حال ، فجدي مريض ، وجدتي تسكر ، وأنا أفعل ما يحلو لي طوال أيام عديدة . لم يك لي رفاق في ذلك الحين ، فقد كنت مضطرب المزاج إذن ، كثير الثورة ، لا أوحي بالثقة أو العطف . ثم إن الأطفال الذين في مثل سني كانوا يخافون مني ، الأمر الذي لم أجد له مبرراً .

قف !

أديل ، أنت التي تسيئين على الدوام تفسير كلامي ! إن أنفك الطويل الذي مطته السلطات والآراء المصنوعة ، والعادات والأوهام ؛ أنفك البائس الذي يشم في عبودية نظرات المفكرين الكبار ؛ أنفك المحزن الذي كثيراً ما يقودك منه مشعوذون مختلفون ، هذا الأنف المسطح بصورة تلفت الأنظار دائماً ، عندما تحكم على محيطك ، إن هذا الأنف يعطس بعنف وصورة مباغتة ، وكان لا يعطس قط بعدالة .

إيه ، يا أديل ! يا أديل ! لقد كان زمن لم يك فيه حبي الطاهر لك رثاء أو احتقاراً ، لقد كان زمن كنت أظن فيه ، أنا الأحمق ، أنك تحتلين مكانك ليس في القبيح والصغير فحسب ، بل في الجميل والسامي . أواه ! يا أديل ! أية حرارة أحسست بها عندما اقتنعت بأنك لا تشرفين الجميل والسامي عندما تشاركين فيه .

وعلى أية حال ، فليس لذلك أدنى علاقة بالموضوع ، يا أديل ، ليس له أية علاقة ، فسوف أصفي حساباتي معك في مكان آخر .

لقد ابتعدت عن موضوعي للسبب التالي : يا أديل ، يا صديقتي الكلية الفضيلة ، إني لأراهن على أن الصراحة التي أكتب بها تصير معك ، وأنك قد سبق بكل تأكيد ففعلتِ قصتي بما لا يقل عن الصفاقة ، الأمر الذي ـ ولأقل ذلك بين

قوسين ـ لا أحزن له ما دمت أعرف أنك ، أنت المسطحة ، تسمين حسب مزاجك الصفاقة إقداماً والعكس بالعكس ؛ تسمين الاخلاص خداعاً والعكس بالعكس؛ تسمين الشجاعة جنوناً والعكس بالعكس ، إلخ . أنت لا تملكين لغة ، وإنك لفقيرة الذكاء . أنت ، يا عزيزتي ، مجردة عن الشخصية ، يا عزيزتي أديل ، وليغفر لك روح قدس الحياة والحس السليم خطاياك العرضية ، وخطاياك الحقيقية ، وخطاياك المميتة ، كما غفرتها لك ! ... أقول إذن إني أراهن على أنك قد غضبت بسبب نقص الاحترام الذي أظهره تجاه ظل والدتي المقدس ؛ ولكني ، يا أديل ، أقول لك ذلك بكل صراحة ، وبصورة نهائية : إني إنما أنحني أمام الفكر ؛ وبالنسبة إلى الفكر ليس شيء مقدس ، لأنه هو نفسه قديس القديسين ، لأنه هو الله نفسه !

وما يهم ليس بالآباء أو الأمهات ، ما يهم هم البشر ، البشر جميعاً ، يعني أنت ، أيتها العبدة الشقية التي تتقاذفها الرياح .

. . .

ترجمة حياة

كانت ترتدي ثوباً أسود فاحماً ، وسترة من المخمل الأسود مزينــــة بفراء أبيض ، وتغطي رأسها بقبعة عريضة داكنة ذات شُرُط كثيرة وريشة بيضاء كبيرة . أنت ترين ، يا عزيزتي ، أني لا أزدري الجمال الذي تضعه المصادفة في طريقي ، وأني أحتفظ بذكراه حتى في أدقّ تفاصيله . هذه السيدة الصغيرة قـد كانت السابقة لك ، وهذا ما يقفز إلى العينين بكل وضوح . . . وكان فيها شيء آخر حسن ، ألا وهو أنها ذهبت في الحال ؛ وهكذا فإن ما أعطتنيه قد ظلّ طاهراً سليماً إلى الأبد .. لربما ترين في ذلك إشارة ذات مغزى ، نية خاصة من قبلي . إنك إذن لتخطئين . أنا أحبك ، وأنت تعرفين ذلك . بَيْدَ أن الأمور كانت تكون رائعة لو أن الرغبة في إخصاب التربة هي التي كانت تدفع الناس إلى الزرع ، لا الرغبة في جني الحصاد ! هذا ما كنت أريد أن أقول ، وأنا أعرف أنه سخف وبطلان ، كأنه يمكن أن يراودنا الظن في إخلاص كائن إنساني وأن نؤمن به !

ويتلو ذلك عودتي إلى أحضان عائلة معلمي» .

– هل شفيت ؟

كان السؤال ذا إنسانية خاصة تماماً بالمعلمين .

وأعقب ذلك سؤال ساخر متوعد :

– أنت لن تعود إلى قراءة الكتيبات ، ما ؟

وهكذا ينتهي الاستقبال ، فيبدأ من جديد سلسلة كاملة من الفظائع الأكثر رتابة ، فظائع تحمل هذا الاسم : « تثقيف يتيم بعيد عن أهله . »

لكني عدت أقرأ الكتيبات وأسرق المال كي أشتري الكتيبات ، وانتهيت أخيراً إلى افتضاح أمري في مكان جريمتي بالضبط ، وفي يدي قطعة من ذات الخمسة عشر كوبيكاً سرقتها من أحد الجيوب ورحت أشدّ عليها بقوّة بين أصابعي . وأعقب ذلك تحقيق صارم ، الغاية منه إلقاء النور على مختلف الأحداث . . ولقد دفعتني الرغبة في إثارة قضاتي أكثر فأكثر ، فاعترفت بسائر الذنوب التي لم تراودهم بها أدنى ريبة حتى ذلك الحين .. ورأيتني بطلاً ، فرحت أكشف اللثام، بصورة دقيقة مفصّلة ، عن أساليبي في زيارة الجيوب ، ساكتاً في الوقت ذاته عن هذه الحقيقة ، ألا وهي مساعدة جدتي بقسم كبير من نتاج سرقاتي .. وتلقيت جلدة الغاية منها الانذار ، مع الوعد بجلدة عامة بحضور رجلين من رجال الأطفاء عند قدوم جدي .

ويهبط الليل ..

تلك إحدى ليالي الربيع الرائعة ، التي تنفخ القلب منك بالشوق إلى الحرية . كنت أتأمل السماء من وراء نافذة المطهى : إن كل شيء ، هناك عالياً ، جميل ، طاهر ، كئيب ، كما هي الحال دائماً في سائر ليالي الربيع ؛ أبداً لم يكن ليل عذب بمثل هذه الروعة ، يموج بالوعود بمثل هذا الثراء . ولذا فقد فتحت النافذة ، وتسلقت السطح ، وتركت النافذة مفتوحة ثم هبطت عن طريق السطح إلى باحة الجيران حيث كنت أدري أن البوابة لا تغلق ليلاً . خرجت إلى الطريق ، واتخذت سمت الحقول : ليس ثمة مكان أكثر ملائمة للتأمل . . . لكنني لم أجد ،

تلك الليلة ، موضوعاً جديراً بالتفكير ، فتمددت على الأرض بكل بساطة ، ورحت أنظر إلى مصابيح الدجى تشتعل وهي ترمي الشرر ... حتى أغفيت أخيراً .

أيقظتني الشمس إذ ألهبت وجهي . فكرت أنه ينبغي لي الذهاب إلى جدي، سوى أنني تذكرت ما قال لي ، فغيرت رأيي ، فأنا أعرف فيه رجلاً لا يلقي الكلام جزافاً . أما العودة إلى المكان الذي فررت منه فلم تخطر لي على بال مطلقاً . وهكذا نهضت وانطلقت...

لست أدري لماذا سلكت طريق الأرصفة ؛ ولقـــد توقفت هناك أرنو إلى مركب بخاري يتأهب للابحار . وأحسست رغبة في الطعام . ومرّ رجل يرتدي سترة بيضاء وكُمَّةً عالية : إنه طباخ ، يحمل بيده سلة ملأى بكومة من الأرغفة الصغيرة . ـ يا سيدي ، أعطني منها رغيفاً ! فصاح الآخر : إذهب في سبيلك ! ثم أضاف : انتظر لحظة ، تعال معي ! أخافني هذا التبدّل غير المنتظر ، خاصة أن الطاهي يقصد المركب المتأهب للرحيل . انتزعت نفسي من يده . ـ تعال ، أيها الحيوان ، لا تخف ! سوف أعطيك كثيراً من الطعام بحيث تتخم حتى آخر حياتك . ولقد قال ذلك بأسلوب لطيف جداً ومُطَمْئِنٍ كثيراً بحيث تلاشى ذعري بأسره ؛ وهكذا تبعته خطوة خطوة . ووصلنا إلى المطبخ المصنوع كله من حديد . . . كان الموقد أحمر كالجمر ، وكان الجو عابقاً برائحة لذيذة طيبة ، حاراً كما في فرن . ـ كُلْ وأصغِ إليَّ . أعطاني خبزاً ولحم دجاج بارد ، فأكلت وأصغيت . ـ أتريد أن تكون غسّال صحون ؟ ولما كان فمي مليئاً ، فقد قلت نعم برأسي . ولم تمض ساعة حتى كان العرق يتصبَّب مني ، وأنا أغسل الصحون في حمية : كنت أتخبَّط ، وأجفف أنفي بكم قميصي ، وأرسل المـــاء يمنة ويسرة ، وأجعل القذارة فيما حولي بمختلف الوسائل الممكنة التي يخطر للخيال أن

يتصوّرها : وهـذا ما يعني ، إذا أخذناه جمـلة ، « أن يكون المرء غسّال صحون . »

لذّت لي هذه الحياة الفاعلة ، الغنية بالانطباعات الملوّنة ، حيث تتبدل الوجوه والمناظر دون انقطاع . ولقـد كان الطباخون والخدم ، بطبيعة الحال ، قذرين ، أفظاظاً ، سخفاء ؛ ولكنهم كانوا يحبونني ، وهذا هو السبب ، بكل تأكيد ، في أنني كنت أحبهم أيضاً . كان يوم العمل يبـدأ في السادسة صباحاً ، ويغلي دون هوادة حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساء . وبعـد ذلك كنت حراً من كل عمل ؛ وعندئذ كان يبـدأ شيء عظيم رائع بصورة تفوق الوصف . كنت أخرج بعد أن أنظف المطبخ إلى مقدمة المركب ، وحيداً في بعض الأحيان ، مصحوباً بأولئك الطهاة والخدم في معظم الأوقات ؛ وكنا نهيىء الشاي ، وكنا نعدّ الطاولة ، ونظل طويلاً جلوساً نثرثر . كان الحديث يدور عن قضايا الحياة ، وعن أعمال غريبة تثير تكشيرات المتحدثين وتعجباتهم المدهوشة .. كانت تُروى هناك قصص غريبة لا تفسير لها ، خيالية أو واقعية ؛ وكانت تُروى حكايات في بعض الأحيان ؛ وبمقدار ما كان الليل يتقـدم ، كان الحديث يفقـد صفته الفظة الوحشية كي يتخذ سمة إنسانية طاهرة . وكان السبب في ذلك أن القمر كان يغمر النهر على الدوام بنورٍ حنون ملاطف بصورة رائعة ، وأن النهر كان يهدر متفكراً فاتناً تحت دواليب المركب البخاري ، ثم يتطاير على الضفاف المرتفعة بضجيج عذب يبعث على الهدوء ، وأن هـــذه الضفاف كانت تؤلف سلسلة لا متناهية من قصائد ذات جمال لا يوصف تحمل على التفكير وعلى الاحساس بصورة أعمق وأنقى ، وبجمال أعظم .

كان الحرس العجوز بوتاب أندرييف ، رئيسنا ، يغرق في تأمل اللوحات

المتلاحقة على طول المركب ، مغطاة بسماء طاهرة نقيـة ، ومغمورة بفضة القمر المزرقة ، ويتنهد أثناء ذلك قائلاً :

— نحن جميعاً خطاة !

فيتنهَّد الجميع ويؤكدون هذا الغرض الذي لا يحتمل النقاش برواية بعض أحداث حياتهم تارة ، أو بالاشارة إلى أشياء قد سمعوها تتناقل على ألسنة الناس تارة أخرى . وكان في هذه الروايات ، وفي لهجتهم ذاتها ، شيءٌ كثير من الحرارة ، والحمية ، والجمال ، والطيبة ، بحيث كانوا يعلمونني كيف أفهم البشر وأحبهم . وكانت هذه الاعترافات العلنية حيث كانوا يقضون ، وهم مجرَّدون تماماً عن كل محبـة ذاتية ، هـذا الحادث أو ذاك من أفعالهم السيئة ، كانت هـذه الاعترافات توضح بصورة جليَّة بسيطة — كما لا يستطيع خمسمائة مجلد أن يفعل ذلك — أن الانسان جيـد رغم كل شيء ، وأنه إذا كان دنساً دنيئاً فتلك ليست خطيئته بكل تأكيد — بل إن كائناً ما أو شيئاً ما يريده أن يكون هكذا ؛ لقـد كانت تلك الاعترافات تُشعر بأن الانسان أبله أكثر منه يعمر بالخبث .

وكنت أحياناً أروي ، أنا الآخر ، قصة مأخوذة من مطالعاتي ؛ عندئـذ كان بوتاب يجلسني على ركبتيه ، ويتأملني طويلاً ، ويقول عندما أخلص من رواية قصتي :

— لسوف تكون فتى غير عادي ، يا لولو ، هذا أمر لا ريب فيه ! عندما ننتهي من رحلتنا ، سوف أقول للمعلم أن يضمك إلى المطهى بصورة نهائية . وبانتظار ذلك ، إذهب ونل بعض الراحة !

لكنني ما كنت أريد أن أنام ، وأظلّ على مقدمة السفينة أنظر إلى الرسوم الخيالية التي تقع على الضفاف المغطاة بالأشجار والأشواك ، وأمواج الفولجا العذبة العاتية التي تذوب في مرآة وحيدة عريضة ملساء ، تعكس بسذاجة السماء الزرقاء

اللا متناهية العمق ، المزروعة بلطخ صغيرة من نار النجوم ؛ وكل ما كان المرء يرغب أن يراه . وكنت أملأ الفراغ بلوحات حياتي المقبلة : لقد كانت هذه الحياة متواضعة على الدوام ، مصنوعة بكليتها من أفعال مثلي . كنت أتيه تارة من مكان إلى مكان ، أمدّ يد المعونة إلى الجميع ، معلماً القراءة والكتابة وأشياء أخرى أيضاً . إن الجميع يحبونني ويدللونني ، والجميع يعتبرونني في كل مكان قريباً لهم،والجميع قريبون مني أعزاء عليّ . أواه ! لشدّ ما سيعيش الناس بغباء وسعادة في الموسيقى العذبة المنتشرة من الطبيعة ،الممتزجة بهمس الأمواج ، والأحلام المتناسقة الصبيانية الطهر ، وأشياء أخرى عديدة تغيب عني الآن ، ولن أحسّ بها أبداً بعد اليوم . وكان ثمة حزن أيضاً ، لكننا نستطيع ، هذه المرة ، أن نضعه جانباً، نستطيع ألا نتذكره ، وذلك لن يفسد شيئاً .

في نهاية رحلتي الأولى ، أبلغت جدتي أخباري خفية ، وأرسلت لها ثلاثة روبلات ، وهي المال الأول الذي اكتسبته ؛ وبعد ذلك عاودت السفر حتى منتصف الخريف . ورحلة أخيرة أخيراً ، وهذا أنا أهبط إلى الضفة وفي قلبي إحساس كئيب ، إذ لا أدري أين أوجه خطاي ، وفي جيبي سبعة وعشرون روبلاً . وذهبت إلى جدي : « أها ، هذا أنت ،أيها الأفاق ! طاب يومك ! طاب يومك ! » كانت سحنته رديئة ، فهو على استعداد ـ كنت أعرف ذلك ـ لجلدي . لكن خمسة أو ستة شهور قضيتها بعيداً عن متناول مقرعته قد خففت الخوف الذي كان يبعثه فيّ وطورت استقلالي ، كما أن السبعة والعشرين روبلاً كانت تضيف إلى ذلك كله الشعور بامكانيتي على تدبير أموري لوحدي . وإذ قررت أن أظل ثابتاً وألا أسمح باستعمال العنف معي ، فقد رميت خرجي بكل برود في إحدى الزوايا ، وقلت بشجاعة : « طاب يومك ! » ، وأخرجت من جيبي لفافة ، بشجاعة مماثلة ، وشرعت أدخن .

لجمت الدهشة لسانه ، فجلس على مقعد قبالتي ، جاحظ العينين فاغر الفم . مرحى ! وبنيت عزمي على الاستمرار بالروح ذاتها ، فسألته بين نفسين كم يأخذ مني شهرياً لقاء إقامتي عنده . وكان حسابي صحيحاً ، فقد تغلب جشعه على الاحساس المرير بسلطته وقوته الضائعتين .

وعندما وصلت جدتي ، كنا جالسين إلى جانب بعضنا بعضاً ، نثرثر بتأن ولطف .

وبعد خمسة عشر يوماً دخلت إلى معمل الأيقونات سالابانوف ، دون أجر ، بصفة أجير . كان السكيرون المزمنون والفتيان الشجعان الذين يعدون اثني عشر شخصاً ، والذين كانوا يرسمون هنـــاك وجه الله وقديسيه ، وهم جميعاً مغاوير لا يعرفون معنى القياس في سائر أفعالهم ، مقربين كثيراً إليّ ، كما كنت أنا الآخر حبيباً إليهم . وعندما كان العمل ينتهي ، كنا ننطلق إلى الحانة ننشد الأغاني ونشرب الخمر ، وكنا نغني ونشرب هكذا حتى ساعة متأخرة من الليل .

وبعد شهرين أخذوني في دكان ، على اعتباري أجيراً أيضاً . وقد كان سلوك رئيسي معي ، وهو رجل دنيء بكل معنى الكلمة يدعى البائع س . س . ، طافحاً عطفاً وإنسانية بادىء ذي بدء . بل لقد اكتتب في المكتبة بناء على نصيحتي ونزولاً عند طلبي ، وكان يقرأ معي روايات سالباس ، ومور دوفتسيف ، ودي تراي ، منذهلاً بسبب تفهمي للكتب ومعرفتي العميقة بها . ولكنني عندما أشرت له ذات يوم أن سرقة معلمته ، وهي عجوز ضعيفة مدمنة على الشراب تحبه كثيراً ، عمل لا يليق ، انتابه الخوف من دون ريب من إخباري إياها بمآثره ، فمنح علاقاته بي صفة أكثر رسمية وأقرب إلى الطبيعة بين بائع من جهة ، وأجير من جهة أخرى . وفي الحقيقة أني قدمت إليه تلك الملاحظة لا لاقتناعي بأن السرقة جريمة ، بل لأن مثل تلك المآثر لا تتصل من قريب أو بعيد بالأعمال النبيلة التي يقوم بها السادة

أتوس وبورتوس وأراميس ، والملك هنري الرابع ، وأبطال الروايات الآخرون ، هؤلاء الذين كنا نفكر بصورة مشتركة أن كل حياة إنسانية يجب أن تتشبه بحياتهم . وبعد إقامة خمسة شهور ، فيما يتراءى لي، في ذلك الدكان ، تخاصمت معه ، وتلقيت منه صفعة فيها شيء كثير من الجبن بصورة خاصة ، وجهها إليّ في شيء كثير من الدناءة والتردد . وقد حطمت له وجهه مقابل ذلك، وبسبب ذلك طردت من العمل . ولقد ودعني المعمل ، حيث كانوا يحبونني كثيراً ، بحرارة وصداقة عظيمتين ، فاتخذت عملاً على ظهر أحد المراكب من جديد . وتلك كانت خمسة أو ستة شهور جديدة من حياة حرة سعيدة ، رغم العمل الكثير ، القذر المتعب . لكنني كنت متين البنية ، وما كان العمل يكلفني كثيراً ؛ وفي نهاية العمل كان شيء رائع الحسن ينتظرني، ألا وهي القراءة وأحاديث البحارة ومستخدمي المقصف وتأمل جمالات الفولجا . وكانت مطالعاتي تتغذى بما أشتريه في السوق من كتب : تلك كانت على الدوام روايات ممتازة تصف حباً رائعاً أو مآثر نبيلة ، مجردة بصورة مستمرة عن كل غاية ، مفعمة بنكران الذات والاخلاص المثاليين. وما كانت تعطي عن الحياة أدنى فكرة ، لكن ذلك ما كان يُنتظر منها على أية حال ، ما دمنا نحن المستمعين نعرف الحياة سلفاً معرفة تامة بدون معونة الكتب . وأنا الآخر كنت أعرفها أفضل من أي شخص آخر في مثل سني . وكان قلبي ينقبض أحياناً بصورة شديدة الايلام فأحس كثيراً من القرف والحزن ، بحيث أظل طويلاً دون أن يستطيع شيء ما وضع حد لهذا الألم ، ويمتص دمي طوال أيام وليالٍ برمتها . وكيف لا ! لقد كنت ألقى لدى كل خطوة أناساً يختلفون كل الاختلاف عن أولئك الذين يأتون على ذكرهم في الكتب حيث الأوغاد أنفسهم طاهرون ، فهم شرفاء إنسانيون بصورة وغدة ؛ بينما ههنا « الأناس الطيبون » أنفسهم أشد فظاظة ودناءة وقذارة منهم في كل شيء وأسوأ . عندما كانوا يتحدثون

عن سلوك بطل ما من أبطالي ، وهو إنسان طاهر النفس كطلّ الصباح ، فكثيراً ما كان يحدث أن يقطع مستمعي الأعزاء النقاش في ملئه ، وقد أسرتهم هنية قذرة خليعة تدفعهم إلى بذر نكاتهم بغزارة ، وإلى الاكثار من الابتسامات البطرة ، أو أنهم كانوا ينتقلون إلى لعب الورق لدى أول اقتراح يدعو إلى ذلك . ولقد كانت التفاصيل القذرة تبعث فيّ الاشمئزاز في ذلك الحين لسببٍ ما كنت أستطيع أن أفهمه ، كما أني ما كنت أحب الورق لأن الناس يتخاصمون على الدوام عندما يلعبون به . وأواه ! كم كنت أفقد الايمان سريعاً بطيبة الانسان وطهره لو لم أكن أرجى وجود عالم من أمثال آتوس ، وبورتوس ، ودارتانيان ، وآخرين ، فيما وراء هذا العالم ! أضف إلى ذلك تلك الطبيعة الحارة المذبة البعيدة عن كل غاية ، هذه الطبيعة التي كانت تدفعني إلى التقرب من الناس ، ولكنها لم تجد بعد الوقت الكافي كي تعلمني كيف أنظر في قلبهم في شيء أكثر من العمق : وهكذا فقد كانت تزداد ارتفاعاً على الدوام في نظري على حساب الانسان . وكان ثمة لحظات - إني أذكر ذلك - حيث كان شعور غريب يجتاحني : كنت أرغب إذن ، بهدوء وبرود ، في إلقاء الاضطراب والقلق في قلوب سائر أولئك الذين يقع عليهم بصري ، في إلقاء القلق في قلوبهم حتى يذرفوا الدموع ! لمه ؟ ما كنت أستطيع بكل تأكيد أن أوضح ذلك . لكن ذلك كان يمضي سريعاً ، تاركاً المكان لفضول لاهب يملؤني رغبة في معرفة لماذا ؟ لأية غاية ؟ كيف ؟ وكان البحارة يقولون ، عندما أقذفهم بالأسئلة قذفاً : « يا له من صبي حاذق ، لولو هذا ! أية حاجة بك إلى معرفة كل شيء ؟ هيا ، أسرع من هنا » . وهكذا كانوا يحملونني على التزام الصمت عندما كنت أغامر بعيداً خارج حدود مقامي الخاص .

أية حاجة كانت تمسني إلى ذلك ، هذا ما كنت أجهله طبعاً ؛ أما أن ذلك كان ضرورياً بالنسبة إلي ، فهذا ما كنت أحسه بصورة عميقة . كانوا يهنئونني ،

وكثيراً ما كانوا يعجبون بخصالي ، ولربما كانوا يفعلون ذلك أكثر مما أستحق. ومن المعلوم أن حس القياس غير متطور كثيراً عند البشر ، فهم يتجاوزون الحدود دائماً رغم ضيق أفقهم . ولا أستطيع السكوت عن هـذه الحقيقة ، ألا وهي أن هذه المدائح كانت تدخل من أذني الواحدة كي تخرج من الأذن الأخرى ، وأن قلبي ما كان يسبح مطلقاً في عبيق عبادة الذات : إن الأوقات التي كنت أرضى فيها عن نفسي كانت مقتضبة كثيراً دائماً ، فهي سرعان ما تضيع في كتلة الاغراءات القادمة من العالم الخارجي أو المولودة في باطني . كنت أجهد كي أنفذ إلى لب الأشياء ، وأوضحها ، وأحللها ، فأحسني صبياً صغيراً صغيراً ، ضعيفاً ، مقدراً له أن تسحقه الحياة عما قريب إذا لم يسرع فيتعلم بعض الأشياء ، ويتدبر لنفسه نقطة استناد . وإذ كنت أتطلع فيما حولي وألقي نظرة على المستقبل ، فقـد كنت أتحقق من أنني لا أستطيع أن آمل العون من أية جهـة كانت ، وأحس لست أدري أي إحساس كثير المرارة شديد الايلام . كنت أفكر : كم في العالم من طلاب وعلماء آخرين لا يرغبون مطلقاً أن يكونوا ما هم عليه . . . وأنا الذي أريد ذلك لا أجد الوقت ولا ...(١)

كانت الأيام تمضي ، والليالي تنساب بهدوء ، وأنا أعمل ، سابحاً في العرق قذراً على الدوام ، وكنت أفكر ، أفكر . ولكن هـذا ما كان يفيد شيئاً . كان ذلك يؤدي بي إلى ذرف الدموع التي كنت أخفيها بعناية ، والتي كانت تولد فيّ مزاجاً كئيباً متوحشاً يدفعني إلى الفرار من معاشرة الناس . لكنني ما كنت أفر منهم ، وما كنت أفسد شهرتي كفتىً مرح كثير الحيوية ، شاعراً بغموض أني لا أتصرف بصورة سيئة إذا كنت أحمل نفسي محمل العنف . كان لا بدّ لي

---

(١) مخطوط جوركي ممزق في هذا المكان .

من الكذب كثيراً ومن التظاهر كثيراً . كنت أنظر بملء عينيّ ، وأنتظر عوناً . ولكن عينيّ كانتا تريان ، بدلاً من هذا العون ، الفقاعات العكرة ، فقاعات العلاقات السيئة تنبثق أمامها وتقترح علي ، بصورة عنيدة مزعجة ، أن أفك رموزها حتى في أدق تفاصيلها . وكان عددها لا يني يتزايد ويذهلني بمراءاته ، وسطحيته الخداعة أو خداعه الساذج . كنت أشاهد حوادث تبعث على الدهشة . مثال ذلك أن السيد رقم ١ الذي كان يشرب قبل ساعة واحدة ، بصداقة تامة ، زجاجة فودكا مع السيد رقم ٢ ، يقول للرقم ٣ أن الرقم ٢ حيوان نذل ؛ أما الرقم ٢ فيحدث بود الرقم ٤ أن الرقم ١ خبيث دنيء ، وأنه من الحسن أن يدهوره المرء في سبيل مجد الله وتقدم العلم . ويخبر الرقم ٤ الرقم ١ بذلك كي يحذره ، وإذ يتلقى المكافأة التي يستأهل يتفق مع الرقم ٣ كي يهاجما معاً هذا الرقم ١ نفسه - وإن الأرقام ٥ ، ٦ ، ١ ، ١٠١ - لا يفعلون جميعاً سوى التفكير في أفضل وسيلة كي يدهوروا بعضهم بعضاً بكل تقوى . إنهم يكذبون ويتصنعون إن بدافع الضرورة - يعني في سبيل النجاح ، أو بصورة مجردة عن كل غاية ، باسم العلم والتكنيك ، أو بنية خدمة الفن الخالص ، فن الكذب والتصنع بكل تجرد ونكران ذات ، أو أخيراً دون أدنى سبب ظاهر . وطبيعي أن ثمة حالات من الصداقة الخالصة ، ونكران الذات ، والمساعدة المتبادلة . كنت أرى الكثير منها ، وبعضها ما برح حتى اليوم طاهراً نقياً . ولكن معظم الأفعال الحسنة ، إذا درسناها عن قرب ، باتت أسوأ من الأفعال الرديئة .. فاما أن الناس يفاخرون بها بصورة مباشرة ، وإما أن نقطة انطلاقها هي الرغبة في اكتساب مديح الناس . وعندما كان المرء يفاخر بها ، فانه ينظر إذن إلى الناس من علٍ ، بينما الناس الذين يحبذون ذلك بصوت مرتفع يسخرون بينهم وبين أنفسهم ، ويغضبون ، ويظهرون بألف وسيلة ووسيلة استقلالهم بالنسبة إلى التأثير النافع

الذي يتحلى به العمل الجيـد . وطبيعي أني كنت أفهم كل ذلك بالأحرى مني أحسه . ولقد كان ذلك يثقل علي بكل تأكيد ، ويغرقني في الحزن والكآبة ؛ وكنت أثور أحياناً ، وفي أحيان أخرى أفكر في الانتحار ، فأنظر في كل حدب وصوب ، آملاً في أعماق قلبي أن أجد إيضاحاً ، أنظر بنهم كي أجد إن كان لا يأتي ، ذلك الذي سيعطيني نقاط الاستناد الضرورية للحياة .

وانتهت الملاحة . لقد أنهيت حساباتي ، وهذا أسبوع قد مضى وأنا أقيم عند جدي باحثاً عن عمل . كانت حالتي ، في ذلك الحين ، سيئة بصورة خاصة . كنت قد عدت من رحلتي بقليل من المال ، وكان جدي يحثني على تخليصه من حملي . وذات مرة ، وقد ملك الغضب عليه منازعه ، نصحني بكل صراحه أن أذهب ، ولو إلى الشيطان مثلاً . بقيت حالماً ، وخرجت إلى الدهليز الذي يفصل ...

. . .

اميليان بيلاي

— كل ما تبقى لنا هو الذهاب إلى المالح ! إنما الملح كابٌ كبيرٌ مستكاب ، ورغم ذلك لا بدَّ من العمل به ، لأننا نتعرَّض ، يا إميليان ، للموت جوعاً .

وبعد أن قال صديقي إميليان بيلاي هذا ، أخرج كيس تبغه من جيبه للمرة العاشرة ، وإذ تأكد من فراغه كالأمس تنهَّد ، وبصق ، وانقلب على ظهره ، وشرع يصفر وينظر إلى السماء المقفرة من الغيوم ، التي كانت تنفخ على الأرض هواء لاهباً . كنا نتمدد نحن الاثنين ، وبطننا خاوٍ ، على لسان من الرمال يبعد قرابة ثلاثة فراسخ عن أوديسا التي غادرناها لأننا لم نجد فيها عملاً . تمدّد إميليان على الرمال ، ورأسه متجه صوب السهب وقدماه إلى البحر ، فالأمواج التي تركض على طول الشاطىء وتتكسر بتراخٍ عليه تغسل قدميه العاريتين القذرتين . كان يطرف بعينيه بسببٍ من الشمس ، وهو يتمطى تارة مثل السنور ، وينزلق تارة أخرى أكثر فأكثر نحو البحر ، فيغمره الموج عندئذ حتى كتفيه تقريباً . وكان ذلك يلذّ له .

نظرت جهـــة الأرصفة حيث ترتفع غابة من الصواري ، مغطاة بأوشحة حلزونية ثقيـلة من الدخان الرمادي الأسود . كانت ضوضاء صماء مصنوعة من

سلاسل المراسي وصفير القاطرات تدفّ من هناك ، حيث لم يقع بصري على شيء يبعث فينا الرجاء المنطفئ في كسب خبزنا . قلت لاميليان ، وأنا أنهض على قدمي:

— إذن ماذا ؟ أنذهب إلى المالح ؟

فقال وهو يشدّ على الكلمات ، دون أن يتطلع إليّ :

— حسناً ، إذهب ! ... أنت الذي ستدبر الأمور ؟

— سوف نرى هناك !

فعاد إميليان يقول ، دون أن يحرك ساكناً :

— إذن ، بكلام آخر ، سنذهب ؟

— ولكن ، بكل تأكيد !

— آهٍ ! آهٍ ! يا للشيطان ، إن ذلك لكثير . . . فلنذهب ! وأوديسا اللعينة هذه ، فلتبتلعها الأبالسة ! لسوف تظلّ حيث هي الآن . مينـــاء بحري ! ألا فلتبتلعها الأرض !

— حسناً ، إنهض ، ولنمشِ ، فالكفر لن ينفع شيئاً .

— أيان تذهب ؟ إلى المالح ، ما ؟ ... حسناً . سوى أنك ترى ، يا أخيّ، أن في مقدورنا الذهاب دائماً إلى هذه المملحة ، وهذا أيضاً لن يؤدي إلى أي شيء .

— لكنك أنت الذي قلت إنه ينبغي لنا الذهاب إلى هناك .

— هذا صحيح ، فقد قلت ذلك . أما أني قلت ذلك ، فقد قلته ، لقد قلته ، ولن أنكر كلامي . غير أن هذا لن ينفع شيئاً ، وهذا صحيح أيضاً .

— ولماذا ؟

— لماذا ؟ أتحسب أنت أنهم ينتظروننا هناك : من فضلكما ، أيها السيدان إميليان ومكسيم ، الرجاء إليكما أن تحطا عظامكما ، وتأخذا قروشنا ! ... ولكن

لا ، فالأمور لن تحدث على هذا المنوال ! أما القضية فسوف أقول لك حقيقتها : في الوقت الراهن نحن ، أنت وأنا ، سبيّدا جلدنا بكل معنى الكلمة ...

— لا بأس ! يكفي ! هيا بنا !

— انتظر ! يتحتم علينا أن نذهب إلى حضرة مدير هـــذه المملحة الشهيرة ونقول له ونحن نقدم احترامنا كله : « أيها السيد ، يا أيها القرصان وشارب الدماء الكلي الاحترام ، لقد جئنا إلى هنا لفرض جلدنا على جشعك ، سائلين إياك إن كنت تتفضل بذبحنا مقابل ستين كوبيكاً يومياً ! وإذ نقول هذا ... »

— إستمع إليّ ، إنهض ، ولنمشِ . سنكون مساء في المصايد ، ونقدم العون عند استخراج الشباك ، ولربما قدموا لنا العشاء مقابل ذلك .

— العشاء ؟ هذا صحيح ؛ سوف يقدمون لنا العشاء . إن الصيادين قوم طيبون ، هيا بنا ، فلننطلق ... ولكننا لن نجد معاً ، أيها الأخ العجوز ، شيئاً ذا بال . منذ ثمانية أيام والشؤم يلاحقنا ، ولن نستطيع سبيلاً إلى الخروج من هنا !

نهض ، وسائر أعضائه مبتلّة ، وتمطى ودفع يديه في جيبي سرواله الذي خاطه من كيسي طحين ، وفتش في قاع الجيبين ، وأخرج يديه فارغتين ، وحملها إلى وجهه وتطلع فيها بغضب وحنق :

— لا شيء ! ... منذ أربعة أيام وأنا أفتش ، ولا شيء دائماً ! هذه هي الحياة يا أخيّ !

مشينا على طول الشاطىء نتبادل ملاحظاتنا من حين لآخر . كانت أقدامنـا تغرق في الرمل الندي ، الممتزج بالأصداف الهادرة بصورة موسيقية تحت ضربات الأمواج الخفيفة . ومن وقت لآخر ، كنا نقع على أشياء قذفتها الأمواج : بعض الحيوانات البحرية الهلامية ، وأسماك صغيرة ، وقطع خشبية سود غريبة الشكل ، مشربة بالمياه . وكان نسيم لطيف رطب يهبّ من ناحية البحر ، فيلفنا برطوبته ،

ثم ينطلق صوب السهب ، مثيراً إعصارات صغيرة من غبار الرمال .

كان إميليان ضجراً ، وهو المرح عادة بصورة دائبة ؛ لحظت ذلك ، فحاولت أن أسليه :

— هيا ، يا ميميل ، إروِ لي قصة !

كنت أروي بكل طيبة خاطر ، يا أخي ، لكنني لم أعد أملك القوة على الامساك بالمصقة لأن . . البطن فارغ .. البطن عند الانسان هو الشيء الرئيسي، ومهما فتشت عن مسخ ، فانك لن تجد مسخاً قط بدون بطن ، أيها الشيطان ! لكنه عندما يكون البطن هادئاً ، فانك تستطيع أن تقول إن النفس حية أيضاً ؛ إن نقطة انطلاق كل عمل إنساني هو البطن ...

ولاذ بالصمت لحظة .

إيه ، أيها العجوز . لو أن البحر يرمي لي الآن ألف روبل ، طبّ ! سوف أفتح إذن في الحال حانة وأجعل منك أمين صندوق ، بينا أضع أنا سريراً تحت المقصف ، وأمدّ المصّ من البرميل حتى فمي بصورة مباشرة . وما أن تأخذني الرغبة في الشرب من ينابيع المرح والسرور حتى أصدر لك أمري : إفتح الحنفية ، يا مكسيم ! وقر – قر – قر ، إلى حلقي باستقامة . ألا فابلع ، يا ميميل . ذلك شيء رائـــع مقدس ، وحقِّ الشياطين ! وذلك الموجيك ، سيد الأرض السوداء ، هيا إذن ، انهبه ، واذبحه ، واقلب جلده ! لسوف يأتي كي يسكر : – أيها السيد إميليان بافليتش ، أعطني كأساً صغيرة على الحساب ! – إيه ؟ ممَّ ؟ على الحساب ؟ لن أعطي شيئاً على الحساب ! – أيها السيد إميليان بافليتش ، كن رحوماً ! – أبروقه ؟ لأريد ذلك ! جُرَّ العربة ، وسوف أعطيك كأساً صغيرة. ها – ها – ها ! لسوف أثقب له كرشه ، ذلك الشيطان الكبير البطن .

ـــ هيـا ، لشدّ ما يمكن أن تكون قاسياً ! أنظر إذن ، فهو يموت جوعاً ، الموجيك .

ـــ حقاً ؟ يموت جوعـــاً ! . . . وأنا ، أفلست أموت جوعـاً ؟ أنا ، يا صاح ، منذ يوم ولادتي أموت جوعاً ، ولكن هـذا لم يذكر في كتاب التعليم المسيحي . أجل ، إنه يموت جوعاً ، فلماذا ؟ أثمة حصاد رديء ؟ ولكن الحصاد الرديء في جمجمته قبل كل شيء ، ثم في الحقل ، أنا أقول لك ذلك ! لماذا لا يوجد في سائر الامبراطوريات الأخرى أي حصاد رديء ؟ ذلك أن الناس هناك لا يملكون رأساً كي يحكوا قفاهم ليس غير : هنـاك ، إنهم يفكرون ، وتلك هي القضية ! هناك ، ياصاح ، يستطيعون أن يؤجلوا المطر إلى الغد إذا لم يكن المطر ضرورياً هذا النهار . وينقلوا الشمس إلى مكان آخر إذا كانت تصب الكثير من لهبها في هذا المكان ! وعندنا ، أية تدابير يتخـذ الناس ؟ ولا تدبير ، يا صاح ! كلا ، ولكن فكر في ذلك ، كل هذا لغو وثرثرة ، ولكنني لو كنت أملك حقاً ألف روبل وحانة ، فذلك يكون إذن مشروعاً جدياً ...

لاذ بالصمت ، وأرسل يده كعادته تفتش عن علبة تبغه ، وأخرج هــذه العلبة ، وقلبها بين يديه ، وتفحصها ملياً ـ ثم رمى بها في البحر وهو يبصق قرفاً .

واختطفت الموجة العلبة القذرة ، وهمت أن تذهب بها بعيداً عن الشاطىء ، لكنها عادت بعد التفكير فألقت بها على الشاطىء .

ـــ ألا تأخذينها ؟ هذا غير صحيح ، فستأخذينها !

وأطبق على العلبة المبتلة ، ووضع حصاة في جوفها ، وألقـاها بقوة في جوف البحر .

فرحت أضحك .

ـــ قل لي ، ما الذي يحملك على إظهار أسنانك ؟ نحن بشر أيضاً ! هذا يقرأ

كتباً ، بل هذا يحمل الكتب معه ، لكن هذا لا يستطيع أن يفهم الكائن الانساني ! يا لك من شيطان بأربع عيون !

كان يعنيني بهذه الكلمات ، فأدركت من نعتي بالشيطان ذي الأربع عيون أنه مستاء ، حتى الدرجة القصوى إنه لا يسخر من نظارتي ! ليس في لحظات الغضب الحاد والحقد تجاه سائر الكائنات الحية . وكانت هذه الزينة غير الارادية تمنحني بصورة عامة كثيراً من الوزن والأهمية في عينيه بحيث لم يستطع أن يخاطبني في الأيام الأولى لتعارفنا إلا بصيغة الجمع وبلهجة مفعمة بالاحترام ! ومع ذلك فقد كنا نحن الاثنين ننقل الفحم على مركب بخاري روماني ، وكنت مثله أرتدي الأسمال البالية ، وتملأ الخدوش جسدي الذي صار أسود بلون إبليس.

سألته الصفح وأخذت أحدثه ، رغبة مني في تهدئة غضبه ، عن الامبرطوريات الأجنبية ، جاهداً أن أبرهن له أن معلوماته عن طريقة توجيه السحب والشمس ليست سوى أساطير لا حقيقة لها .

كان يقاطعني من حين لآخر :

ــ بدون هراء ! هكذا ! اتفقنا ! شه ، شه !

ولكني كنت أحس أن اهتمامه بالامبراطوريات الأجنبية والعادات المتبعة هناك ليس عظيماً كعهدي به : كان إميليان يصغي إليّ بشرود ، وأبصاره مثبتة بعناد أمامه في الشأو المغرّب .

قاطعني باشارة غامضة :

ــ الأمر كما تقول . لكن دعني أطرح سؤالاً عليك : إذا جاء إنسان لملاقاتنا في هذه اللحظة وهو يحمل مالاً ، يحمل كثيراً من المال (شدد إميليان على هذه الكلمة وهو يسترق نظرة من تحت نظارتي) فهل يمكن أن تكون قميناً ، افهمني جيداً ، أن تعطي شخصك الصغير كل ماينقصك ، هل يمكن أن تكون قميناً بقتله ؟

فأجبت :

— كلا ، بشكل تأكيد . ليس إنسان يملك الحق في شراء سعادته بثمن حياة الغير .

— يا لطيف ! أجل . . . هذا ما يقولونه بأحرف كبيرة في الكتب ، لكن ذلك لا يقاس سوى في سبيل راحة الوجدان . والحقيقة أن ذلك الرجل نفسه الذي اخترع هذه الكلمات ، لو وقع في الحاجة الحقيقية ، فيمكن أن تكون على يقين من أنه سيكتسب الفرصة الأولى كي يخنق جاره بدلاً من الموت جوعاً . الحق ؟ هذا هو ، الحق !

وارتسمت قبضة إميليان الثقيلة العصبية أمام أنفي .

— وإن الناس جميعاً يتوجهون بهذا الحق ، لكن الطريقة وحدها تختلف . هذا أيضاً ، أنه الحق ! ...

وانطوى إميليان على نفسه ، وأخفى عينيه في قاع محجريه تحت حاجبيه الطويلين الفاقدي اللون .

لجأت إلى الصمت ، فأنا أعرف بالتجربة أن لا فائدة من الجدال عندما يكون غاضباً .

ألقى في البحر قطعة من الخشب داس عليها ، وقال متنهداً :

— سندخن لفافة صغيرة ، على أية حال ...

ألقيت نظرة في السهب ، عن يميننا ، فرأيت راعيين مستلقيين على الأرض ينظران إلينا .

هتف إميليان بهما :

— مرحباً ، أيها السيدان . أثمة تبغ في جعبتكما ؟

أدار أحد الراعيين رأسه نحو زميله ، وبصق من فمه عرقاً من العشب قد مضغه واجتره مراراً وتكراراً ، وقال بتكاسل :

ـــ إنهما يريدان تبغاً ، يا ميخائيل .

فرفع ميخائيل عينيه إلى السماء ، سائـلاً إياهـا من دون ريب السماح بوصل الحديث معنا ، ثم استدار صوبنا .

قال :

ـــ طاب يومـكما . أين تذهبان ؟

ـــ في اتجاه أوتشا كوف ، إلى المالح .

ـــ إيه ، إيه !

وجلسنا على الأرض بجانبهما ، دون أن ننبس بكلمة .

ـــ قل ، يا نيكيتا ، هلا رفعت المخلاة ، وإلا نقرتها الغربان .

فابتسم نيـكيتا في شاربه ، وتناول المخلاة ، فصرّ إميليان بأسنانه .

ـــ إذن فأنتما بحاجة إلى التبغ ؟

فقلت :

ـــ نحن لم ندخن منذ زمن طويل .

ـــ كيف ذلك ؟ وهل تحبان أن تدخنا لفافة ؟

فزمجر إميليان ، محلقاً بعينيه :

ـــ قل إذن ، أيها الأوكراني اللعين ! إخرس ! أعطِ إذا كنت تريد أن تعطي ، لكن لا تضحك علينا ثمناً لذلك ! أيها الطرح ! أتكون قد ضيعت روحك بسبب تجوالك المستمر في السهب ؟ سوف أضع هذا على بوزك فلا تجد وقتاً كي تفتح ذلك البوز بعد الآن !

فارتجف الراعيان وقفزا ناهضين ، وقد تمسكا بعصاويهما الطويلتين وتلاصقا بشدة .

ـــ إيه . إيه ! يا صديقاي الصغيران ، أهـكذا تطلبان ؟ لا بأس في ذلك ، هيا واذهبا من هنـا !

كان ذانك الأوكرانيان يريدان أن يقاتلا ، هذا ما لم أشك فيه البتة .
وكان إميليان ، هو الآخر ، قاب قوسين أو أدنى من العراك ، كما تشير قبضتاه المنضمتان واللهيب الوحشي المحترق في عينيه . ولم تكن بي أية رغبة في المشاركة في القتال ، فحاولت أن أصلح بين الطرفين .

– قفا ، أيها الشابان ! لقد غضب زميلي ، وليس هذا بمرغوب منه ! أما أنتما ، فاعطيانا تبغاً إن كنتما غير مستائين منه ، وسوف نذهب في طريقنا .

فنظر ميخائيل إلى نيكيتا ، ونظر نيكيتا إلى ميخائيل ، وشرع كلاهما يضحكان :

– لماذا لم تقولا ذلك فوراً ؟

ثم أرسل ميخائيل يده في جيبه ، وتناول منها علبة كبيرة قدمها إليّ :

– إليك ، خذ تبغاً !

ونبش نيكيتا في خرجه وقدم إليّ يداً محملة برغيف كبير وقطعة من اللحم المجفف المملح بغزارة . فضحك ميخائيل ومنحني قبصة أخرى من التبغ . ودمدم نيكيتا : « وداعاً ! » فشكرت لهما .

ارتمى إميليان على الأرض قاتم المحيا ، وصفر بصوت مرتفع بصورة كافية :

– أيها الخنزيران اللعينان !

ابتعد الأوكرانيان إلى أعماق السهب بخطاً ثقيلة متأرجحة ، وهما يلتفتان صوبنا بين لحظة وأخرى . جلسنا على الأرض ، ودون أن نأبه لهما هاجمنا الخبز الذي يكاد أن يكون أبيض ، ولحم الخنزير . كان إميليان يطقطق بشفتيه ، ويشخر ويتجنب جهده نظراتي لسبب لم أعرفه .

كان المساء يهبط . . وقد ارتفع الظل في المنتأى ، وراح يحوّم فوق البحر يغطي غضونه بتفل مزرق . وعند حدود البحر ، كانت كتلة من الغيوم ذات

اللون الأصفر الزنبقي ، المحاطة بذهبٍ مزهرٍ ، تشير إلى حفاف الظل وتتقدم جهة السهب . أما في السهب ، هناك بعيداً في أقصاه ، فكانت المروحة القرمزية الشاسعة ، مروحة أشعة الغروب ، قد انفتحت وراحت تلوّن الأرض والسماء بصباغات رقيقة لطيفة . وكانت الأمواج تتحطم على الشاطىء ، والبحر المزهر ههنا ، الأزرق القاتم هنالك ، جميلاً جباراً بصورة رائعة .

— والآن سوف نحرق واحدة ! ألا فاذهبا إذن إلى الشياطين . أيها الأوكرانيان المشؤومان !

وبعد أن صفّى إميليان حسابه مع الأوكرانيين ، صعّد تنهيدة طويلة وقال :

— أنذهب قدماً أم نقضي الليل ههنا ؟

كنت متشوقاً إلى الذهاب قدماً .

بذيت عزمي :

— فلنبقَ !

— حسناً ، سنبقى .

وتمدّد على الأرض ، يتفحّص السماء .

كان إميليان يدخن ويبصق من وقت لآخر ؛ وكنت أتطلع حوالي وأستمتع بلوحة الغروب الرائعة ؛ وكان السهب يرنّ بالضوضاء الرتيبة المرتفعة من اضطراب البحر على الشاطىء .

قال إمليان بصورة مباغتة :

— ومهما قلتَ ، فانه يلذّ للمرء أن يوجه لكمة قوية إلى حنك إنسان ذي كروش ؛ لو كان المرء فقط يعرف كيف يكسب عيشه !

قلت له :

— كفاك هذراً .

— هذراً ؟ ما هذا الذي تروي ؟ تلك قضية ستُنجز ، أقول لك ذلك بكل وجدان ! لي سبعة وأربعون عاماً ، وهذه عشرون سنة قد تصرّمت وأنا أحطم رأسي في هذه العملية . أية حياة أعيش ؟ حياة كلب لا أكثر . ليس لي كوخ ، ولا قشرة خبز . أسوأ من حياة الكلب ، يا صاح ! أتحسب أني إنسان ؟ كلا ، لست إنساناً ، بل أسوأ من حشرة أو حيوان من الغابات ! من يستطيع أن يفهمني . ولا إنسان ! ولكن إذا كنت ، أنا ، أعرف أن الآخرين يستطيعون أن يعيشوا حياة جميلة ، فلماذا ، أنا ، لا أستطيع ذلك ؟ قل ؟ إن المرء ليقرف من هذه الحياة اللعينة !

وأدار فجأة وجهه نحوي ، وقال بنبرات سريعة :

— أتعلم ، كنت ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من ... ولكن هذا لم ينجح... وإني لأعض أصابعي اليوم ندماً على ذلك . . . وحق الشيطان ، لقد كنت أحمق ، فقد أخذتني الشفقة . أتريد أن أروي لك ؟

أسرعت أعلن له عن موافقتي ، فأخذ إميليان نفساً وبدأ يقول :

— حدث هذا ، أيها الأخ العجوز ، في بولتافا ... قبل ثمانية أعوام . كنت وكيلاً عند تاجر أخشاب ، فقد عشت بصورة غير رديئة طوال سنة ، بدون صعوبات . ثم رحت أشرب ، بين ليلة وضحاها ، فأنفقت في الحانة ستين روبلاً تخص صاحب العمل . وقُدِّمتُ إلى المحكمة ، فألقوا بي في فرق التدريب الثلاثة أشهر بكل مايعني ذلك . وأطلقوا سراحي بعد أن قضيت مدة إدانتي ، فخرجت وأنا لاأدري أين أذهب بعد ماحدث. في المدينة كانوا يعرفونني : أما الذهاب إلى مدينة أخرى ، فما كنت أملك الوسائل لذلك . وذهبت أري شخصاً مشبوهاً من معارفي : كان يدير حانة ، ويغرق في قضايا السرقة ، مخبئاً عنده مختلف الفتيان وخليلاتهم . كان فتى طيب القلب ، شريفاً حتى ليكاد ذلك أن يكون أعجوبة ،

يحتوي رأسه شيئاً من عقل. كان أبداً غارقاً في كتبه ، يقرأ كثيراً ، كثيراً جداً ، ويفهم الحياة بصورة عظيمة . وهكذا فقد ذهبت إليه إذن . قلتُ له . «قل إذن، ياپافل بتروف ، مُدّ لي يد المعونة ! » . فأجاب : « وربي ذلـــك ممكن ! عندما يكون الناس من الضفة نفسها ، فيجب أن يتعاونوا فيما بينهم . عشْ ، واشربْ ، وكُلْ ، وانظر حواليك » . لقد كان رأساً ، ياأخيّ ، بافل بتروف هذا ! كنت أحترمه كثيراً ، وكان هو الآخر يحبني . وكان يظل أحياناً طوال النهار جالساً وراء المقصف يقرأ كتاباً يتحدث عن الأشقياء الفرنسيين : لقد كانت كتبه جميعاً تتحدث عن الأشقياء . وما كان المرء يتعب من الاصغـاء إليه . . . لقـد كانوا فتياناً عظماء يصيغون أشياء عظيمة ، وينهارون على الدوام محدثين ضوضاء صاخبة. لتتصور أن كل شيء قد تمّ على خير مايرام ، ثم هذا أنت تجدهم ، في نهاية الكتاب، أمام القاضي . . .ثم ! طج ، طج ، طج ! وهذا كل شيء إلى رماد وغبار .

« بقيت عنـد بافل بتروف هذا شهراً أوشهرين أسمع مايقرأ وكل مايروي . وكنت أراقب ذهاب وإياب أولئك الفتيان الصغار المشبوهين الذين يحملون أشياء براقة : ساعات ، وأساور ، إلخ . . وكنت أدرك أنه ليس في عمليـاتهم قرش واحد من الحس السليم . كانوا يتمتمون بشيء ما ، فيعطيهم بافل بتروف نصف القيمة : من أجل هذا ، ياصاح ، كان يدفع بشرف ـــ وهؤلاء هم قد ذهبوا في التوّ واللحظة ! إنه العيد عندهم ، فذلك يطعم نساء ، ثم هو يطقطق ولا يبقى منه شيء ! كانوا قوماً فاشلين ، ياصاح ، ينتهي أحـدهم إلى المحـكمة تارة ، وينتهي إليها آخر تارة أخرى .

« ولـكن، أكان هذا يستحق العناء ؟ إن المرء ليرتـكب جريمة السرقة واهماً، ولا تزيد قيمة السرقة عن مائة من الروبلات ! مائة من الروبلات ! هل تساوي الحياة الانسانية مائة روبلاً ؟ يجب إذن أن يكون الانسان مجرداً عن أية ذرة

من العقل ! عندئذ قلت أنا لبافل بتروف :

«ـ هذا كله ، يابافل بتروف ، سخيف لا يستأهل أن يوسخ الانسان يديه به. فقال: «وَيْ ! كيف أقول لك ؟ » وقال: « من جهة تنقر الدجاجة الحب، ومن جهة أخرى فالحقيقة هي أن الناس ، في كل الأشياء . لا يتبادلون الاحترام ، هذه هي العقدة!» وقال : « أحقاً أن امرءاً يعرف قيمته يسمح لنفسه أن يوسخ يده بسرقة عشرين قرشاً عدواناً وعنفاً ؟ أبداً ! والآن أتحسب أن إنساناً مثلي متصلاً بالثقافة الأوروبية يبيع نفسه لمائة من الروبلات ؟ » . . وبدأ يبرهن لي بالأمثلة كيف يجب أن يتصرف إنسان يعرف قيمته . وقد تحدثنا طويلاً على هذا المنوال ، وأخيراً قلت له : « منذ زمن طويل ، إيه ! يا بافل بتروف ، والفكرة تراودني أن أجرب حظي ، وأنت ، إيه ! الذي تملك تجربة الحياة ، ساعدني بنصيحة منك : أعني كيف يجب أن أعمل ، وما يجب أن أعمل أيضاً » . فقال: «وَيْ ! هذا ممكن! ولكنك عاجز عن ترتيب مشروع صغير على حسابك ومسؤولياتك ، دون مساعدة ؟» وقال: «هكذا ، مثلاً ، سيعود أوبايموف في الحادي عشر من مشروعه الاستثماري في الغابة بطريق فورسكلا ، في عربته الخفيفة ، وحيداً : وكما تعلم ، فهو يحمل المال معه دائماً ، فالوكيل يدفع له الدخل كله في المزرعة . إنه دخل أسبوع كامل ، وهم يربحون ثلاثمائة روبل وأكثر يومياً ، فما رأيك في هذا ؟ » بقيت فترة غارقاً في أفكاري إن أوبايموف هو نفس ذلك التاجر الذي اشتغلت وكيلاً عنده . لقد كان المشروع جميلاً بصورة مضاعفة ؛ فأولاً سوف أنتقم من معاملته لي ، ثم سوف أستطيع أن أنتزع منه قطعة تستأهل الضربة . قلت : « سوف أرى » ! فردَّ بافل بتروف : « لا سبيل إلى إفلات الفرصة » !

جنح إلى الصمت وطفق يلف لفافة على مهل . كان الغروب قد انطفأ تقريباً، سوى شريط زهري صغير ، يزداد شحوباً بين ثانية وأخرى ، يلوّن بصعوبة حافة

سحابة وبرية جامدة إعياءً في وسط السماء المعتمة وكان كل شيء في السهب كثير الهدوء، عظيم الكآبة، وذلك الهدير العذب الآتي من البحر دون انقطاع يشدد فيما يبدو، بصخبه الرتيب الجنون، على تلـــك الكآبة وذلك السلام. وكانت النجوم، فوق البحر، تتلألأ الواحدة تلو الأخرى ببريق شديد، كثير الجدة، حتى ليقال إنها صُنعت في العشية فقط كي تزين سماء الجنوب المخملية.

« بلى، يا أخي، لقد اجتررت هذه القضية، وفي الليلة ذاتها استلقيت بـين الأدغال قرب فورسكلا، مسلحاً بقضيب حديدي يزن حوالي سبعة أرطال. حدث ذلك في تشرين الأول، وإني لأتذكر جيداً: في نهاية تشرين الأول، والليـل على أحسن مايكون: كانت الظلمة دامسة، مثلها مثل نفس الانسان ... والمكان، ما كان المرء يتمنى أفضل منه. كانـت ثمة جسر في ذلك الحين، وعند مدخـله انتزعت بعض الألواح واقتلعت مساميرهـا، فهـو سيضطر إلى الترجل إذن. وتمددت، وانتظرت ... وكنت أملـك من الخبث في ذلك الحـين، ياصاح، ما يكفي ليوزّع على عشرة تجار. إذن فقد تخيلت هذه القضيــة بصورة بسيطة ـ ما كان يمكن أن يتصورها المرء بصورة أكثر بساطة: دجْ! وكل شيء قد انتهى! بلى... كنت مضطجعاً إذن، كما ترى، وكنت على أهبـة. بم! وخـذ الجراب الصوفي. هكذا: دج، وذلك كل شيء.

« أنت، لعلك تتصور أن الانسان سيد نفسه؟ هراء، يا صاح! هيـــا وحدثني، كي نرى، ماذا ستفعل غداً؟ سخف! أنت لا تستطيع أن تقول لي. هل ستنطلق عن يمين أو عن شمال غداً. كنت متمدداً، وكنت أنتظر شخصاً، وذلك لم يحدث هكذا أبداً. تلك قصة لا تُصدق!

« نظرت، فاذا امرؤ يأتي من ناحية المدينة، سكران حتى ليترنح، ممسكاً عصا بيده. إنه يتمتم بشيء ما، إنه يتمتم بكلمات لا نهاية لها، وهو يبكي، وهو

يتـأوه وينشج . . . وحينما اقترب هذا أكثر من ذي قبل ، نظرت : إنه امرأة !
قلت في نفسي : « أيتها العـاهرة اللعينة ، انتظري لحظـة وسوف ألقنك درساً ،
هيـا اقتربي ! » ولكنها ذهبت صوب الجسر باستقامة ، وهذه هي تصيح فجأة :
« يا حبيبي ، لماذا ؟ » . ثم ، يا صاح هذه الصيحة ! لقد ارتعشت لها : « ما معنى
هذه القصة ؟ » قلت ذلـــك في نفسي . وكانت تقترب مني ، وأنا مضطجع لصق
الأرض ، أرتجف بجسدي كله . أين ذهبت نقمتي التي كانت تهزني قبـل لحظة
قصيرة ؟ هذه هي تأتي صوبي ، ولن تلبث أن تدوسني في طريقها ! وعادت تجأر :
« لـماذا ، لماذا ؟ » ، ثم هذه هي ، دون مقدمات ، تسقط أرضاً ، تـكاد أن تـكون
بجانبي وراحت تجعر ، يا أخيّ ، بقوة عظيمة حتى لأعجز عن إخبارك كيف
تمزق قلبي لسماعها . وبقيت رغم ذلك مضطجعاً على الأرض ، لا أتحرك . و كانت
هي تجعر . وقرصني الفضول ، فقلت في نفسي : سوف أفهم هـذا الأمر ! ولـكن
القمر خرج في تلك اللحظة من قلب سحابة ، فـــأضاء المـكان بصورة عظيمة ،
عظيمة جداً ، حتى ليـدب الخوف إلى قلب الانسان ! ارتفعت على مرفقي وتطلعت
إليها ... وعندئذ ، يا صاح ، لم أعد أفكـر في أي شيء ، وتبخرت سائر مشاريعي
إلى الشيطان ! نظرت إليها ، وانقبض قلبي لذلـــك : كانت فتاة صغيرة صغيرة ،
صبية ليس غير ، بيضاء كلها ، تتدلى خصل شعرهـــا على وجنتيها الصغيرتين ،
وكانت عيناها كبيرتين هـكـذا ، تنظران هـكذا ... وكانت كتفاهـا صغيرتين
لاتـكفان عن الارتعاش ، ودموع كبيرة تنطلق من العينين وتركض ... تركض
الواحدة تلو الأخرى .

« أخذتني ، ياصاح ، الشفقة . وأنا ، عندئذ ، هأنذا أسعل : أح ، أح ، أح!
فانطلقت ، هي ، تزعق : « من هناك ؟ من هذا ؟ من هنـاك ؟ » إذن فقد ذعرت !
إيه ! عندئذ ... نهضت على قدميّ ، وقلت : « حسناً ، هذا أنا » فقالت : « من

أنت ؟» وعيناها اللتان أصبحتا هكذا ، وهي التي كانت ترتجف بكليتها فكأن الصقيع يغطيها . قالت : « من عساك تكون ؟ »

وانطلق يضحك .

« قلت لها : « من عساني أكون ؟ ما الذي أصنع ؟ قبل كل شيء لا تخافي مني ، يا آنسة ، فلن ألحق بك أي أذى . أنا إنسان أساوي أكثر من قرشين ، واحد من أولئك المشردين . » بلى ، وبكلام آخر ، فقد كذبتها القول ؛ ما كنت سأقول لها ، أيها الخبيث ، أني قد تمددت هناك كي أقتل التاجر ! وهي أجابتني : « سيان ذلك عندي ، فقد جئت هذا المكان كي أغرق نفسي » . ولقد قالت لي ذلك بلهجة اجتاحت جسدي معها قشعريرة شديدة ، يا صاح . قل ، ما كان عساني أن أفعل عندئذ ؟ »

باعد إميليان بين ذراعيه ، بادٍ عليه الاعياء ، ونظر إليّ بابتسامة عريضة ساذجة .

« وعندئذ ، ياصاح ، وصلت صلة الحديث دون لف أو دوران . عما تحدثنا ، هذا ما لا أدري ! ولكني تحدثت حتى رحت أصغي لحديثي ؛ قلت لها خاصة إنها صبية وعظيمة الجمال . أما عن جمالها ، فقد كنت أقول الحقيقة ، بلى ، فهي كانت أجمل الجميلات ! آه ، أيها الأخ العجوز ! فلندع ذلك ! وكانوا يدعونها ليزا . إذن أنا – أليس كذلك ؟ قد قلت مالا أعلم ماذا ، ومن يعلم ماقلت لها ؟ كان القلب يتكلم .. بلى ! وكانت هي تنظر دون انقطاع ، جادة هكذا ، والعينان جامدتان ، وهذه هي تبتسم على حين بغتة ! ... »

تفوه إميليان بالكلمات الأخيرة بصوت راعد غمر السهب بأسره ، وقد غص صوته بالعبرات واغرورقت عيناه بها ، بينما راح يهز في الفضاء قبضتيه المضمومتين .

« عندما ابتسمت ، فقد ذبت أنا لابتسامتها ، وهذا أنا جاثٍ أمامها . قلت لها : « يا آنسة ! يا آنسة ! » لم أقل شيئاً أكثر من ذلك ! وهي ، ياصاح ، قد أخذت رأسي بين يديها ، وتطلعت في وجهي ، وابتسمت مثلمـــا تبتسم الصورة . كانت تحرك شفتيها ، فكأنها تريد أن تقول شيئاً ؛ ثم جمعت شجاعتهـــا وقالت : « ياصديقي المسكين ، أنت الآخر شقي بائس مثلي ! بلى ؟ قل لي ، ياصديقي » ! إيه نعم ، يا صاح هـذه هي القصة ! ولم يكن ذلك كل شيء ، فقد قبلتني أيضاً ههنـا ، على جبهتي . هذا ما حدث ! أتعجب ؟ ذلك كما رويتُ لك ! آه ! أيها الغصن العجوز ! أتعرف أني لم أعرف شيئاً أفضل طوال سنوات حيـاتي السبعة والأربعين ؟ يجب أن أعترف بذلك ! لماذا لم أبقَ إذن ؟ آهٍ ! يا للحياة العاهرة ... »

لاذ بالصمت ، ورأسه بين يديه . أما أنا فقد لجأت إلى الصمت أيضاً ، وقـد أذهلتني غرابة القصة ، ورحت أنظر إلى البحر الشـبيه بصدر عريض يتنفس بصورة منتظمة جبارة في رقاد عميق .

« عندئذ ، نهضت بعد ذلك وقالت لي : « رافقني إلى الدار » . وانطلقنا ... كنت أمشي ولا أحسُّ قدميَّ تحتي ، بينما هي تروي لي كل شيء منذ البداية حتى النهاية . إن والديها ، وهما من التجار ، لم يرزقا سوى هذه الابنة ، ولقد دللاهـا بكل تأكيد : ثم بعد ذلك جاء طالب وأخذ ، طبعاً ، يعطيها دروساً ، فتحابا . ثم ذهب يتابع دروسه ، كما قال ، وسوف يعود كي يتزوج منهـا فقبعت هي تنتظره : لقد اتفقا على ذلك . أما هو فلم يرجع ، بل أرسل لهـا كتاباً ؛ كان يقول فيه : « أنت لا تليقين بي » . وقد وجدت الفتاة ذلك الكتاب رديئاً بكل تأكيد . عندئذ ذهبت تـ ... إيه بلى ... إذن فقد كانت تروي لي ذلك كله ، وبهـــذه الطريقة وصلنا إلى البيت حيث تسكن . قالت : « حسناً ، يا صديقي ، إلى اللقـاء ! غـداً سوف أذهب من هـذا المكان . لعلك في حاجة إلى المـــال ؟ قل ، ولا

تتضايق » . فقلت : « كلا ، يا آنسة ، لست في حاجة ، شكراً لك ! » فعادت تصرُّ : « هيا ، لا تتضايق ، قل ، خذ ! » وأنا الذي كنت في تلك الحال من الرثاثة أجبتها رغم كل شيء : « ليس من حاجة ، يا آنسة » . ألا فاعلم ، يا أخي، أني ما كنت أستطيع إذن تفكيراً في ذلك ، في المال ، صدقني . وتبادلنا تحية الوداع ، قالت لي بصوت فائق اللطف : « أبداً ، أبداً على الاطلاق لن أنساك . » وقالت : « صحيح أنك لست بقريب لي البتة ، وأنك بالنسبة إليَّ ... »

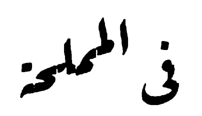
وكف إميليان بغتة عن الحديث ، وقال وقد عاد يسحب الأنفاس من لفافته :

— ولكن ، فلندع هذا .

« وذهبت . أما أنا فقد جلست على دكة قريباً من الباب . كان قلبي يتوجع . ومرَّ حارس الليل بقربي . قال : « ماذا تصنع ههنا ؟ أتريد أن تلوث شيئاً ما ؟ »

« أصابت هذه الكلمات وتراً حساساً مني : ضربته على حنكه ، بُنْ ! وتلا ذلك صيحة ، وصفير ... وإلى النظارة ! ماذا تريد ، إن النظارة ليست هي الموت؛ يستطيعون أن يلقوا بي فيها طوال حياتي ، فأنا لا آبه لذلك ؛ وعدت أنهال عليه لكماً وضرباً ! ثم جلست على الدكة من جديد ؛ ما كانت بي رغبة في الفرار . قضيت الليل في النظارة ، وعند الفجر أطلقوا سراحي ، فذهبت إلى بافل بتروف. سألني ، ضاحكاً : « أين كنت ؟ » نظرت إليه : إنه إنسان البارحة نفسه ؛ ولكنه خيل إليَّ أني أرى شيئاً جديداً . وعندئذ رويت له كل شيء بكل تأكيد ، منذ البداية حتى النهاية . أصغى إليَّ بانتباه ، ثم قال : « أنت ، يا إميليان بافليتش، أنت أحمق وأبله . هلا تفضلت وتجاوزت هذا الباب ؟ » هذا ما قال لي . ثم ، أية غرابة في ذلك ؟ ألم يكن على حق ؟ خرجت ، وهذا كل شيء . هذه هي قصتي الصغيرة ، يا صاح ! »

سكت وتمطى على الأرض ، ويداه تحت رأسه ، وعيناه في السماء ، في سماء من المخمل والنجوم . وكان كل شيء فيما حولنا يسترخي في السكون ، وضجيج ارتداد الأمواج يزداد عذوبة وخفوتاً ، فيصل إلينا أشبه بتنهيدة ضعيفة ناعسة .



١

– إذهب إلى المملحة إذن ، يا صاح ! هنالك سوف تجد عملاً على الدوام... سوف تجد عملاً في أي وقت ... ولما كان ذلك عملاً شاقاً ، عبئاً حقيقياً من الحديد ، فان المرء لا تشيخ عظامه فيه . الناس يولّون الأدبار ... هم لا يتحملون الضربة ! إمض إذن إلى هنالك وجرّ العربة يوماً صغيراً . سوف يعطونك ستة كوبيكات مقابل كل عربة ، والشاي ... وطوال النهار ، ماذا ، ليس هذا على شيء كثير من السوء ، بل يمكن أن يُقبل .

وأرسل الصياد الذي نفحني بهذه التعليمات دفقة من اللعاب جانباً ، وشخص إلى منتأى البحر الأزرق الصافي ، وأخذ يغني بكآبة بينه وبين نفسه . كنت أجلس بجانبه في ظل حائط أحد المخازن ؛ وكان يرقع سراويله العريضة المصنوعة من قماش خشن ، ويتثاءب ، ويقطر على مهل من بين أسنانه أحكاماً مختلفة نيرة عن نقص العمل في هذا العالم ، وعن العمل الذي يكلفه مجرد البحث عن إمكانية للعمل .

– وإذا لم تستطع أحياناً احتمال الضربة ... تعالَ إذن حتى هذا المكان لتستريح ... سوف تروي لي ... ليس المكان ببعيد جداً عن هنا ، لا أكثر من خمسة فراسخ ... إيه ! بلى ... هيا ، إذهب !

ودّعته ، وشكرته على معلوماتـــه ، وانطلقت « إلى المملحة » . كان الوقت صباحاً حاراً من آب ، والسماء طاهرة براقـة ، والبحر مهجوراً كثير الدلال ، والأمواج المخضرة تتراكض على رمال الشاطىء ، الواحدة تلو الأخرى ، وهي ترسل هديراً محزونـاً .. وإلى أمامي ، بعيداً في الضباب الأزرق المسبب عن الحرارة الشديدة ، تمتد لطخ بيض على الشاطىء الأصفر : تلك هي أوتشا كوف؛ وإلى ورائي ، كان المخزن يتلاشى خلف الكثبان الفاقعـــة الصفرة ، صفرة تضاعفها بعنف زرقة الأمواج السماوية ...

كنت قد سمعت في ذلك المخزن ، حيث قضيت ليلتي ، كثيراً من الأقاصيص والأحكام ذات السخف المشبع بالمعنى ، وكان مزاجي قاتماً ، والأمواج تتجاوب مع مزاجي وتزيده ظلمة .

وما أسرع أن امتد أمام ناظري لوحة استخراج الملح . ثمة ثلاثة مربعـات من الأرض تبلغ مساحة كل منها مائتي ساجين (١) محاطة بكثبان واطئة جداً ، متصلة ببعضها بعضاً بأقنية صغيرة ضيقة ، تمثل المراحل الثلاث لعملية الاستخراج. كانت عملية التبخير تجري في أحد تلك المربعات المليء بماء البحر ، حيث يرسب في طبقة رمادية شاحبة ذات انعـكاسات مزهرة تتألق في أشعة الشمس . وكان الملح يوضع أكواماً في المربع الثاني ، حيث النساء المستخدمات فيه يخضن حتى الركبتين ، والمجارف في أيديهنّ ، في مستنقع من الطين الأسود اللامع ، يخضن هذا الطين بصورة مجردة عن الحياة بصورة غريبة ، دون أن يصحن أو يتكلمن؛ وكانت أشباحهن المصبوغة بلون رمادي قذر تتحرك ببطء وإعياء على القاع المتألق، قاع الـ « رابا » السميكة ، الوسخة ، الملتهمة (ورابا هو الاسم الذي يطلقـون على ذلك الطين القذر) . وكان الملح يحمل على عربات صغيرة في المربع الثالث : إن

(١) Sagène =١٣،٢ متراً

العمال يتقدمون بصورة آلية ، وقد انحنت ظهورهم كثيراً ، دون أن ينبسوا بكلمة واحدة . وكانت دواليب العربات تزمجر وتصرصر ، فيبدو هذا الضجيج أشبه باحتجاج كئيب بصورة لاتطاق ، احتجاج يصعد نحو السماء من ذلك الصف الطويل من الظهور الانسانية المستديرة نحوها . أما هذه السماء، فقد كانت تصب حرارة لاتحتمل ، حرارة لاهبة تحيل الأرض الرمادية ،المشققة ، المغطاة هنا وهناك بعشب المالح المحمرّ وبلورات دقيقة من الملح يعمي بريقها الأبصار ، كانت تلك الحرارة تحيل الأرض لاهبة محرقة هي الأخرى . وعلى القاع الطنان للصرير الرتيب المتصاعد من الدواليب كانت النغمة المبتذلة العنيفة الصادرة عن صوت المراقب العنيفة تنفصل لوحدها ؛ كان هذا الوكيل يكوّم الملح في هرم عال بعد أن يبلله بسطل من الماء ، وهو لايني أثناء ذلك يغمر العمال الذين يسكبون محتويات عرباتهم عند قدميه بالشتائم الفظة . كان يقف على كوم مرتفع من الملح ، يلوح بمجرفته في الهواء باسق القامة ، أسود مثل الفحم ، مرتدياً بقميص أسود وسراويل زرقاء فضفاضة ، يصيح بأعلى صوته أوامر يلقيها على العمال الذين يجرون العربات ويصعدون بها على لوح خشبي حتى قمة الهرم.

ـ صبّ عن شمال ! عن شمال ، أقول لك ، يا ابن الشيطان ! ياالله الطيب! لسوف أرسل رصاصة في صدغك ! لسوف أقلع لك عينيك ! أين تريد أن تندس؟ إيه ؟ أيها الشيطان اللعين ، ياقرن إبليس ! . . .

ثم كان يجفف حانقاً وجهه المبلل بالعرق بطرف قميصه ، وينفخ بغضب ، ثم يعود ليسوي كوم الملح ، دون ان يقطع لحظة واحدة تيار شتائمه ، ضارباً بكل قواه بقفا مجرفته .

كان العمال يدفعون عرباتهم نحو الأعلى مثل التماثيل المتحركة ، ويصبون محتوياتها بصورة آلية أيضاً عند صدور الأمر : «عن شمال ! عن يمين !» ثم كانوا

يرفعون ظهورهم بجهد ، ويرجعون ليجلبوا ملحاً من جديد بخطاً ثقيلة ، مترددة ، وهم يجرون وراءهم عرباتهم التي تزمجر الآن بصوت أعذب كأن الاعيـــاء يثقل عليها ، منحدرين على الألواح المرتجفة الغائصة في الوحل السميك الأسود .

وكان الوكيل يقذفهم من خلف بهذه الهتافات :

ـــ أسرع من هذا ، ياعصابة الكسالى .

أما هم فيستمرون يجرجرون أنفسهم بالخرس ذاته والاعياء عينه ، ووجوههم وحدها ، هذه الوجوه المسمرّة ، المرهقة تعباً وعذاباً ، المغطاة بالطين والعرق ، المنضمة الشفاه بقوة ، كانت تنقبض من حين لآخر بالخبث والحنق . وكان دولاب إحدى العربات يغادر اللوح أحيانـاً ويغوص فى الطين ؛ عندئذ كانت العربات السابقة له تبتعد ، بينما العربات اللاحقة تتوقف وتأخذ قواهـــا المحركة ، وهي بصورة صعاليك قذرين يتسترون بالأسمال البالية ، تنظر بلامبالاه بلهاء إلى الرفيق الذي يجهد في رفع عربته الوازنة مائتي كيـلوغرام تقريباً ، ويحـاول أن يرجع الدولاب الى اللوح الذي انزلق عنه .

وفي أثناء ذلك كانت شمس الظهيرة المحرقة لاتني تسخن الأرض حتى درجة الابيضاض في حمية عظيمة ، تصب عليها الحرارة من علياء سماء نقية من السحب ، مغطاة بضباب خفيف ؛ كنت تقول إن الشمس تريد ، بأي ثمن كان ، أن تقنـع الأرض بعطفها عليها في ذلك اليوم بالذات .

إذ تفحصتُ ذلك كله من الخارج ، فقد قررت ان أجرب حظي . تظاهرت بعدم المبالاة قدر طاقتي واقتربت من اللوح الذي يسلكه العمال بعرباتهم المفرغة.

ـــ مرحباً ، أيها الشبان ! كان الله في عونـكم !

وكان الجواب شيئاً لم يك منتظراً على الاطلاق . إن العامل الأول ـــ وكان عجوزاً أشيب الشعر متين البنيان ، قد رفع سراويله حتى الركبتين وقلب كميـه

حتى الكتفين ، كاشفاً بذلك عن جسد برونزي َعقِدٍ - لم يسمع شيئاً مما قلت، فتجاوزني دون أية إيماءة .

أما الثاني - وكان فتى أحمر الشعر رمادي العينين الخبيثتين - فقد رماني بنظرة شريرة وكشر في وجهي بصورة راعبة ، وهو يلعنني بشتيمة كبيرة مضافة إلى ذلك كله . وعبر لي الثالث - وهو يوناني فيما يبدو ، أسود كالصرصار كثيف الشعر المجعد - عبر لي عندما حاذاني عن أسفه لانشغال يديه ، وإلا فقد كان وهب نفسه سرورَ تعريفِ أنني على قبضتيه . وقد صدر ذلك منه في لامبالاة عجيبة لاتتلائم مطلقاً مع ماينبغي التعبير عنه

ورماني الرابع بكلمة ساخرة بأعلى صوته : مرحباً ، يا أرطبيل ! وحاول أن يرفسني .

كان هذا الاستقبال ، إن كنت لا أخطىء ، بالضبط مايسمي بين الناس الرفيعي التربية « إستقبالاً قليل الحرارة » ، الأمر الذي لم يحدث لي قط على هذا الشكل الهمجي .

رفعت نظارتيّ بصورة لاشعورية ، والحيرة قد انتابتني ، ووضعتها في جيبي، ثم اقتربت من كوم الملح وفي نيتي أن أطلب من الوكيل إنْ كان ثمة عمل لي . وكنت لما أبلغه بعد عندما ناداني :

- هي ، أنت هناك ! ماذا تطلب ؟ عملاً ؟

فقلت له .

- وأنت تعمل على العربات ؟

فذكرت له ، مقسماً الأيمان ، أني قد اشتغلت فيما مضى بنقل التراب .

- التراب ! هذا لا ينفع ! التراب ، هذا شيء يختلف كل الاختلاف . ههنا ننقل الملح ، لا التراب . إذهب واحرس البقر في حقلك ! هكذا ، أيها المزراب،

إرم لي ذلك عند قدمي !

وأطلق المزراب ـ وكان عملاقاً من الفلفل والملح مدثراً بالأسمال ، ذاشاربين طويلين وأنف مليء بالبثور باذنجاني اللون ـــ أطلق صيحة صارخة وقلب محتوى عربته . وانتشر الملح . وأرسل المزراب بعد ذلك أيماناً مغلظاً ردّ الوكيل عليه بسلسلة من الشتائم ، ثم افترت شفتا كل منهما عن ابتسامة راضية ، واستدار كلاهما نحوي في وقت واحد .

سأل الوكيل :

ـــ إذن ، ما عساك تريد ؟

وقال المزراب ، وهو يغمز الوكيل بعينه :

ـــ آه ! يا رجل الشمال ، أجئت المالح كي تلتهم المعجنات ؟

فطفقت أترجى الوكيل أن يأخذني ، مؤكداً له أني سأعتاد العمل ، وأني لن أدفع العربة بصورة أسوأ من الآخرين .

قال أخيراً :

ـــ آه ! أما عن هذا ، فسوف تنكسر سلسلتك قبل أن تعتاده . حسناً ، فليأخذك الله في ظل حراسته المقدسة ، باشر العمل ! لن أعطي في اليوم الأول أكثر من نصف روبل . هي ! هناك ! أعطه عربة .

وانبثق صبي صغير من حيث لا أدري ، كانت ثيابه كلها قميصاً وبعض الخروق الممزقة التي تلف حتى الركبتين ساقيه العاريتين . رماني بنظرة متشككة ، وقال من بين أسنانه :

ـــ هيا ، تعال !

تبعته حتى أكمة من العربات المكدسة ، حيث طفقت أفتش فيما بينها عن عربة خفيفة . كان الصبي الصغير يحك فخذيه ويراقبني في صمت .

قال أخيراً ، حين هممت أن آخذ العربة التي لاحت لي الفضلى :

- لماذا أخذت هذه ؟ ألا ترى إذن أن أحد دولابيها ملتو ؟

وابتعد في لامبالاة ، وتمدد على الأرض .

اخترت عربة أخرى ، واتخذت مكاناً في الصف ، وذهبت أحمل الملح يرهقني شعور غامض ثقيل يمنعني عن سؤال رفاقي عن عملنا . كانت الوجوه جميعاً ، رغم الاعياء الذي يضنيها ، تعبر عن حنق أصم ، حنق ما برح حتى هذه اللحظة كامناً . كانوا جميعاً معذبين ! يطفحون نقمة على الشمس عديمة الرحمة التي تلهب جلدهم ، وعلى الأمواج التي تتأرجح تحت دواليب العربات ، وعلى الـ « رابا » ، هذ الطين الرديء ، السميك المملح ، الممتزج ببلورات حادة تخدش الأقدام ، ثم تحتفر تلك الخدوش حتى تصيرها جروحاً واسعة راشحة ، كانوا يطفحون نقمة على كل ما يحيط بهم ويحتف .

كانت هذه النقمة تتجلى في النظرات الملتوية التي يتقاذفون ، وفي الشتائم العنيفة السامة التي تفلت بين حين وآخر من حلوقهم الملتهبة ظمأ . وما كان إنسان يعيرني أدنى التفات . وما كدت أبلغ المربع حيث تبعثرنا بعرباتنا على الألواح المرتبة على هيئة صليب في اتجاه أكوام الملح الموحل ، حتى لطمني شيء في قدمي من خلف ؛ وإذا التفت ، تلقيت في ملء وجهي هذا الهتاف المتوحش :

— إرفع طرفيك ، أيها السارق !

رفعت طرفي بسرعة ، ووضعت عربتي على الأرض ، وشرعت أملؤها ملحاً بمعونة مجرفة .

صاح رجل الجنوب العملاق ، الذي كان بجانبي ، آمراً :

— املأها أكثر من هذا !

ملأتها قدر استطاعتي . وفي هذه اللحظة أمر الذين في الوراء أولئك الذين

في الأمام صائحين : « إدفع ! » . بصقوا في أيديهم ، ودفعوا عرباتهم وهم يزمجرون ، وقد انحنت ظهورهم من جديد في زاوية قائمة على أطرافهم ، واندفعت صدورهم إلى الأمام ، وتطاولت أعناقهم بصورة غريبة ، فكأن ذلك سيخفف من عنائهم .

إذ لاحظت سائر هذه الاشارات ، فقد قلدتها بصورة مضبوطة ، منحنياً ومتطاولاً ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؛ ورفعت عربتي : أطلق الدولاب زمجرة حادة ، وأحسست ألماً ممزقاً في مستوى الترقوتين ، وأخذ ذراعاي المتوتران حتى الدرجة القصوى يرتعشان ... وخطوت خطوة ، وأنا أترنح ، ثم خطوة أخرى ، ورُميت عن شمال ، ثم عن يمين ، وأطلقتُ إلى الأمام ... وغادر دولاب عربتي اللوح الخشبي ، فدفعت في الطين حيث وقعت على وجهي . وصفعتني العربة بعريشها في رقبتي ، فكأنها تريد أن تلقني درساً ، ثم انقلبت في تكاسل ، وتراءى لي أن الصفير المتتالي الذي يصمُّ الآذان ، والهتافات ، والضحك الذي استقبل جميعاً سقطتي ، قد غرسني أكثر فأكثر في الطين الدافىء الدسم ؛ نهضت وأنا أخوض الوحل ، أجهد عبثاً في أن أرفع عربتي الغارقة في الطين ، وأحسُّ شيئاً بارداً حاداً يقطع صدري .

قلت ، متوجهاً إلى الفتى القادم من الجنوب الذي كان جاري في الصف ، والذي كان يضحك ملء شدقيه ، ممسكاً ببطنه ، مهتزاً بكليته :

— إيه ! أيها الصديق ! هلا ساعدتني إذن ؟

— آه ، يا ابن الـ ... يا لطيف ! قل إذن ، أليس ذلك حسناً ؟ أرجعها إلى اللوح ! أمِل عجلتك إلى اليسار ! آه ! ألا فلتمتصك الرابا ! ...

وطفق يضحك أكثر من ذي قبل : كان يبكي من شدة الضحك ، ويتمسك بخاصرتيه ، ويكاد يختنق .

صاح بي العجوز الأشيب الذي كان يسبقني ، وهو يلوِّح بيديه يائساً :

ـ تقدم على الألواح ، أيها الوغد ! ...

ثم دفع عربته قدماً ، وهو يغمغم بينه وبين نفسه .

وابتعدت العربات الأمامية ؛ أما العمال الذين كانوا ورائي فقد ظلوا واقفين في مكانهم لا يتحركون ، ينظرون إليّ بشيء من الأستياء والحنق ؛ كانت جهودي لاخراج عربتي من الطين قد غمرتني بالعرق ، وكنت أرتدي طبقة من الوحل تدفع إلى الاشمئزاز والقرف . ولم يكن إنسان يريد مساعدتي ، بينا دوى صوت الوكيل من الهرم يصيح :

ـ ما معنى هذا التماهل ، أيتها العصبة من الأوغاد ؟ أيها الكلاب ! أيها الخنازير ! أعندما يغيب القط ترقص الفئران ؟ أيتها الحيوانات ! أيتها الأبالسة الملعونون ! ألا ادفعوا إذن ، يا كوماً من الكفار !

زمجر الجنوبي في ظهري :

ـ إبتعد عن الدرب !

ودفع عربته قدماً حتى كاد يصدم رأسي بعريشها .

وبقيت وحدي . ولست أدري كيف توصلت إلى تخليص عربتي ؛ ولما كان الملح قد انسكب منها ، بينا غمرها الطين تماماً ، فقد خرجت بها من المربع وفي نيتي أن آخذ غيرها .

ـ إذن ، يا صاح ، فقد وقعت ؟ ليس ، فهذا يمكن أن يحدث للجميع في المرة الأولى !

ألقيت نظرة جانباً ، فرأيت خلف كوم من الملح ، على لوح موضوع في ملء الطين ، فتى في العشرين من عمره ، يجلس القرفصاء ، ويمص راحة يده . كان يتطلع إليّ من وراء يده بعينين طيبتين باسمتين ، ويشير إليّ برأسه .

سألته :

— لا بأس ، ياصاح ! تلك قضية عادة ليس غير : ما أصابك في يدك ؟

— إليك ، فقد خدشتها ، والجرح يقرض : إذا لم يمصّ المرء كل شيء ، فما عليه إذن إلا مغادرة العمل ؛ إن ذلك يؤلم بصورة قاسية : هيا ، هيا ، إذهب وإلا صاح بك الوكيل معنفاً !

ذهبت . وتمّ كل شيء على أحسن ما يكون في النقلة الثانية : ونقلت حملاً ثالثاً ، ورابعاً ، وحملين آخرين أيضاً . لم يعد إنسان يعيرني أدنى التفات ، وكنت سعيداً جداً بهذا الواقع الذي يصعب كثيراً على البشر بصورة عامة .

صاح بعضهم :

— قفوا ! إلى الحساء !

ذهب الجميع ، وهم يطلقون تنهيدة ارتياح ، يتناولون طعام الغداء ؛ ولكن إنساناً لم يظهر ، هنا أيضاً ، أية حماسة أو أي فرح بالراحة . كان كل شيء يتم في غير رضى ، بقرف سيء الكتمان ، بغضب وحنق . كنت تقول إن إنساناً لا يجد في الراحة شيئاً صالحاً لعظامه التي كسرها العناء ، ولعضلاته التي أرهقتها الحرارة اللاهبة . وأحسست ألماً شديداً في ظهري ، وساقيّ ، وكتفيّ ؛ لكنني جهدت ألا أظهر شيئاً من ذلك ، وقصدت المطبخ في عنفوان .

أوقفني عامل عجوز حافي القدمين كالح الوجه ، له قميص أزرق ممزق ومحيا شبيه بالقميص في زرقته ، يزينه حاجبان ثخينان مقطبان ، تتألق تحتها ببريق همجي ساخر عينان حمراوان محتقنتان ، وقال :

— قف ! قف لنرَ ! كيف ينادونك ؟

فذكرت له اسمي .

— آه ! آه ! لقد كان أبوك حيواناً إذ أعطاك مثل هذا الاسم . في مطبخنا لا يقبلون في اليوم الأول الذين يحملون اسم مكسيم . إن الذين يسمون

مكسيم يشتغلون ، في اليوم الأول ، دون أن يتناولوا طعاماً ! هكذا ! آه ! لو كان اسمك يوحنا مثلاً ، أو أي اسم آخر ، فقد كان ذلك يكون مختلفاً وربي . أنا مثلاً أدعى متى ، إيه ! وأنا لي الحق إذن في الغداء ؛ أما مكسيم ، فما عليه سوى التفرج . هيا واذهب من المطبخ .

نظرت إليه في شده ؛ وانتحيت جانباً وجلست على الأرض . كان مثل هذا السلوك بحقي يحيرني ، فهو سلوك لم أفعل شيئاً للتحريض عليه ، كما لم يحدث لي قط أن لقيته . لقد سبق لي من قبل ، وكذلك فيما بعد ، أن اشتغلت عشرات المرات في مكان ما ، وكنت أصل راوبط الصداقة بسرعة مع رفاقي على الدوام . أما هذه المرة ، فقد كان كل شيء غريباً بصورة لا تصدق . ورغم كل ما كان في موقفي من ثقل وألم ، فقد ثار فضولي بصورة شديدة . وبنيت عزمي على التفتيش عن مفتاح هذا السر الذي يلهبني ويستهويني ، وإذ اتخذت هذا القرار فقد رحت أنظر بهدوء إلى العمال الذين يتناولون طعام الغداء ، منتظراً العودة إلى العمل ... كان لا بدَّ لي أن أعرف سبب معاملتهم لي على هذه الصورة .



٢

انتهوا من طعامهم ، وتجشأوا ، وأخذوا يدخنون ، مبتعدين عن المطبخ كل في اتجاهه الخاص . واقترب العملاق الجنوبي والفتى القصير الملتف الفخذين بالأسمال مني وجلسا بيني وبين صف العربات التي تركناها على الألواح .

سأل الجنوبي :

— إذن ، يا أخيّ ؟ أفليست بك رغبة في التدخين ؟

فقلت له :

— هاتِ !

— أفلا تملك إذن دخاناً خاصاً بك ؟

- لو كنت أملك دخاناً ما طلبت منك .

— هذا صحيح !

ومدّ لي غليونه :

— خذ ، دخن . وإذن ستبقى تنفل الملح ؟

— أجل ، مادمت أستطيع ذلك .

— حسناً . حسناً ! ومن أين أنت ؟

فأجبته .

— آه ! آه ! وهذا يقع بعيداً ؟

— حوالي ثلاثة آلاف فرسخ .

— أو هو ! مسافة لاتذكر ! ولمَ جئت إلى هنا ؟

— للسبب نفسه الذي جاء بكَ إلى هذا المكان ، تماماً .

— إيه ! إيه ! إذن فأنت الآخر قد طردوك من قريتك بجريمة السرقة ؟

فسألت ، وأنا أحسُّ أني أغامر على حافة هاوية :

— كيف هذا ؟

— َوي ! إذا كنت أنا قد جئت إلى هنا ، فلأنهم طردوني من قريتي بجريمة السرقة ، ولما أنك تقول إنك جئت إلى هنا للسبب نفسه . . .

وانفجر ضاحكاً ، سعيداً بمكره .

كان رفيقه لا يبرح جالساً في صمت ، يبتسم بخبث وهو يغمزه بعينه .

بدأت أقول :

— انتظر ، انتَ . . .

— ليس من وقت للانتظار ، يا أخيَّ ! يجب أن نعجل . تعال إذن ، خذ عربتي واتبعني . إنها صالحة ، عربتي ، ومتينة . تعالَ .

ذهبنا . هممت أن آخذ عربته عندما أسرع يقول لي :

— انتظر ، سوف أجرها بنفسي . أعطني عربتك ، وسوف نضع عربتي فيها ، وهكذا سوف تتنزه في مركبة ، الأمر الذي سيريحها قليلاً .

بدت لي هذه الملاحظة مشبوهة ، وبينا كنت أسير إلى جانبه ، رحت أتفحص باعتناء عربته المضطجعة ودولابها في الهواء ، راغباً أن أتأكد من أنهم لا يهيئون لي مداعبة شريرة ما ؛ ولكني لم ألاحظ شيئاً ، اللهم سوى أني قد أصبحت ، بغتة ، موضوع اهتمام الجميع ، هذا الاهتمام الذي كانوا يخفونه ، لكنهم

يفعلون ذلك بخراقة ؛ كان هـذا الاهتمام يبدو لي بـكل وضوح في غمزات الأعين وفي إيعـاءات الرؤوس ، وفي الهمس المشبوه الذي يرافقني . وأدركت أنه ينبغي لي أن أفتح عينيّ جيداً ، فرحت أنتظر في يقظة شيئاً لا بدّ أن يكون ، كما تشير بدايته ، مثيراً للفضول كثيراً .

قال الجنوبي :

— لقد وصلنا .

ورفع عربته ومررّها إليّ ، قائلاً :

— إملأ ، يا صاح !

ألقيت نظرة دائرية حوالي . كان الجميع يشتغلون في حمية . فشرعت أمـلأ العربة . ما كان يُسمع شيء سوى أزيز الملح المتساقط من المجارف ، فكان هـذا السكون يئيد على صدري بارهاق . وقلت في نفسي إني أفعل حسناً ، بعـــد كل شيء ، بمغادرة ذلك المكان .

وصاح متى ، الرجل الأزرق ، آمراً :

— هيا ، هيا ، إلى العربات ! ما بالكم تنعسون ؟ إدفع !

أمسكت بذراعيّ عربتي ، ورفعتها بجهد ، ودفعتها إلى الأمام ... وإذا ألم حاد في راحتيّ يجعلني أطلق صيحة وحشية وأنتزع يديّ من عربتي التي تركتها تقـع أرضاً . وهاجمني الألم نفسه ، لكنه كان أكثر عنفاً بمرتين ؛ لقد انتزعت جلد كلتا راحتيّ ، المقروص بذراعيّ العربة .

تفحصت الذراعين ، وأنا أصرّ بأسناني غضبـاً وألماً ، فرأيت أن الجوانب منها قد شقت بالمطرقة وملئت الشقوق بشظايا خشبية . ولقد أنجز هذا العمل بمهارة فائقة حتى ليصعب جداً ملاحظته ، فـكان الفخ حاذقاً حتى درجة بعيدة . كانوا ينتظرون أن تثب شظايا الخشب من الشقوق عنـد ما أشدّ على الذراعين بقـوة ،

وتقرص راحتي إذ تتحرر ، الأمر الذي تحقق حسب تقديراتهم بالضبط . رفعت رأسي وتطلعت فيما حوالي ، فاذا رنين الضحك والصفير يصفعان وجهي من كل حدب وصوب ، فلا يحيط بي سوى وجوه قاسية رين الظفر في سيماها ، بينما الوكيل يصب علينا من قمة هرمه شتائمه القذرة ، فلا يأبه لها أي إنسان على الاطلاق ، لأني كنت مركز اهتمامهم جميعاً في تلك اللحظة . ونقلت حولي نظرات مذهولة ومجنونة معاً ، وأحسست شعور الاهانة والرغبة في الانتقام والحقد على هؤلاء الناس تغلي جميعاً في باطني أكثر فأكثر . أما هم فكانوا يعطرونني ، وقد تجمهروا قبالتي ، بالشتائم دون حساب ، ولا يكلّون من الضحك مني .

واجتاحتني رغبة جموح — جموح جداً حتى قد آلمتني حكمياً — في إهانتهم وإذلالهم ، فهتفت بهم وأنا أهددهم بقبضتيَّ المنضمتين :

— يا أوغاد !

ومشيت عليهم وأنا أشتمهم بمثل فظاظتهم وقسوتهم .

وانتابهم مثل الانتفاض ، فتراجعوا أمامي وقد اضطربوا ، ما عدا عملاق الجنوب ومتى ، الرجل الأزرق ، اللذان لم يتزحزحا من مكانهما قيد أنملة ، بل شرعا يشمران عن سواعدهما ببرود .

كان الجنوبي يتمتم بصوت خفيض مسرور ، دون أن تغادرني أنظاره لحظة واحدة :

— هيا ، تعال ! هيا ، هيا !

ونصحه متى قائلاً :

— أنهِ حسابه ، بفٍ ، ياجبرائيل !

هتفت بهم :

— لمَ هذه المضايقات ؟ ماذا فعلت لكم ؟ لماذا ؟ أفلست : إنساناً مثلكم ؟

وهتفت بكلمات أخرى أيضاً ، سخيفة ، خرقاء ، خبيثة ، تستدعي الرثاء ، وأنا أنتفض بغضب مجنون ، يقظان على الدوام خوفاً من الوقوع فريسة مقلب جديد يدبرونه لي ، بيد أن هذه الوجوه البلهاء ، الخالية من كل تعبير ، لم تعد تنظر إلي بمثل تلك اللامبالاة ، بل كان شيء ما ، أشبه مايكون بنوع من الشعور بالذنب تجاه هذه اللعبة السخيفة ، يمر في بعض تلك الوجوه ويغشاها .

وتراجع الجنوبي ومتى أيضاً ، وجعل متى يشد قميصه ، بينا طفق الجنوبي ينبش جيوبه .

وكنت لا أني أسألهم :

— ولكن لماذا ، فلنر ؟ لماذا ؟

كانوا يلوذون بصمت كئيب . وكان الجنوبي يلفّ لفافة وينظر إلى قدميه ، بينا أصبح متى ، بصورة مباغتة ، خلف الجميع ، وطفق الآخرون يستعدون للعودة إلى عرباتهم دون أن يقولوا شيئاً وكان الوكيل يقترب من تلك الجماعة ، صائحاً ملوحاً بقبضتيه . ولقد حدث هذا كله بسرعة عظيمة ، بحيث أن النساء اللائي كنّ ينشرن الملح على مسافة عشرين خطوة منا ، واللائي اندفعن صوبنا لما بلغهن صراخي ، لم يصلوا إلينا إلا والرجال يتبعثرون عائدين إلى عرباتهم . وبقيت وحيداً ، يزودني إحساس مرير بالضيق الذي لا أستحقه والذي لم أنتقم له ، الأمر الذي كان يضاعف في ضيقي وألمي . وكنت أريد أن أنال جواباً على أسئلتي ، وكنت ظمآن إلى الانتقام ، فهتفت بهم :

— قفوا ، أيها الفتيان !

فتوقفوا ونظروا إليّ بكآبة كثيرة .

ـــ أوضحوا لي لماذا عذبتموني ؟ فأنتم تملكون ضميراً على أية حال .

ولاذوا بالصمت . فكأن هذا السكون يجيب عنهم ... وعندئذ طفقت أتحدث إليهم وقد هدأ روعي قليلاً ، وبدأت حديثي بالقول إني إنسان مثلهم ، وإن بي مثل رغبتهم في الطعام ، وإنه لابد لي في سبيل ذلك من العمل مثلهم ، وإني جئت إليهم كما لو كانوا أهلاً لي ، على اعتبارهم القوم القريبين مني بظروفهم وأحوالهم ، وإني لا أعتبرهم أدنى أو أسوأ مني على الاطلاق ...

وقلت لهم :

ـــ نحن جميعاً متساوون . وينبغي لنا أن نتفاهم جميعاً ونتعاون في حدود وسائلنا وإمكانياتنا .

وأصغوا إلي بانتباه ، متكاتفين حولي بيد أنهم كانوا يهربون من نظراتي . ولاحظت أن كلماتي تفعل فيهم . فكان ذلك يلهمني . وحين ألقيت بأبصاري فيما يحيط بي رسخ إيماني بذلك أكثر فأكثر . واجتاحني إحساس بالفرح الحاد الشديد . فارتميت على كوم من الملح ورحت أبكي . كان البكاء ممكناً على الأقل ! ..

وإما رفعت رأسي لم يكن حولي إنسان البتة . كان العمل قد انتهى ، والشغيلة جالسين هناك ، قرب هرم الملح ، جماعات جماعات مؤلفة من خمسة أو ستة أشخاص . وكانت هيئاتهم ترتمي على القاع الزهري للملح المضاء بأشعة الشمس المتطفلة لطخاً عريضة مشوهة قذرة . وكان كل شيء ساكناً ، ونسيم عليل يهب من ناحية البحر ، وسحابة صغيرة تحلق على مهل عابرة السماء ، تنفصل منها

دفقات خفيفة من الدخان الشفـــاف ثم تتلاشى ، متبعثرة إلى قاع السماء اللازوردي . و كان هذا كله يطفح كآبة ..

نهضت واتجهت صوب الهرم وقد عقدت العزم أن أودعهم وأذهب إلى كوخ الصيادين ، وحين اقتربت من الجماعة المؤلفة من الجنوبي ، ومتى ، والوكيل ، وثلاثة مشردين شيوخ متيني البنية ، نهضوا واتجهوا للقائي ، وقبل أن أتمكن من مخاطبتهم مدّ متى يده إلي وقال لي وهو يتطلع في وجهي :

ــ إذن ، إليك ، أيها الصديق : سوف تذهب في حال سبيلك وتتركنا . أجل ! و ... من أجل الطريق ، إليك . . . لقد جمعنا لك بضعة قروش ، خذ ، أمسك !...

كان في راحة يده بضع قطع برونزية ، وكانت يده ترتعش وهو يمد تلك القطع لي . وفقدت أعصابي ، فنظرت إليهم دون أن أفقه شيئاً مما يجري لي . وكانوا وقوفاً ، قد أطرقوا برؤوسهم في سكون ، وراحوا يصلحون من وضع أسمالهم بخراقة ودونما أيه ضرورة ، فهم يشدونها ، ويتأرجحون ، وينظرون جانباً ، وكل شيء فيهم ، كل حركة من حركاتهم وكل إشارة من إشاراتهم ، يعبر عن اضطراب شديد ، وعن الرغبة في الخلاص من أمري بأسرع وقت مستطاع .

قلت لهم ، وأنا أدفع يد متى عني :

ــ لا أريد هذا !

ــ بلى ، خذ ، وإلا كان ذلك إهانة لنا . حقاً ، ما عسانا نكون ، نحن الآخرين ؟ نحن ، كما ترى ، ولنقل ذلك بصراحة ودون مواربة ، ما كنا نرى شيئاً من ذلك في الأمر كله ... نحن الآخرين ، أيها الأخ العجوز ، نفهم جيداً أننا أسأنا إليك . ولكن هل ذلك صحيح ، إذا نظرنا فيه جيداً ؟ كلا ، يا صاح ،

أبداً . ذلك أن الحياة هي المجرم الحقيقي ! وما هي حياتنا ؟ سجن رهيب ! العربة التي تزن قنطاراً ، والأرض التي تمزق قدميك، والشمس التي تشويك مثل النار طوال النهار ، واليوم لا يدرُّ سوى نصف روبل لا أكثر ! أفلا يكفي هذا كي يجعلنا مثل الحيوانات ؟ إن المرء يعمل ، ويعمل ، ثم يشرب أجرته — وإلى العمل من جديد ! وهذا كل شيء ! وحين تعيش خمس سنوات في هذا النظام ، فانك تفقد إذن حتى مظهر الكائن الانساني — حيوان مفترس ، هذا كل ما تصير إليه ! نحن الآخرين ، يا صاح ، نسيء إلى أنفسنا أكثر مما نسيء إليك وبصورة أشد إيلاماً ، ومع ذلك فنحن جميعاً نعرف بعضنا بعضاً ، بينا أنت أجنبي غريب عنا ... فلماذا نشفق عليك ؟ هذه هي القضية ! لقد تحدثت هناك . . عن أشياء كثيرة ، ولكن ماذا ؟ مما لا ريب فيه أنك نطقت بكل ذلك بصورة جيدة . . . وإنه لصحيح ، ومحتمل ... ولكن ، هل ترى ، هنا ، ليس هذا بالمكان الملائم لذلك كله . لا تغضب . . ما كنا نقصد سوى المزاح ، فان لنا قلباً على أية حال .. إيه ! بلى ! هيا ، إذهب حيثما يروقك ، مع حقيقتك ، ونحن سنبقى ههنا مع حقيقتنا . هيا . خذ هذه القروش ! وداعاً ، أيها الصديق ! نحن لسنا بمذنبين في حقك ، ولا أنت بمذنب في حقنا . نحن لم نتفق ، وهذا كل شيء ، وهذا يكفي ! ما هو جيد ليس من حقنا ، وأنت لم تُصنع كي تبقى هنا . وهل يمكنك أن تتلاءم معنا ؟ نحن الآخرين ، يا صاح . قد ارتبطنا ببعضنا بعضاً ، هكذا ! وهذا أنت قد جئت تندس بيننا ... دونما تفكير ... ما كان يمكن أن ينتج شيء جيد عن ذلك . . وهكذا ، فاتركنا ! اذهب في سبيلك !.. وداعاً !

وحين رميت أبصاري فيما حولي ، اقتنعت بأن الجميع متفقون في الرأي مع متى . فألقيت بخرجي على كتفي وتهيأت للرحيل ؛ وعندئذ قال الجنوبي وقد أوقفني ممسكاً بي من كتفي :

ـ انتظر ، يا رجل ! دعني أقل كلمتي أنا الآخر ؟ لو حدث ذلك مع أي إنسان آخر ، غيرك ، لأرفقته بحذائي. هل فهمت ؟ وهؤلاء نحن نتركك تذهب بهدوء ، بل لقد بلغ الأمر بنا أننا أعطيناك قروشاً من أجل طريقك ، وكان ينبغي عليك أن تشكرنا من أجل ذلك !

وبصق جانباً ، وراح يفتل خاتمه في إصبعه . وهو يتطلع حواليه والظفر يبين في سيمائه ، فكأنه يريد أن يقول : أنظروا واعجبوا بمبلغ ذكائي !

وأسرعت أودعهم ، مرهقاً تحت عبء سائر هذه الانطباعات ، ورجعت عن طريق الشاطىء إلى الكوخ الذي قضيت الليل الماضي فيه . كانت السماء صافية حارة ، والبحر مقفراً مهيباً ، والأمواج الخضر تتدحرج بصخب عظيم عندمي . . . وكنت أحس . ولا أدري لماذا ، ألماً وخجلاً لا يطاقان ، كنت أسير بخطاً وئيدة كئيبة على رمال الشاطىء ... والبحر يشع إلى الشمس بسلام ... والأمواج تتنافس في موضوع حزين عصي على الادراك ...

وبينا كنت أقترب من الكوخ ، نهض صديقي الصياد كي يستقبلني ، وهتف بلهجة الظافر الذي يرى ان نبوءاته قد تحققت :

ـ إذن . ياصاح ، فقد كان ذلك مالحاً ؟

فرميته بنظرة خاطفة ولم أقل شيئاً .

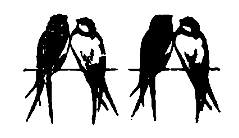
فقال ، بثقة ، وهو يتفحصني :

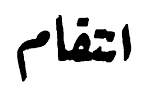
ـ أوه ! أوه ؟ مالحاً قليلاً ، فيما أرى ؟

وأضاف :

ـــ أنت جائع ؟ اذهب وكل شيئاً من حساء السمك ! لقد طبخنا منه ما يكفي لفرقة كاملة .. ولقد تبقى نصفه . هيا ، وانفخ على ملعقتك ! إنه حساء شهير .. بكل مافيه من خلائط أحياء البحر .

وبعد دقيقتين كنت أجلس في ظل الكوخ ، شديد القذارة ، عظيم الاعياء ، فائق السغب ، وكنت أطعم حساء السمك ، وفي قلبي غصة من الحزن والالم .




انتقام

مقارنة

وُنغ ! وطـار الصوت من الناقوس ، وسلك طريق الوادي متلاشياً بكآبة جمـة . ورنّ صوت ثانٍ ، وثالث . . . وسالت موجة البرونز بأسرها هنالك ، صوب ذرى الجبال المستكينة إلى الصمت وهي تتأمل بهدوء ومهابة السماء العميقة الزرقاء ، الخالية من السحب .

كان الجبل الأعلى يلبس طاقية من الثلج ، وهو الآونة ، تحت شعاع الوداع الذي يرسله الغروب ، يتألق مثل الذهب الأحمر . لكنه هو ، الشعاع الأخير ، ما ينفك يزداد شحوباً ؛ وكان الوادي الذي يحمل جانباه ، هنـا وهناك ، بعض أكواخ الجبليين يزداد ظلمة شيئاً فشيئاً . وفي العمق يتدفق تيار صغير هادراً، ولمياهه في الظلِّ بريق الفولاذ البارد ؛ ولم يك صوت التيار حياً فرحاً ، بل كئيباً بصورة يائسة ، تتردد فيه أحياناً أصوات زاعقة شريرة ، تختلط بصدى الناقوس الذي يبتلعها ويذيبها في أمواجه ...

وكان الغروب ، في القمة ، قـد انطفأ ، والوادي أضحى أشبـه ما يكون

بحلق هائل، فاغر شدقيه، على أهبـة الاستعداد لابتلاع النهار الذي يتلاشى .
ولم يكن الكوخ الجيورجي الصغير المختبئ فيه قد نام بعد، بل إن أصداء أصوات بشرية وخوار بقر تتصاعد منه بين الفينة والفينة . . . فاذا صكت سمع العجوز مكسيم جوادزه، وهو مختبئ هنالك عالياً خلف صخرة، طقطق بأصبعه على أستونه البراق، وألقى من تحت حاجبيه الكثيفين الأبيضين نظرة نافذة في اتجـاه القرية، هنـاك، حيث يصعد صوت النواقيس النحاسي وهمس السيل الغاضب جميعاً . كان الوقت يتراءى له طويلاً بصورة لا تطاق، حتى كاد يصدق أن هذا النهار يتعمد الابطاء في الانطفاء، فهو يريد أن يمنعه، هو العجوز الهرم، من دفع دين قديم، دين الدم ... ولكن لا ! ليس ثمـة شيء يستطيع أن يمنعه . لـقد اتخذ قراره، وسوف يتوصل إلى غاياته، ولو اضطر إلى الانتظـار طوال أسبوع وهو متجوّر هناك، بين الأحجار، فوق الهاوية ودرب المـاعز التي تزين بشريط ضيق حافتها القاطعة . وإما يتخذ الآخر، ذلك الكلب اللعين، هذه الدرب قاصداً الجبل، فسوف يشدّ، هو العجوز، بندقيته بقوة بين يديه، ويرسل إليه، في عطفه الأيسر، مكان القلب مباشرة، رصاصة واحدة. وسيكفي ذلك كي يرميه عن حصانه في أعماق الهاوية، فلا تبقى إذن عظمة واحدة سليمة من ذلك الشيطان الشرير .

رومانوز جفاتوا ! وتخيل مكسيم الصيحة التي سيطلقها جفاتوا هذا، قاتل ابنه، وكيف سيلقي برأسه إلى الوراء ويسقط في الهاوية العميقة . لسوف يسقط فيها بكل تأكيد، بسبب ضيق الدرب الشديد في هذه البقعة ! وافترّت شفتاه عن ابتسامة شبعى، وشرع يراقب قاع الوادي من خلال ضباب القيلولة السابح . إن أناساً، هناك، يخرجون من أكواخهم، صغـاراً جداً، يمشون كثيراً على

السخرية ، ويذهبون الواحد تلو الآخر نحو الكنيسة حيث يدعوهم الناقوس المقنع .

كان السيل يزمجر دون انقطاع ، وموج الظل يتكاثف فيضاعف من صعوبة رؤية شريط المياه المفضض . ولاحقه مكسيم الشيخ بعينيه حتى اختفى بين الأحجار ، ثم نزع طاقيته المصنوعة من الفرو ، وجثا على ركبتيه .

قال بصوت خافت :

– يا رب ! أنت تعرف ما جئت أصنع هنا، وأنا أعرف ذلك أيضاً . لا تمنعني عن ذلك ، يا رب ! ما يجب أن يحدث سوف يحدث ، فساعدني على إنجازه إن كانت رحمتك بجانبي ! أنت تعلم جيداً أي حب كنت أحمل لابني . اصغيري فانو الجميل ، وقد رأيته متمدداً على الأرض دامياً ، وأنا كنت أبكي على جسده ، وذلك الشقي رومانوز هرب إلى الجبال بالخنجر الذي طعنه به . لقد رأيت ذلك كله ولم تضع في سبيله أي عائق ! لا تمنعني عن العمل بدوري، يا رب ! أنت عادل ، وسوف تكون إلى الأبد عادلاً ؛ وعندما أجيء، أنا العجوز، إليك الأمر الذي لن يتأخر بعد الآن — فسوف تدينني بعدالتك ! غداً هو يومك – فاصفح عني إذن !

وبعد أن ظل جاثياً بضع لحظات أخر ، لبس طاقيته من جديد ، وأخذ بندقيته بين يديه ، وعاد يمعن النظر في سفح الوادي .

كانت النجوم تشتعل ، فوق الهاوية ، الواحدة تلو الأخرى ، والسماء تهبط أكثر فأكثر متخذة مظهراً أعذب ، مخملياً ؛ وكان القمر يصعد على مهل من وراء القمم المكللة بالثلج ، فتتألق هذه القمم ببريق أزرق مفضض ؛ وكانت شجرة قرانيا متينة توشوش في الريح بصوت مخفوض ؛ وسكت قرع الأجراس الايقاعي ، وتاهت ضربة الناقوس الأخيرة طويلاً فوق الوادي ، تفتش عن بقعة تموت فيها ؛

فكانت الصخور المتوحشة تصدُّها ، حتى اختفت أخيراً ، ضائعة في مداخل الجبال وأخاديدها . وهناك في الأسفل ، انطلق شخص ما يعزف على الطنبورة ، يرافقه آخر بغناء شاكٍ لطيف . . . وكانت أذنا العجوز مكسيم مرهفتين تبلغهما أنغام الأوتار المعدنيةّ المتناسقة تارة ، وتوسلات المغني وشكاواه تارة أخرى . إنه يغني بصوت عذب مرن أسفه على شيء مجهول أضاعه ، ويبكي ويتوسل أن يردوه إليه . إنه يغني قلبه الفتي الذي يقرضه الحزن والألم — فترتعش الأوتار وتغني معه ، ترافقه حيناً بصوت خفيض ، وتغطيه حيناً آخر بموسيقى عنيفة جموح . وهناك في الأسفل ، كانت الظلمة ترين الآونة حتى لم يعد في الامكان رؤية شريط السيل ولا اللطخ الرمادية الشاحبة التي تشكلها الاكواخ على قاع الصخور البني الغامق : لم يعد يرى شيئاً أللهم سوى نارين حمراوين ضاربتين إلى الصفرة ترتعشان بخوف في أعماق الدياجير .

وغادر مكسيم العجوز الملجأ الصخري ، وارتفع على ساعديه ، وأرهف أذنيه ممسكاً أنفاسه :

— إنه هو الذي يغني ! هذا صوته ، صوته المحتال ، صوته الثعلبي . إنه يرسل الحنان في قلوب الذين يسمعون ارتعاشاته ورناته ، ثم يصير جافاً قاسياً مثل قعقعة الخناجر . إنه هو ، إنه جفاتوا الذي يغني . هل ستأتي سريعاً ؟ هل ستأتي سريعاً ، أيها الملعون ؟

كان مكسيم يصفر بهذه الكلمات من بين أسنانه ، وعيناه تترقبان ، تجهدان أن تميزا خلال الدياجير حدود الدرب التي يسلكها الناس من القرية في طريقهم إلى العالي .

وانقطع النشيد والموسيقى في الأسفل . انقطعت الأغنية في ملئها : كانت نغمتها الأخيرة عالية جداً ، وكانت تريد أن تصعد إلى أعلى أيضاً ، لكن المنشد أعوزه الاندفاع أو الصوت ، فاذا الأغنية تتكسر بوضوح غريب ، دونما أي هدى . كنت تقول إنها سقطت في تيار السيل ، وإن هذا السيل قد ابتلعها تحت

زبده . وظلت أوتار الطنبورة تهتز بضع لحظات أخر بارتعاش متـــأمل ، ثم سكتت بدورها .

وارتفع في السكون رنين ضحكة ، وصهيل جواد ، وصيحة عنيفة نفد صبرها تحث الجواد رددهـــا الوادي جميعـاً بصدى أصم . . . وطرقت حوافر جواد الحجارة ؛ كنت تميز تنفس الحيوان وهدير الحصى الصغيرة المتدحرجة في الهاوية . هذا هو ! إنه هو ، إنه هو ! وأطبق الشيخ على سلاحه ، وتمدد على الأرض ، وأسند الأستون إلى حجر ، ولاذ بالهدوء ؛ لسوف يـدور الآن مرة ، ثم مرة أخري ، وسوف يصير في الخلف ثم في الأمام ، ويصعد ، ثم يعاود اللف والدوران : هذه الدرب لا تكف عن الانعطاف إلى هذه الجهة تارة ، وإلى تلك الجهة تارة أخرى ، وليس خط مستقيم ، بين منعطفين ، يتجاوز ثلاثين خطوة من خطا الحصان . ولما يزل وقت يكفي لترديد صلاتين قصيرتين قبل أن يصل الفارس إلى ارتفاع فوهة البندقية . وجعل العجوز ، وقد نزع بسرعة طاقيته المصنوعة من الفرو ، يصلي بصوت خافت ، وعيناه في السماء ، منسّقاً طول الصلوات مع وقع خطوات الحصان . . .

— هذا هو !

وانتهت الصلاة . . . وتضغط يـد الشيخ على البندقية ، وقـد انحنى نحو الأمام في تلهفه الجموح لرؤية قاتل ولده . هذا هو !

كان الفارس المنبثق بصورة مبـاغتة من وراء صخرة كبيرة مزواة تشـكل زاوية الدرب يغني : « لا يمكن للانسان أن يحبّ ، دون أن يتعذب القلب منه ... » كان جواده يضرب الحجارة بحافره على مهل وبصورة منتظمة ، ويصهل بلطف وهو يهزّ رأسه ، فترتفع لبدته الكثيفة وتسقط من جديد على عنقـــه المقوس الجميل . . . وكان الفارس يقتعد السرج براحـة وتـكاسل ، وقد رفـع وجهه ،

وراح ينظر إلى السماء حيث تلمع كثرة من النجوم ببريق حنون متأجج ؛ وكان يغني في سرّه ، ممسكاً العنان بيد ، ضارباً الايقاع باليد الأخرى على غمد خنجره : « ما جدوى البكاء ، يا قلبي ؟ الأفضل أن تحب فتاة أخرى . . . » .

كان العجوز ينظر ، مطبقاً فكيه بشدة ، ملاحقاً بفوهة بندقيته الشبح الرشيق ، شبح قاتل ابنه المغمور بنور القمر . كانت فرحة وحشية تعتصر القلب منه ، ولقد كان يود أن يصيح ، وأن يلقي بنفسه عليه ، وأن يمزق هذا الفتى الجميل بأسنانه وأظافره ، وأن يعذبه ، هو المحبوب من النساء ، الكثير الجرأة ، العظيم العز . ولقد كان فانو شبيهاً به كل الشبه .

غمغم مكسيم :

— آه ! إنك تتأرجح بفخر على سرجك ! انتظر لحظة ، اقترب ، هيا اقترب ! أيها الملعون ! . . .

وكان الآخر يخبّ ، وهو يغني :

« وإذا خدعتك هذه الأخرى ، فانك واجد فتاة ثالثة . »

قفز العجوز مكسيم مثل قط على الدرب ، أمام منخري الجواد، وهتف وهو يتكتف بندقيته :

— أيها الأفّاق رومانوز ! هذا أنت قد وقعت ، إيه ، أيها الملعون ؟

كبا الحصان المذعور المبغوت ، وكأنما أصابته رصاصة ؛ وأطلق الفارس صيحة متوحشة ، وتدحرجت الحجارة تحت أطراف الجواد بصخب عظيم في الهاوية ، وفي أعقابها الجواد نفسه ، الصاهل ألماً ، ومعه رومانوز ، المتعلق بعنقه ، المطبق عليه بحركة تشنجية ! لم يجد الشيخ الوقت كي يضغط على الزناد ، فأرخى بندقيته ، ورفع يده إلى جبينه المغطى بكتل كثيفة من الشعر ، واقترب من حافة الدرب . كانت الحجارة ما برحت تتدحرج على المنحدر الوعر ، والمرء

يستطيع أن يميز في ملء الضوضاء التي يثيرها سقوطها صيحة الألم الضعيفة ، صيحة الجواد المؤلفة من الزمجرة والصهيل جميعاً . وكان القمر والنجوم تتألق على الدوام بنفس البريق الهادىء النقي ، وإن كانت تفرجت على هذا المشهد بأسره. وعند حافة الدرب كان العجوز مكسيم ينتصب ، معتمداً بندقيته ، ينظر إلى الأسفل . كانت الظلمة راعبة هناك . وكان المنحدر مزروعاً بصخور حادة ، ينمو بينها هنا وهناك بعض الأدغال الهزيلة ، ثم يذوب كل شيء في ظل كثيف واحد ، ظل عميق لا تسبره العين ، تتصاعد منه بلطف شكوى الحصان ، نصفها زمجرة ونصفها صهيل . وكان هدير السيل يدفُّ من القرية ، وقد خفت الآن : إن الليل يئيد عليه ؛ ولم يك يُسمع أي شيء آخر في أي مكان ؛ ولا أي صوت على الاطلاق .

قال العجوز بصوت مخفوض :

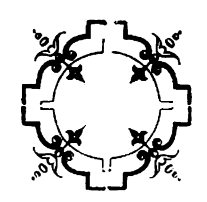
— وهكذا !

صعَّد زفرة ، ورمى بندقيته على كتفه ، ثم وضعها على الأرض ، وجثا وقال بصوت مرتفع :

— شكراً ، إيه يا إلهي ، لأنك لم تسمح أن أدنس يدي بدم عدوي النجس ، ولأنك عاقبته أنت نفسك فرميته في قاع الوادي ! إنه الآن ممزق إرباً إربا . شكراً ، إيه يا إلهي ، يا ربي !

بعد ذلك سلك الدرب نحو أعالي الجبال . كان شبحه العالي ، السابح في نور القمر الجميل المفضض ، ذا جمال فوق طبيعي ، وأستون بندقيته الأملس يتألق ببريق بارد . كان الشيخ يسير من حجر إلى حجر بخطاً هادئة ثابتة ، وما أسرع أن اختفى وسط الصخور . وعندئذ أصبح كل شيء هادئاً بصورة مميتة ، وهدير السيل الأصم يُشدد أيضاً على هذا السكون . وسقطت أشعة القمر

على الدرب من خلال أغصان شجرة القرانيا وشجرة الكلاب المنيدة الناميتين بين الصخور ، راسمة عليها تخاريم من الظل ؛ وكانت هذه التخاريم تزحف فكأن الحياة تجري فيها ، تصعد وتهبط لدى أقل نسمة تحرك الأغصان . . . وهذه شكوى الحصان المتكسرة على الصخور الحادة ، ونصفها زمجرة ونصفها صهيل ، تصعد مرة أخرى ، المرة الأخيرة ، من الهاوية المليئة بالظل حتى حفافها نحو العالي حيث الظل أقل كثافة .



٢

ـــ المسافرون إلى أليوشكي ! إلى أليوشكي !

تلك هي صيحة أصحاب الزوارق الصغيرة الذين ينقلون من ضفة إلى ضفة البضائع والمسافرين من خيرسون إلى أليوشكي ، وهي مسافة اثني عشر فرسخاً فوق الدنيبر ورافده كونيوك المتعرج المغطى بالقصب .

المسافرون إلى أليوشكي ! إلى أليوشكي !

وصبغت شعاعات الشمس الأخيرة ، للحظة قصيرة ، ذرى أشجار الحور على الضفة الأخرى ، مقابل المدينة ، باللون القرمزي ، وانزلقت على أمواج النهر السريعة وتلاشت . وتعكرت السماء . وكان ظل المساء الدقيق اللطيف يثقل بعذوبة على المدينة ، والنهر ، والأشجار التي تحفه ، بينا تجار الفصول الأربعة يسرعون ، على الضفة التي من ناحية المدينة ، فيرتبون منتجاتهم . إن السلال الكبيرة المحتوية على البندورة الوردية ، المختلطة بالباذنجان البنفسجي الغامق ، وخضرة البقدونس ، وأكوام الجزر ، تتكدس بسرعة ، تاركة هنا وهناك لوحات كئيبة من الأرض السوداء ؛ وهذه الضفة المرتفعة تقفر ، بينا أصحاب الزوارق ينادون المسافرين ؛ وكانت بعض الزوارق لاتني تغادر الضفة ، ملأى بالناس والسلال ؛ وكان الهواء يرن بأصداء الاصوات ، وبصخب المجاذيف التي تقرع

الماء ؛ وكانت الزوارق تختفي ، الواحد تلو الآخر ، عند منعطف النهر ، بينما خاتم الاعياء ينطبع ، مع الظل ، على كل شيء هناك .

وكانوا قد بدأوا في المدينة يشعلون الأنوار ، فهي تنبثق ، مباغتة فرحة ، ههنا تارة ، وههناك تارة أخرى ، فيما النجوم تضيء في السماء أيضاً ، الواحدة في أعقاب الأخرى .

وكادت الضفة تقفر من كل نفس حية ، ما عدا بعض الأشباح القائمة الراكضة في عجلة من أمرها ذات اليمين وذات اليسار ؛ ولقد اختفت هي الأخرى ، وكأن الظل قد ابتلعها .

وكان أربعة من أصحاب الزوارق قد بقوا دون زبائن ، قعد ثلاثة منهم في زوارقهم ، أحدهم عند المؤخرة ، والاثنان الآخران في وسط الزورق ، على الدكة الخشبية ، مستديرين نحو النهر ، يغنيان أغنية ، في استغراق ، وكأنهما ينشدان رغماً عنهما . وإما كان أحدهما يغني، كان الآخر يلوذ بالصمت ، فاذا سكت الأول ، قاطعاً أغنيته أحياناً في ملء إحدى النغمات ، كمل الثاني النغمة عنه فتابع الأغنية بصوت مخفوض ، وبكآبة كثيرة ، ليعود فيكف عن الغناء بعد حين ، بصورة مباغتة غريبة مثل رفيقه . عندئذ كان الأول يعاود الغناء ، فينتشر نشيده شريطاً عذباً متصلاً فوق الأمواج ذات البريق الفولاذي البارد الأصم؛وكانت الأمواج تتواثب على الضفة ، ترد عليه بصوت ناعس .

وأشعل الثالث ، ذلك الذي كان يجلس في المؤخرة ، لفافة تتأجج نارها الصغيرة تارة وتخمد تارة ، فاما تتأجج تضيء أنف المدخن الأحمر الكبير ، وخديه المغطيين بالثآليل، وشاربيه الأصهبين الكثيفين .

وكان الرابع يقف على الضفة المرتفعة ، منعزلاً ، معتمداً مجذافاً ، ينظر في اتجاه المدينة . وانبثق شاعل الأضواء من الدياجير وأشعل في عجلة مصباحاً ،

فسقط شعاع من النور على شبح صاحب الزورق فأناره. كان رجلاً قصير القامة، مربوعاً، يبلغ الخامسة والأربعين تقريباً، كثيف الذراعين العاريتين حتى المرفقين، يرتدي قميصاً أحمر مفكوك العنق يظهر مذمرة المتين الكثيف الشعر، ويلبس قبعة قديمة من القش، يتفحص من تحت حفافها الممزقة شارعاً فقير الاضاءة يغيب في قلب المدينة.

وكان رجل يقترب صوب الضفة المرتفعة بخطاً سريعة خفيفة، يصفر بمرح وهو يسير. وهذا هو يهبط سلم الضفة، فيتقدم صاحب الزورق لملاقاته.

ــ خذ زورقي، يا صاحب السعادة، إذا تفضلت! أنا لست مجهولاً، فهب لي هذا السرور!

ــ حسناً! إن سعادتي؛ تقديراً لتعارفنا، سيأخذ زورقك. إنما أسرع!

ــ لسوف تكون مسروراً، هذه ليست المرة الأولى التي أنقلك فيها!

ــ حقاً؟ إذن، فليكن!

وثب الزبون بخفة إلى الزورق الذي دفعه صاحبه عن الشاطئ، ثم ألقى بنفسه في خراقة على المقدمة، وجلس إلى المجذافين بعد أن بصق في يديه. وتحرك الزورق، فترنح الزبون، بينما راح المجذافان يضربان في إيقاع الماء الهادر بعذوبة عند الدفة. كانت الأشجار تمد على النهر ظلالها المستغرقة، ونور القمر، المتناوب معها، يرمي عليه لطخاً دقيقة مفضضة. ودخل الزورق في رافد ضيق تحفه على الضفتين جذوع طويلة من القصب الموشوش، وراح ينزلق دونما صوت تقريباً على صفحة المياه الراقدة. ان المجذف يرمي بمجذافيه بعيداً إلى الوراء، فتساقط قطرات من الماء في النهر بصوت عذب يبعث على البهجة، بينما السماء تتأمل الأرض بمليارات نجومها المرحة التي يتألق انعكاسها في المياه الملساء كالمرآة بحزن عظيم وضعف كثير. وفيما عدا ذلك، فكل شيء سلام وعذوبة. وكان

الزبون قد خلع قبعته وتمدد على طوله في المؤخرة، يمزج بين الأحلام والتأملات. هذا النهر وهذا القصب على ضفتيه، ومن ورائه الأشجار الكثيفة السود، ما أعذب هذا كله في النور الرائع، نور القمر البشوش! إن الليل الوليد عظيم النقاء والرطوبة، والظلال التي ينشرها على الأشياء كلها فيما حوله تتأرجح بعذوبة: إن المرء ليتنفس بحرية وراحة، فهو لا يرغب في التفكير في أي شيء، أللهم إلا أن كل شيء رائع جيد. الحياة... هي هذا، الحياة! الزورق ينزلق في سكون على صفحة المياه الراقدة، وهمس القصب يهدهد القلب منك بحنان، وليس سوى لوح خشبي واحد يفصلك عن قاع النهر. هذا كله بسيط، ولينتج عنه أنه ينبغي للانسان أن يعيش بأقصى ما يستطيع من شدة، دون أن يهتم بالعيش أطول مدة ممكنة، فزجاجة من الشمبانيا أفضل من خمس زجاجات من الخمر الأحمر... كان المجذف ينظر إلى المحيا الجميل الأبيض، الدقيق الملامح، محيا الرجل الحالم، ويجذف بحمية ورغبة، منعطفاً بالزورق من حين لآخر، ذات اليمين تارة، وذات اليسار تارة. كان هذا الرافد ينقسم إلى عدة أذرع، مشكلاً جزيرات مغطاة بأدغال تنتصب من أحضانها، نحو السماء، شتلات الحور العظيمة، بينما الصفصاف الباكي يخفض، بكآبة، فروعه المرنة نحو الأرض.

كان الزبون يفكر في أنه فتي محبوب، وأنه غاد إلى موعد مع المرأة التي يحب والتي تنتظره بصبر نافد في جناح صغير غارق في خضرة أوراق السوس والاكاسيا. هناك كل شيء بشوش جميل، وعبير الأزهار يدخل من الحديقة بأمواج عريضة من خلال النافذة المفتوحة، حيث تتأطر السماء بمخمل نيلي اللون! ولسوف تقتعد ركبتيه وتطوق عنقه بذراعيها البيضاوين الرائعتين، وتنظر في عينية بمحبة، وتتأمل باستغراق الحديقة العاتمة والسماء، ثم ترتعش تحت موجة من الحرارة العذبة وتشده بقوة عظيمة بين ذراعيها، ولسوف

يقبلها ، أيضاً وأيضاً . . .

ثمة أناس يجدون هـذا كله باعثاً على السخرية . بلى ، مثل هؤلاء النـاس موجودون ... وإنهم لبائسون ، يبعثون على الرثاء . ولعلهم لا يسخرون إلا بسبب الرغبـة العاتية العنفوان المعتملة في قلوبهم ، الرغبة في تجربة هـذا كله ، لأنهم لم ينجحوا فيه قط . آه ! إنهم إذن يبعثون على الرثاء بصورة مضاعفة !

قال صاحب الزورق بصوت مرتفع :

ــ هذان نحن قد وصلنا !

وتوقف عن التجذيف ، ونزع مجذافاً من مكانه ، وأخذ المجذاف الآخر بين يديه .

قال الزبون :

ــ لقد أوصلتني بسرعة ، فشكراً .

وبينا هو يبحث عن المال في جيبه ، ألقى أنظاره فيما حوله .

سأل مدهوشاً :

ــ ما معنى هذا ؟

كان الزورق يقف جامداً في وسط مستنقع واسع ؛ وكان المـاء الهادئ ، الشديد السواد ، بريق بارد ، وفيما حول ذلك ، على الضفاف ، كانت الاشجـار تؤلف جداراً متصلاً ، وهناك حيث يمتد خيالها على صفحة الماء ، يبدو هذا الماء ذا عمق لا يسبر غوره . وكان السكون يرين فلا القصب يصاعد همسه ، ولا الماء يهدر تحت مقدمة الزورق ، وكان جرس يرن في مكان ما : إن ضرباته ضعيفة ، تكاد ألا تسمع ، تمر مثل تنهيدة فوق الميـاه وتذهب لتموت في الكتلة السوداء المؤلفة من الأشجار المتصلبة في جمودها؛ كان سكون راعب يرين على كل شيء، فارتعش الزبون خوفاً .

سأل بثبات رنَّ وقعه متردداً :

— والمدينة ؟ المدينة ؟

فرددت الضفاف الصدى : « المدينة » ؟

نهض صاحب الزورق ، والمجذاف في يده :

— ما برحت المدينة بعيدة ، وليس لنا ما نصنع فيها . أما أنت ، صدقني ، فقل صلاتك ، وتهيأ . . . ذلك أني سأوجه لك ضربة قوية على قحفك ، و . . ينتهي كل شيء !

وأسند المجذاف إلى كتفه . لقد كان رنين صوته أصم ، لكنه حازم قاسٍ .

تهاوى السيد على الدكة ، وأخذ رأسه بين يديه وهو يتأوه بصوت خافت .

— هيا ، هيا ! أسرع ، إذا كنت تريد أن تموت مسيحياً ! كم من خطيئة تثقل على ضميرك ؟ أتذكر ؟ قل صلاتك ! وبسرعة .

فانتفض السيد ورفع رأسه . كان السكون ، فيما حولهما ، راعباً ، فكل شيء جامد ميت ، بينما أصداء النواقيس تتنهد بعد ، وتسبح فوق المياه صدى في إثر صدى — وهذا الصدى الأخير منها يموت ويتلاشى .

وكان الماء يساقط من المجذاف قطرة قطرة . . . واحدة . . . اثنتان . . . كنت تقول إن هذه القطرات تحصي الدقائق الأخيرة من حياة الانسان.

كان صاحب الزورق يقف منتظراً بصرامة ، ممسكاً المجذاف بيده الواحدة ، وهو يحك بيده الثانية لحيته في شيء كثير من المهابة . كان يبدو أشبه بجلاد وقاضٍ في وقت واحد .

وفيما حولهما ، ليس ثمة صوت البتة !

أخذ السيد يتأوه ، ماداً يديه نحو الشبح الأسود الكئيب المنتصب أمامه ، والمجذاف في يده .

ـــ ولكن لماذا ، فلنرَ ، لماذا ؟... خذ ، إليك بمالي ، كله ... لا تقتلني !... خذ . . .

ومرت التأوهات فوق الماء وضاعت دون أن تترك أثراً في الظل والسكون.

وترنح الزورق : لقد بدل صاحبه القدم التي يستند إليها ، وهـذا هو يعاود الكلام بلهجة صمّاء هادئة :

ـ أيجب حقاً أن أقول لك لماذا، أيها الرجل المتعفن؟ أنت تذكر كاتيوشا، ما ؟ تلك التي كانت خادمة عند أمك ؟ أتذكر ذلك ، إيه ، أيهـا القذارة الصغيرة ؟ من ذلك الذي حمّلها ولداً ؟ ايس أنت ، ربما ؟ وكاتيا ، إيه ! حسناً ، إنها ابنتي ! هل فهمت الآن ؟ آها ! أيها الوغد ، لقد فهمت ! تهيأ ، أقول لك ، وبسرعة !

كان السيد يحملق ، مخلوع الفؤاد ، في وجه ذلك المتكلم على هذا المنوال ، وكان هذا الوجه جامداً ، قاسياً ، ملتوي الشفتين في ازدراء . وما كان هذا الوجه يبدو راعباً حتى هـذه الدرجة البعيدة لو كان يحمل طابع العواطف التي تعبر كلماته عنها : الحقد والجنون .

واجتاح الرجفان السيد وشرع يبكي، متهاوياً عند قدمي صاحب الزورق . وترنح المركب ، وانطلقت تموجات تتلاحق على صفحة المياه . . . كنت تقول إن المـاء يبتسم ابتسامة عريضة ، قاتمة ، مخيفة . جلس صاحب الزورق ، ووضع المجذاف على ركبتيه ، وشخص طويلاً إلى الرجل الذي يتلوى كالحشرة عند قدميه ، مصغياً إلى نشيجه وتوسلاته المحزنة :

ـ دعني أعش ! إذا قتلتني ، فسوف يعرفون ذلك وتقضي على نفسك أنت الآخر . اتركني !... سوف أعطيك كل ما أملك . . . ثم تعال بعد ذلك . . .

وسوف أعطيك أيضاً... كل ما تطلب ! أنت تعلم أني غني... اتركني ! لا تقتلني ، يا صديقي الطيب !

— وابنتي ، إلى مَ تصير في هذا كله ؟ إنها تعيش اليوم مع السادة الضباط . ولقد أدموا حلقها البارحة . أليس ذلك صحيحاً ؟ ومن دفعها في الساقية ، حيث يستطيع أن يصفعها كل من يرغب في ذلك ؟ إيه ؟ أيها الكلب الملعون !

ثم لاذ كل شيء بالصمت .

جنح السيد الممدد في قاع الزورق إلى الصمت ، وكان صاحب الزورق يلوذ بالصمت أيضاً ، ناظراً إليه بابتسامة ساخرة .

لم يكن السيد يأتي حركة ، بينما صاحب الزورق يستدير إلى هـذه الناحية تارة ، ثم إلى ناحية ثانية تارة أخرى ، فيهتز الزورق ، فتنطلق على صفحة الماء ، صوب الضفاف، تلك الابتسامات القاتمة الباردة ... وأخذت الأشجار تهدر على الضفاف. فاجتاحت قشعريرة الماء على حين غرة ، وبدت تلك الابتسامة من المياه أشبه بتكشيرة تأبى أن تنتشر في ضحك صاخب .

— هي ، أنت ! لا بأس ، كفاك تباكياً ! كم تحمل من المال ؟

فقام السيد على ركبتيه بسرعة وأخرج من جيبه رزمة بيضاء من الأوراق، وأخذ يحاول، بحمى وأنفاس لاهثة ، أن يدسها بين يدي صاحب الزورق .

— إليك ! خذ !... هذا كل ما أملك ... الآن... ثلاثة وسبعون روبلاً ... خذ خاتمي أيضاً ... وساعتي . . . خذ هذا ، إنه حلق للآذان . . . كنت أحمله هدية ... خذ ، يا صديقي الطيب ! ولكن ، بحق الاله ، اتركني ! إن بي رغبة عظيمة في الحياة !... يا أخي ! إيه ؟ سوف تتركني ؟

— إخرس ! المال ، حسناً ، إني أريد أن آخذه ، أما هـذا ، بخ ! ما هو إلا قذارات !. . . ما عساني أصنع به ؟ هل أنا لص ، أنا ؟ لست أفهم شيئاً في

أمور السرقة ، فهي ليست مهنتي، وأنا لا أعرف أحداً يشتري مني هذه الأشياء . يحاول المرء أن يبيع ، فيقع في الشبكة . هكذا ...

— والمال؟ المال ، إنك تريده ؟ هذا يعني إذن أني أبقى . . . إنك لن تقتلني ... ما ؟ يا صاحي ، قل سريعاً : لا تعذبني !

فسأل صاحب الزورق :

— وكاتيا ؟

ورددت أشجار الصفصاف ، متسائلة :

— وكاتيا ؟

كان الماء يبتسم ويكشر ... وظل السؤال عن كاتيا دون جواب .

تهاوى السيد من جديد ، بثقل ، وتمدد في قعر الزورق ، رأسه بين يديه .

وأمسك صاحب الزورق بالجذاف ، وتطلع إليه ، ثم بصق في يديه ... وعاد فنظر إلى السيد وقد افترت شفتاه عن ابتسامة عريضة... وقام بحركة حاذقة قوية، فاذا الجذافان في حلقتيها ؛ وضربة واحدة - وهذا المركب يتحرك . ومرّت قشعريرة على سطح الماء : واحد ، اثنان ، ثلاثة ... وشرع الجذافان يقرعان الماء بايقاع من جديد، فانطلق الزورق كالسهم على صفحته الملساء الشبيهة بالمرآة . . . وكان الماء يهدر بلطف ومرح .

وما كان السيد يأتي حركة .

— حسناً ، إليك ، أيها الصديق ! سوف تنهض ! لقد حان الأوان لذلك ، لا بأس ! لا تخف ، لن يصيبك مكروه ، فقد كنت أمزح . أتظن إذن أنه يمكن قتل إنسان هكذا ؟ كلا ، يا صاح ، تلك قضية هامة ، وهي ليست في متناول يدنا . أما عن الخوف الذي سببته لك ، فاني أسألك العفو عنه ! ولكن ماذا ، إنه بؤسنا الذي يصنع هذا كله ، وحياتنا الجهنمية ، أخذها الشيطان !

وهذا لا يمنع أنك ذعرت ذعراً شديداً ، ما ؟ ها ، ها ، ها !

كان ضحكه ضحكاً صبيانياً بريئاً ، صاخباً ، ضحك إنسان مسرور .

وثب السيد على ساقيه واقتعد الدكة ، شاخصاً إلى صاحب الزورق بعينين ضائعتين . وترك الآخر المجذافين ، وراح يضحك ممسكاً بخاصرتيه ، مرتمي الرأس إلى الوراء .

قال السيد بصوت خفيض :

— إسمع !... هكذا ، فهذا كله كان ...

— حسناً ، ماذا ؟ لقد كنت أمزح ، وحق الآلهة ! وإن هذا لواضح كعين الشمس ! أيستطيع الانسان أن يحذف من الوجود إنساناً آخر ؟ أبداً ! كنت بحاجة لابتزاز بعض القروش منك . ولو أني قدمت إليك ، فقد كنت أعطيتني قطعة من فئة الخمسة روبلات ، ووداعاً ! أما أنا ، إليك ، فقد كنت ذكياً ، فكسبت ثلاثةوسبعين روبلاً ! وكي أكسبها، أعني الروبلات الثلاثة والسبعين. فان عشرة أشهر من العمل لا تكفيني فيهذهالأيام. أما عن كاتيا ، فاني أسألك ، وربي ، إن كان وجودها مع الضباط يعتبر مصيبة عظيمة حقاً ؟ آه ! يا لطيف ، ويا لها من قضية ! بالنسبة إلي ، فانه ربح على طول الخط ! لسوف أذهب إليها : « كاتيا ، أيتها اللعينة ! » وما أسرع أن تجيب : « خذ ، يا أبتي الصغير ، خذ هذا القرش النحاسي الصغير . » إيه ! وإنك لتستفيد منه ، حسناً ، ثم ماذا ؟ من يضير هذا ؟ يا للقضية الرائعة ! أنا ، كما تراني يا صاح ، ما كنت أترك للفتيات على شاكلتها فرصة للراحة ...

كان السيد يتطلع إليه ، ويحس شعوراً كاوياً من الكراهية يجتاحه ، ورغبة عاتية في الانتقام . ولشدّ ما أسف لأنه لا يحمل عصاً أو مسدساً ، كان إذن يقضي على هذه الحشرة .

وكانت الحشرة تنتصر ، وكل من كلماتهـا وحركاتها يعبر ببريق عن هـذا الانتصار .

— هذه هي ، المدينة . لقد وصلنا ! أين تريد أن نقف ؟

فأمره السيد باقتضاب وبصوت قوي :

— حيثما كان ! عجّل !

— إليك ، إليك ! سينتهي كل شيءٍ في الحال !... حفظك الله ، يا سيدي !

واصطدم الزورق بالضفة العاليـة ، فنهض السيد وقفز على الارض ، فرفع صاحب الزورق قبعته وتمنى له رحلة سعيدة بهدوء ، وبصورة جدية تماماً ، فنظر السيد إليه وغمغم بحقد : « هذا هو يذهب ! هذا هو يذهب !...

صاح في صاحب الزورق بصورة مباغتة ، وهو يبتعد عن الضفة :

— أيتها الحشرة ! أيها الوغد اللئيم ! لقد بعت ابنتك ، ابنتك التي من لحمك ، بثلاثة وسبعين روبلاً . أيها السارق !...

كان الزورق يبتعد على مهل ، فدفّ منه صوت مفعم باللامبالاة :

— كان يجب أن تبدأ شتائمك قبل الآن ، يا عزيزي . هناك ، كان يمكن أن يبدو هذا شيئاً ما ؛ أما الآن ، فأي خبث في هذا كله ، وأي معنى فيه أيضاً ؟

وكان السيد يصيح ، حانقاً ، بكل ما أوتي من قوىً :

— لسوف ألقاك، لسوف ألقاك ، أيها القاتل ! لسوف ألقي بالشرطة بأسرها في أعقابك !

فجاء هذا الجواب من النهر :

— لا بأس ! لا بأس ! أرسل دائماً ، وسوف نرى ! إفعل ما في وسعك ، يا صاح . وبانتظار ذلك ، وداعاً !

وتدحرجت كلمة «وداعاً» هذه طويلا في الهواء، وقد قيلت بصوت رنان مفخَّم.

ظل السيد جامداً برهة، ثم غرس قبعته فوق عينيه بحركة عصبية، وابتعد بخطاً سريعة صوب المدينة، غارقاً في اخضرار الحدائق القاتم.

وعلى الضفة كان كل شيء ساكناً؛ وفي المدينة، في مكان ما بعيداً، كان كلب يعوي بنغمة شاكية؛ وكانت ظلال كثيفة متطاولة تستلقي على الأرض، بينا نور القمر الأضحيان يغطي قمم أشجار الحور المدببة بالفضة اللامعة.

وأخذ نسيم خفيف يهب ... فتغطى النهر بغضون دقيقة متكاثفة، وانسكب هدير الأشجار العذب بموجة عريضة في الهواء الرطب المنعش.



٣

مقتطفات من رسالة

بلى ، أنت تسألني ما هي علاقاتي الراهنة بفارفارا . وإني لأجيبك بسرور : لقد قطعت كل علاقة لي بها نهائياً .

حدث ذلك بصورة مبتكرة تماماً، وأحسب أن تفاصيل ذلك سيثير اهتمامك . لسوف أروي لك كل شيء ، ولن أفعل ذلك دون شيء من اللذة ، مادام أعظم الانتصارات ، كما تعلم ، هو انتصار الانسان على نفسه .

إذن ، فاسمع !

لقد رأيتني في ذلك الحين حيث كنت ألعب بالنسبة إليها دور شيء تمارس فيه فكرها، ودور قاع ينفصل عنه شبحها المتغطرس الهادىء على أفضل ما تتمنى. وأنت تعلم أني كنت مغوياً ، أقول مغوياً ، وبصورة جدية كل الجد . كنت أسأل ، وأتوسل ، وأقنع ، وأبرهن . . . وكانت تصغي بابتسامة باردة ، وتشحذ بسكون الابر الباردة لجمل مختلفة تغرسها فيما بعد في قلبي بأعظم البرود، « بابتسامة عذبة على جبينها الشاحب » . وكنت أتألم بقدر ما يمكن ذلك عند الناس الحسني السيرة ، وكنت أبيّن لها هذا الأثر بقدر ما يمكن ذلك أيضاً .

كنت أتعذب وأصبر ، وكنت واثقاً من انتصاري في أعماق نفسي . وكان

يعضد هذا اليقينَ محبةٌ ذات ثائرة حتى درجة الايلام . وكان هذا الشعور ينمو لدى كل لقـاء ، مفرقاً شيئاً فشيئاً ما كنت أسميـه يومذاك حبي لها . كان يبتلع حبي ، ومن رماد الحب كان يولد ، دون درايتي باديء ذي بدء ، شعور جديد ، ألا وهو الرغبة في التعويض عليها من نفس عملتها .

وما أسرع أن اتخذ هذا الشعور شكلاً نهائياً ، فخضع له كل شيء .

وطبيعي أني ما كنت أضع العقبات في طريقه. بل إني أقول أكثر من هذا: لقد كنت عظيم السعادة به ؛ ذلك أنه يستحيل ألا يغتبط المرء باستطاعته التحرر من سلاسله ، وإن تكن سلاسل الحب.وكما ترى، فان هذه القيود لاتدعى سوى في الأشعار ، وفي الندرى أيضاً ، «القيود العذبة » . . . إن الانسان يرغب على الدوام أن يكون حراً ، مادام إنساناً حقيقياً لا كائناً ينجز لفترة من الزمن فقط واجبات الانسان ، عارفاً استعمال السراويل، متمتعاً بموهبة الكلام ، وقادراً - إذا تسلح بهذه المعرفة - على تغطية الحقيقة وإخفائها بحذق .

إذن فقد كنت سعيداً . أستخدم سائر خيوط فكري في إتقان صنع الشباك حيث تستطيع ملكة قلبي ، حين تقع فيها ، أن تتعلم بتجربتها الخاصة مبلغ العذوبة التي يحسها المرء إذ يكون ألعوبة بين يدي شبيهه .

كنت أفكر ، أفكر بجد ، وليس دون نجاح، كما تستطيع أن ترى .

كنت أظهر في علاقاتي معها حميـــة وحناناً متزايدين ، وأدغدع بحذق وبصورة تبعث على السرور محبتها لذاتها ؛ وأصبحت بالنسبة إليها ، شيئاً فشيئاً ، حاجة لايمكن الاستغناء عنهـا ؛ وكنت أتخذ في الوقت ذاته ، في علاقاتي مع الناس الآخرين، موقفاً أكثرعزة واستقلالاً مني في أي وقت آخر . وقد قادها هذا ، بصورة محتومة ، إلى أفكار ملائمة تماماً لمشروعي ، ومبشرة بالنجاح منذ الآن . كنت أرى أنها تزداد ألفة في علاقتها بي ، وأنهـا بدأت تداريني قليلاً .

واقد لاحظت مرة أو مرتين ، في أحاديثنا المنفردة ، أنها ترميني بنظرات عذبة، بَلْهَ حنونة ، وأن ذلك الحذر الأنثوي المليء بالمكر الناشيء عن بعض القلق ، الغامض ، المضطرب ، الذي يعلمنا بظهوره أن استسلام الحصن أضحى قريباً ، إن ذلك الحذر إذن ينزلق أكثر فأكثر في علاقاتنـــا . وضاعفت حميتي . فترنحت ... ولكن لكل شيء نهاية ، ولقد بلغتُ إلى الخاتمة الآن ! كنا نجلس ، نحن الاثنين ، في خميلة ، عند ضفة بحيرة ، وكان الليل قد أسدل ستوره من وقت قريب . ولقد حدث ذلك في أيار . . . العنادل والقمر ، والظلال ، وعبير الأزهار ، كان كل ذلك موجوداً ، وبكميات أعظم بكثير مما يتطلبه سير العمليات .

تكلمت ، وتكلمت بصورة حسنة ، بهوى ، وبغزارة . . . كنت ألعب دوري باتقان ، كما يقولون . وإذا لم أخطيء ، فان بعض العبرات قد تألقت في زاوية عينيها ، الأمر الذي لم يُهمل بكل تأكيد. تكلمت، وتكلمت، وتكلمت.. وإذ كنت أتذوق انتصاري سلفاً ، فقد تكلمت أيضاً وأيضاً . ولكنني كنت أجلس على مسافة تنقص عن نصف المتر منها ، وما كنت أمدّ لها ذراعيّ .

وجاء أوان الركوع على ركبتي ، فنهضت .

وحين آن أوان الامساك بيدها ، وتقبيل هذه اليد باحترام وهوىً في الوقت ذاته ، أمسكت بيدها وقبلتها باحترام وهوى معاً .

لم أبتعد خطوة واحدة عن القانون الذي سنته القرون ، ولا خطوة واحدة حتى النهاية . ياعزيزي !

وفي النهاية جنحت إلى الصمت ، طبعاً ، مرتعشاً في حمأة الانتظار ، أراقبها من تحت أهدابي دون أن تلاحظ ذلك . كانت مضطربة الفؤاد، لاهثة الأنفاس، متألقة العينين هوى ، وكأنها تدعوني . . . مرحى !

وهذه هي تمدّ إلي يديها الصغيرتين اللطيفتين ـ كانتا ترتجفان قليلا ـ وتشرع تتكلم بهمس ، بذلك الهمس الجموح الذي تعرف .

ـ تعال إلى قربي ، تعال ، ياحبيبي، ياقلبي ، ياحبي ! تعال سريعاً . . . تعال .. إني أحبك . . .

عندئذٍ نهضت . عانقتني ، والتصقت بقوة بصدري ، وهي لاتكف عن الوشوشة ، مختنقة بعاطفتها :

ـ تعال ، تعال !

عندئذٍ حللت ذراعيها اللتين تعانقان عنقي ، وأمسكت بذقنها ، ورفعت الرأس منها ، وقلت لها وجهاً لوجه، بهدوء تام ، وأنا أنفجر في ضحكة صاخبة :

ـ لست أريد !

وأدرت لها ظهري ، دون أقل نظرة إلى الوراء . . أفهمت ؟ . . . دون نظرة واحدة ، ابتعدت على مهل ، مصفراً بمرح ، سالكاً الدرب المنارة بأشعة القمر الغزيرة .

وسمعتها تتهاوى على الأرض ، مرسلة زمجرة ثقيلة مذعورة .

لابأس في هذا ، أليس كذلك ؟

حسناً ، لقد أخبرتك كل شيء يبعث على الاهتمام .

آهٍ ! بلى ، ثمة شيء آخر ! إن « بيتي » قد ولدت ، وأنا الآن المالك السعيد لزوج من الكلاب الكبيرة الحنك ، وإنها لمحبة .

وداعاً

المحبُّ . . .

الكنارى الذى لا يقول الحقيقة
والغراب عدو الكذب

هذه قصة حقيقية ، ولسوف أبدؤها هكذا :

ظهر بصورة مباغتة ، بين سائر العصافير المنشدة ، ضيوف الغيضة حيث وقع هذا الحادث الغريب ، طير اجتذب الانتباه العام بأغانيه الطافحة ليس بالأمل فحسب ، بل باليقين أيضاً .

لم تكن العصافير جميعاً حتى ذلك الحين ، وقد أخافهم مجيء مباغت لطقس رمادي كئيب وأرهقهم ، ينشدون سوى أغانٍ ما كانت تدعى أغاني إلا لأنها تغنى : كانت الأنغام القاتمة ، الحزينة اليائسة ، تسود فيها ، وقد نعتتها العصافير المستمعة بادىء ذي بدء بحشرجات النزع ، لكنها اعتادتها بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، بل شرعت تجد فيها مظاهر مختلفة من الجمال ، الأمر الذي كان يكلفها جهوداً عظيمة على أية حال .

وكان الغربان سباقين إلى إطلاق تلك النغمة في الغيضة كلها ، وهم طيور متشائمون بطبيعتهم ، لا يصلحون سوى للنعيب بقوة تزيد أو تنقص . وما كان الاهتمام يوجه إليهم في زمن آخر ، ولكن سكان تلك الغيضة كانوا يصغون إليهم الآونة ، وقد سادت أصواتهم ، بل كانوا ينظرون إليهم أيضاً على أنهم طيور

كلهم حكمة . وكان الغربان يلاحظون ذلك ، فينشدون بكل ما أوتوا من قوة :

قاق !... ليس لنا ، نحن البائسين ، خلاص
في الصراع مع القضاء الرهيب .
وليس ثمة ، حيثما استدارت أنظارنا ،
سوى ألم ، ويأس ، وغبار ، وعفن ...
قاق !... إن ضربات القضاء لرهيبة !...
والحكيم يتحملها في استسلام ...

قاق !... قاق !... ياللأغنية الحزينة !... بيد أنهـــا قوية ، وكانت ترهق الغيضة بأسرها .

وهذه أغانٍ حرة جريئة تتردد على حين غرة ...

انتفضت الغيضة كلها ، وهي التي ما أكثر ما سمعت من أغان أخرى كثيرة ، وأرسلت بأغصانها همساً مدهوشاً خفيفاً . بل إن العنادل الذين يغنون على الدوام بصورة جيدة ، لأنهم كهنة الفن الخالص ، قد أصغوا بسرور وراحوا يقولون :

— إيه !.. ثمة شيء في هذا المغني !..

وإذ يقولون هذا ، كانوا يزهون في باطنهم بحيادهم وعدم تحيزهم . وكان المغني ينشد :

أسمع الغربان تنعب ،
وقد أرسل البرد والدياجير في قلبها الاضطراب ...
أرى الظلمة ، ولكنه ماذا يهمني منها
إذا كان عقلي قوياً نيراً ؟
فليتبعني الشجعان ! ألا تبددي ، يا دياجير !
فالنفس الحية لامكان لها فيك !

ألا فلنلهب قلوبنا بنار العقل .

فيرين النور في كل مـكان !..

ويعلق العنادل على ذلك بقولهم :

ـــ إنه لغناء قوي !.. إنه فتي ، متعجرف ، مضطرب ، لـكنه قوي ...

وحكوا مناقيرهم مستغرقين في التأمل ، وأصغوا إلى بقية النشيد :

إن ذلك الذي قبل الموت بشرف في الصراع ،

أتحسبونه ميتاً ، مغلوباً ؟

إن الميت هو ذلك الذي غطى صدره بخوف ،

وولى الادبار من ساحة القتال ...

أيها الأصدقاء ! مثله أيضاً ، مثل ذلك الذي يخاف

الجهد ، والانفعال ، وألم الجراح ،

فيدين الصراع غارقاً

في لجة من الضباب الفلسفي ...

ولاحظ العنادل :

ـــ وَيْ !.. إن له لنظرات مبتكرة !

وأضافوا ، وقد غلبهم الفضول :

ـــ لنودّ أن نعرف أي نوع من العصافير هو هذا !..

أيها الأصدقاء ! ألا فليلذ المغلوبون بالصمت

لأن دخان الشك قد قرض عيونهم !

وفي قلوبهم ينام الشرف وعزة النفس .

أيها الأصدقاء ! فلنهتف بهم :

إلى الوراء ! فدخان سفسطاتكم

قد زادت هذا الليل ظلاماً .
إنه يسمم كالشراب المسحور
فكر الفتوة وقلبها .. إلى الوراء ...
إلى الوراء . فالحرب في سبيل الأولية
قد أعلنت هنا على الآلهة :

وقال العنادل :

— هذا شيء جريء ! آه ! بلى . هذه أغنية عظيمة الجرأة ..

كانت الغيضة تصغي وتحس شعوراً جباراً عذباً يملؤها حرارة ونوراً ، بل إن الأغصان المغطاة بالعفن الرمادي قد أخذت تهمس بأسفها على الأيام الخوالي . تلك كانت أياماً من الربيع لذيذة ، إما كانت الأزهار والآمال تبدأ تتفتح في الغيضة ، وإما كان العصافير يغنون أناشيد حرة طنانة في أشعة الشمس ، وإما كانت السماء تبدو ، وهي نقية من كل أثر للسحاب ، ذات عمق لا متناه حتى ليقال إنها تدعو الطيور أن تجرب قوة أجنحتها ، وأن تبلغ أعماقها البعيدة . تلك كانت أياماً سعيدة لا يضطر المرء فيها إلى حمل نفسه على الحياة حملاً : كان ثمة هدف ، وثمة الأمل في الوصول إليه . ولقد لاحت تلك الأيام للغيضة ، وأخذت تتألق ، مثل النجوم ، في الضباب الذي يخفي عنها وجه السماء .

خفق الطيور بأجنحتهم ودبت فيهم الحياة . أين ذلك المغني ؟ ألا فليتلقّ تحية الاعجاب والامتنان ! لا بد أنه طير رائع عظيم !

وتجمع الطيور ، فهم سحابة هائلة ، وانطلقوا صوب المكان الآتية منه تلك الأنغام الفخورة الجريئة للقائها .

ولكنهم لما وصلوا ذلك المكان وجدوا أن ذلك المغني لم يك سوى كناري : كان كنارياً عادياً ، صغيراً ، ضارب اللون إلى الرمادي ، أصفر المنقار كالشمع .

وكان يقف على غصن صغير من أغصان شجرة جوز ، وقد اضطرب كثيراً للاحترام المرفوع إليه ؛ كان بائس المظهر ، منفوش الشعر ، مضطرب الفؤاد ، فألقى بالذين يحيطون به جميعاً في الحيرة ولم يعجب أحداً .

إلى الوراء !.. فالحرب في سبيل الأولية
قد أعلنت هنا على الآلهة !

عندما يهتف بهذا نسر ، أو عقاب ، أو صقر أخيراً ، فانه لجميل وجبار إذن؛ أما كناري ! أن يعلن كناري الحرب على الآلهة !.. إن في ذلك لشيئاً من عدم الانسجام ، شيئاً غريباً مضحكاً . بل إنه لمحير ، بكل صراحة ، بالنسبة إلى سائر الطيور الأخرى . لماذا كناري على وجه الدقة ، وليس حسوناً ،أو بلبلاً ، أوشحروراً ... ونظرت الطيور ، مخذولة حيرى، إلى الكناري وتساءلت: ماعساه يحدث الآن ؟

وتذكروا ، رغماً عنهم ، ذلك العصفور الغريب الذي أرادأن يشعل البحر. ولكن حسوناً داهية ، مهنته الصحافة ، توجه إلى الكناري يسأله :

— إسمع ، ألأنت الذي كنت تغني قبل برهة ؟

فأجاب الكناري :

— إنه أنا ، بلى ، أنا الذي كنت أغني .

— وَي ... وكيف تستطيع أن تثبت ذلك ؟ يعني أننا ، بكل تأكيد . لا نشك في إمكانياتك ، ولكنه ..

فارتعش الكناري ، وقنفذت أرياشه ، وشرع يغني :

في ظل الليل الذي خلقناه
تمر طيور البوم الرمادية ...
وعيونها الكئيبة تلمع

خبيثة ، مظلمة ، صارمة ! ..

ويتردد نعيقها الأصم :

إنها تضحك وتتأوه ،

وفي أصواتها تتردد اللعنات ،

وإنها لتستقبل الليل بالضحكات ...

أواهٍ ! لو أن سلاسل الدياجير

تسقط من غيضتي الفتية ،

فان طيور البوم المتوحشة تختفي إذن

والعقبان وحدهم يطيرون فيها !..

ولكن العقبان قد لاذت في استحياء ،

ضعفاء مهزولين ، في أخاديد الأرض ،

حانقين دونما شرف أو قوة

لدى أصداء فرحة الآخرين .

إن أجنحتهم تتدلى باكتئاب

وقلوبهم تنام بصورة مخزية ،

والطيور الحرة لن تسمع

صوت الشرف والعقل ...

بدت هذه الأغنية ، في نظر بعض الطيور ، إشارة موجهة إليهم شخصياً ، فأخذوا يصفرون في وجه الكناري . أما الحسون فقد قال :

ـــ حسناً ، هذا يكفينا ! ولكن فلنر ، أنت تدعي ـــ إذا صح التعبير ، إيقاظ الضمير الاجتماعي ... وَي ! ولكن بأي حق . أخيراً ؟ أريد أن أقول : باسم أي شيء تغني ؟

فظل الكناري مشدوهاً ، يرنو إلى الحضور في صمت .

ــ ذلك أننا نريد ـ وأرجو أن تفهمنا جيداً ــ أن نــأمن كل خطيئة ؛ والأخطاء لا تُوفّر عنا البتة ، كما تعرف أنت نفسك ؛ ولهذا السبب وحده نريد أن نعرف دوافعك وغاياتك ، أن نعرف إلى أين وفي سبيل أي شيء يوجه إلينا النـــداء .

قال الحسون هذا وطفق، راضياً عن نفسه ، يصفر لحناً غريباً : ذلك أنه ليس للحساسين ، كما هو معروف ، أغانٍ خاصة بهم .

وتحمس الكناري . . .

ــ أنا أنطلق من إيمــاني الذي لا يتزعزع برسالة الطيور الرفيعــة ، على اعتبارها العمل الأخير ، الأكثر تعقيداً وحكمة ، لخليقة العالم . ينبغي لنــا ألا نــكلّ ، بل أن نناضل دون هوادة وأن ننتصر على كل شيء كي نتبرر في ذات أعيننا ، كي يكون لنا الحق في أن نقول : كل الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، هو نحن لا قوة العنــاصر المظلمة . إن الطريق التي ينبغي لنــا أن نسلك مجهولة مني ، ولكن ما أعرف هو أنه يتوجب علينا الذهاب قدمــاً . وهناك البلد الذي سيكافىء أرفــع مكافأة الجهود التي بذلنا على الدرب ! هنــاك ، إنه نور أبدي ، لا ينضب ؛ هناك ، إنها أعاجيب مجهولة منا ؛ هناك ، سوف نتلذذ نحن الطيور ، عظماء ، أحراراً ، منتصرين على كل شيء ، سوف نتلذذ بتأمل قوتنا الخــاصة ، ويكون الكون بأسره حلبة مفاخرنا التي لا يمكن أن نتصور عظمتهــا كلهــا ؛ هنــاك ، سوف يحل فكرنا سائر القضايا ، وسوف تفتح لنا عواطفنا الرفيعة عالماً من اللذات المجهولة بعد منا ؛ هناك تنتظرنا حياة جديرة بنــا ! . . . احترموا أنفسكم وأحبوا بعضكم بعضاً ، سيروا بالخطوة نفسها ، فخورين جريئين ، نحــو الظفر . لا تشكوا في أي شيء إذ أي شيء في العالم يسمو عليــكم ؟ . . . اقلبوا

أنفسكم وانظروا ماذا كنتم ، هناك ، في فجر الحياة ؟ إن كل ما كنا نملك من إيمان في ذلك الحين لا يساوي ذرة من شكنا الراهن . . . الآن وقد تعلمتم أن تشكوا في كل شيء على هذه الصورة الرهيبة ، فقد آن لكم أن تؤمنوا بأنفسكم ؛ ذلك أن جوهراً سامياً يستطيع ، وحده ، أن يصل إلى شك مماثل للشك الذي بلغتم إليه ! ..

« جميعاً إلى هنـــاك ، بلد السعادة ، حيث ينتظرنا النصر العظيم ، وحيث سنكون مشرعي الكون وأسياده ، حيث سنكون سادة لكل الأشياء . . . جميعاً إلى هناك ، في هذا النداء الرائع : « إلى الأمام » ! ...

فصاحت الطيور :

— إلى الأمام !

ذلك أن الزهو بنفسها قد اشتعل في قلوبها .

وغصت عينا الكناري بعبرات الحماسة والايمان . وكانت الطيور جميعاً تغني، وقد أحست جميعاً براحة عظيمة حتى قد شعرت بالرغبة الجموح في الحيـــاة وفي السعادة تولد فى قلوبها .

— إسمحوا ، إسمحوا ! ... إني أطلب الكلام ... الكلام ! ...

كان الغراب يصيح هكذا من قمة شجرة حور ؛ وعندما سمعته الطيور أعطته الكلام في الحال ، فقد كان يصيح بصوت شديد الارتفاع .

بدأ يقول :

— سيداتي وسادتي ، إني أقدم نفسي : أنا الغراب نقـــار الخشب . إني أتغذى من الديدان ، وأحب الحقيقة التي أخدمها دون خذلان ، والتي تدفعني إلى إخباركم بأنكم تخدعون بصورة مخزية وقحة . إن سائر هذه الاناشيد وهذه العبارات التي سمعتم لتوّكم ، أيها السادة ، ماهي سوى أكاذيب ضعيفة ، الأمر

الذي سأتشرف الآن بتبيانه لكم بالأدلة الناصعة ... بالأدلة الناصعة ، أيها السادة ! اسألوا إذن السيد الكناري أين هي الوقائع التي يستطيع أن يقدمها لدعم أقواله ؟ إنه لا يملك أيه وقائع ، وهذا هو بالضبط ما سيحتاج إليه أكثر مني ، فهي كل شيء أيها السادة ، ونحن جميعاً لسنا أكثر من وقائع زهيدة ، وقائع تؤكد الواقع العظيم ، واقع حكمة الطبيعة وجبروتها ، هذه الطبيعة التي يتوجب علينا جميعاً أن نخضع لها ، كما يخضع الأطفال لوالدتهم .

« فلنتفحص دوماً تحيز ما يوجد هناك ، في « إلى الأمام » هذا حيث يدعونا السيد الكناري . لقد حدث لكم جميعاً أن طرتم حتى حفاف الغيضة ، فأنتم تعلمون جميعاً أن السهل يبدأ بعدها مباشرة ، عارياً تحرقه الشمس صيفاً ، مغموراً بالثلج الجليدي شتاء ؛ وهناك ، وهناك في أقصى هذا السهل ، توجد قرية يقطن فيها جريشكا ، وهو إنسان جعل صيد الطيور مهنة له . هذه هي المحطة الأولى على الدرب التي تقودنا « إلى الأمام » ، والتي روى السيد الكناري لكم عنها ، قبل برهة ، ما لا يحصى من الأعاجيب .

« ولنفترض أننا انطلقنا إلى الأمام حسب أمنيته - هذه الأمنية التي أسمح لنفسي بالارتياب في إخلاصها وتجردها ، لأنني أعرف أن طيور الكناري ، مثلهم مثل بقية المخلوقات ، ليسوا بأعداء للشهرة ، والمجد ، إلخ ... - ولنفترض أننا أسعدنا حظاً فأفلتنا من شباك جريشكا واجتزنا القرية ، فاننا سنعود فنجد أنفسنا من جديد في سهل ، وسنلقى في أقصاه قرية جديدة ، ثم نجد مرة أخرى السهل ، فالقرية ، فالسهل ... ولما كانت الأرض كروية ، فاننا سنجبر بالضرورة على العودة إلى الغيضة حيث أفوز في اللحظة الراهنة بشرف التحدث إليكم . أهناك البلد حيث ستلقى جهودنا ، إذا صدقنا السيد الكناري ، مكافأتها ؟ أذلك هو البلد ؟ ...

« إني أعرفكم ، أيها السيدات والسادة ، وأعرف كم تستطيعون أن تحلقوا عالياً ، إنما ... أنا أعرف أيضاً — وأقول لكم ذلك بعظيم المرارة ، أنه ليس واحد منكم قد طار أو يستطيع أن يطير أعلى من نفسه . إن محاولة السيد الكناري تقوم في خداع انتباهكم بتعمية بصركم بعبارات براقة طنانة ، وهي تبين بصورة كافية مبلغ احترامه لكم ، على اعتباركم مخلوقات وهبت العقل !..» هذه المحاولة يجب أن تعاقب بقوة وصرامة ، أيها السيدات والسادة ! ...

وإذ امتلأ نقار الخشب الحكيم بشعور الواجب المدني المنجز ، فقد ألقى على المستمعين إليه نظرة ظافرة ، وأخذ يضرب قشرة شجرة الحور الواقف على فروعها .

كانت الطيور تنظر إلى الكناري دون أن تقول شيئاً ، وترى الدموع تسيل من عينيه الواحدة تلو الأخرى . على مَ عساه يبكي ، إن لم يكن يبكي على الذنوب التي ارتكبها بحقهم ؟ مثل هذا الكناري البائس ، الرمادي، الكذاب !

أما هو فكان ينظر إلى المنتأى متعباً ، فكأن عينيه تلقيان تحية الوداع إلى شيء ما .

كانت الغيضة ساكنة ، فطارت الطيور دون ضوضاء يتخذ كل منها طريق بيته . وطار نقار الخشب أيضاً ، مصحوباً بملاحظات الاعجاب المشبع بالاحترام لحكمته .

وكان النهار مفعماً كآبة ، حتى تقول إنه على وشك البكاء .

وهذا الكناري الذي لم يكن يقول الحقيقة قد ظل وحيداً . كان يقف ، جامداً ، مرهقاً ، على غصن صغير من شجرة جوز ، بينا زريق وحيد يرميه بنظرات فضولية من خلال أوراق شجرة الحور المذعورة المرتعشة . ولكنه

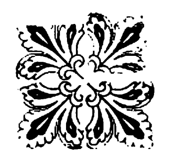
ما أسرع أن ملّ ذلك ، فطار وهو يبعث صفيراً ساخراً .

وبقي الكناري هناك ، فطفق يفكر ، وهو واقف على غصن الجوز :

ـ لقد كذبتهم ، أجل ، لقد كذبتهم ، مادمت لا أدري ما يوجد هناك ما وراء الغيضة ؛ ولكنه ما أحسن أن يؤمن المرء ويترجى ! . . . ما كنت أريد سوى إيقاظ الايمان والرجاء : وهذا هو السبب الذي دفعني إلى الكذب.. أما هو ، نقار الخشب ، فلعله على حق : ولكنه ما جدوى حقيقته إذا كانت تثقل كالحجر على أجنحتنا ؟

وألقى الكناري المسكين أبصاره فيما حوله وانطوى على نفسه .

هذه هي قصتي كلها .. عندما تقرؤها ، فسوف تجد بكل تأكيد أن الكناري قلب طيب ، ولكنه يعوزه الايمان ، فهو بالتالي فقير بالشجاعة ؛ وأن نقار الخشب حذر لكنه دنيء ، وأن الطيور المستمعين ليسوا بحساسين إلا بدافع الفضول ، لكن قلبهم في الأعماق قد جفّ ، أنهم بائسون، بائسون بصورة مخجلة. وعند ما تدرك هذا ، فسوف تظن أني قد رويت هذه القصة بصورة غير أمينة ، مضحكة حتى درجة البكاء . ظنّ ذلك ، إن كان يستطيع أن يعزيك ، ظن ذلك..



محاورة صريحة

قصة لا تصدق كثيراً ، لكنها ممكنة تماماً

على إحـدى ضفتي نهر — نهر الزمن ، أيها السيدات والسـادة — كانت الفضيلة تنتصب في وقفة مهيبة ، بينما الشر ، على الضفة الأخرى ، يجوس أرض المـكان بعصبية .

كانت الفضيلة باردة قاسية ، أشبه بتمثال نحت في الرخام الأشد صـلابة ؛ أما الشر فـكان شديد الحيوية ، مشرباً حتى درجة بعيدة بسمّ مختلف الفظاعات حتى إن الذباب الذي يغامر فيقرصه كان يخرّ صريعاً اتوه ، مسموماً .

كانت الفضيلة لاتبرح جامدة ، تغطس أكثر فأكثر في نعيم اللذة الذاتية ، بينما الشر يذهب على الشاطىء ويأتي ، ويفكر في أفضل الوسائل لانجاز أفعال تدعم شهرته .

وبصورة عامة ، كان كل شيء يجري على مايرام .

كان نهر الزمن يسيل أمامها يضطرب ويتخبط في أمواجه العكرة كثرةٌ من الأشياء تتجه نحوها فعالية الشر وأنظار الفضيلة . كان عابدو الشر يثيرون الفضائح على سطح الماء ، بينما يختنق تحتهم الطامحون إلى الفضيلة ، وفيما بينهم تظهر وتختفي أشياء لم تجد بعد الوقت كي تشكل وجهة نظر ما ،وتكتسب العقائد ، فهي لا تعرف سوى أن تحملق بعيونها . وتفغر أفواهها ، وقد صمّت آذانهـــا بالضجيج ، وامتلأت قلوبها رغبة في التكيف بأسرع وقت .

وبينا كان الشر يعقل ، كانت الفضيلة تتأمل ، وترثي بصوت مرتفع لأولئك الذين يفنون تحت أظافر الشر ، وتحتقرهم في سرها باخلاص ودونما رحمة .

« آه ! ما أشد دناءتهم إذن ! تفو ! ما أعظم ضعفهم إذن ! إنهم عاجزون عن مقاومة الشر . الشر ، تفو .. »

وكانت تكشر ازدراء دون ان تقع عيني عليها .

وكان الشر يذهب ويأتي ، وهو لا يبرح يغني :

ليست الحياة سوى برهة قصيرة .

واللذة هي جوهر الوجود كله ومعناه .

وإن الجريمة لتستأهل فيها ، بكل تأكيد ،

أقل من أي شيء آخر

ان يغضب المرء ضدها !..

فليذهب المبشرون بالمحبة إلى الشيطان !

ما عسانا نفهم من خطاباتهم ؟

ليست الحياة سوى لحظة ، فينبغي إذن ألا نأخذ منها

إلا ما هو بسيط ، إلا ما يسكر .

لا يكاد المرء يبدأ الحياة

حتى يسمع خطوات إله الجحيم قريباً منه ..

أسرع واقتطف أزهار الوجود !..

وإذا ما شربت الخمر ، حطم كأسك !

وفي الحقيقة ، أيمكن أن ينادى على الأرض

بأبسط من هذه الحكمة :

« ليس على الآخرين سوى السكوت ! »

يجب ألا نرتاب في دلك ،
فانه لمسموح ، أيها الأصدقاء ،
أن نسمع الوعظ والتبشير !
ولكننا لانستطيع مع ذلك أن ننكر
أن اللذة
هي جوهر الوجود وغايته !..

كان يغني ، وكان الناس يسمعون إليه . وكانت الفضيلة تخفق ، فتنفجر بصورة مباغتة في ألفي قصيدة من مختلف المقاييس والأنواع تنادي فيها بقرب ظفرها ، وتهدد الشر بهزيمة نهائية . كنت تجد في تلك القصائد أبياتاً ساخرة ، وجاهلة ، وحانقة ، وأخلاقية ، وغنائية ، وطنانة ، وطويلة ، وقصيرة .. ولكن الشر ما كان يتأثر بها على الاطلاق ، وإذ لم يكن يكتفي ، في ساعاته الحرة من العمل المباشر الخاص ، بقراءة سائر هذه الاشعار متلذذاً مسروراً ، فقد كان يكتب عنها ملاحظات نقدية يصب فيها اللوم دون حساب ، أو يتفجر في تملقات مسطحة تافهة ، وذلك حسب مزاجه المتقلب ؛ وكان لايني يلاحظ ، بصورة دائمة ، أن علم الجمال الخالص يجب أن يفوز بالنصيب الأفضل ، وعندئذ يكون للأثر ، ، في رأيه ، قوة أعظم.

وحين رأت الفضيلة أن الشعر لم ينتج ، فقد لجأت إلى النثر،وأخذت تبرهن من جديد في مجلدات ضخمة ، مثلما اثنان زائد اثنين يساوي أربعة ، أن قرب انتصارها عليه هو الشر المقيت ، وضرورة هذا الانتصار أمران مؤكدان بصورة لايتطرق الشك إليها مطلقاً .

ولقد كان هو — وربي — يقرأ الكتب أيضاً ، وطبيعي أنه لم يكن يقرأ من هذه الكتب ألا أقلها مللاً ؛ وإذ يقرؤها ، فقد كان يوافق عليها .

كان يقول :

« ليس ثمة أي اعتراض ، فان لكل هذا وزناً ؛ فهو مكتوب بصورة شديدة الاقناع ، وأستطيع أنا نفسي أن أجد فيه ما أستفيد منه ! »

وهذا ما كان يصنعه ، ذلك الحيوان ! إن المجلد بأسره، ثمانية آلاف صفحاته دون استثناء واحدة منها ، مكتوب ضده ، وهو يجد فيه وسيلة لاستنباطمشروع جديد للعمل ، وبذلك يطيل قائمة الحيل التي يستعملها للتغرير بالنفوس البشرية .

هكذا كانت الحال إذن حتى اللحظة التي وقع فيها هذا الحادث الذي سأتشرف ، سيداتي سادتي ، بروايته لكم ، بكل الاحترام الخالص الجدير به .

ذات يوم جميل كان هو (أعني الشر) مشغولاً بأعماله ، يعمل في المكان الذي عينه له القدر ، مترنماً بأغنيته .

كان يلبس حسب الزي الباريسي الأخير ، وفي يده باقة من أزهار الكاميليا، فهو على خير مايكون — لكنه قبيح رغم كل شيء ؛ وكانت هي (أعني الفضيلة) جافة مهيبة في حلتها الرومانية التي بليت قليلاً .

ليست حياتها ، على العموم ، بالحياة المرحة ، لكنها كانت في ذلك اليوم أشد ضجراً منها في أي وقت مضى . إن أنصارها يتكبدون هزائم مريرة في كل مكان ؛ وأولئك الذين عرفوا واستطاعوا أن يتجنبوا تلك الهزائم قد انسحبوا من المعركة بشرف ، فهم يتأوهون ويشكون ، لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء آخر ، إذ كانت تعوزهم النفس الحية . وهذه الفضيلة تصغي ، وقلبها يضطرب بأفكار مريرة عن عبث نضالها ضد الشر ، إلى نشيد خصمها ، مرسلة نظرة يائسة إلى شبحه الرشيق والمبتذل ، القبيح والجميل في وقت واحد . وفجاءة ، أحست فكرة جديدة تولد فيها ، فكرة غريبة ، لاتتفق مع كرامتها ، ولا تنسجم مع فعاليتها ، بل كانت مناقضة لجوهرها أيضاً ، صاغتها في النهاية هكذا :

« وإذا حدثته صراحة ؟ ذلك أني لم أحدثه على هذا الفرار أبداً ، في الحقيقة. ولربما .. من يدري ما عساه يحدث ؟ سأتحدث إليه .. أجل ، سأتحدث إليه !.. لسوف يقال إن ذلك عار .. ولكنه ، يا إلهي ! أتكون تلك هي المرة الأولى التي أتهم فيها بالضعف وعدم الثبات ؟ . »

صاحت في اتجاه الضفة الأخرى :

ـــ ياسيدي ! أصغي إليّ !

كان السيد قد شرب لتوه كأساً من الشمبانيا نخب صحته ، وكان يتهيأ لشرب كأس ثانية .

حياها برشاقة ، وقال :

ـــ سيدتي ! بأي شيء أستطيع أن أخدمك ؟

ـــ كنت أريد .. يعني كلا !.. كي أتكلم بصورة أضبط ، إني أريد ..

ـــ كأساً من الشمبانيا ، ياسيدتي ؟

فأعلنت الفضيلة ، وهي ترفع رأسها باعتزاز :

ـــ سيدي .. أرجوك ألا تطعني بمثل هذه الشكوك !

ـــ سيدتي ، اصفحي عني !.. إن سماحتك المعروفة جيداً تسمح لي أن آمل بصفحك عما بدر مني ؟.. ولكنني في الحقيقة قد قدمت إليك الكأس باحترام لا يقل عن الاحترام الذي أتشرف به الآن فأقدم لك الزجاجة كلها .

فقالت الفضيلة بصراحة :

ـــ أنا لا أشرب ، ياسيدي .. أفلست تعرف أني لا أشرب البتة ؟..

ـــ أواه ! إني أعرف ذلك . أعرف ذلك !.. وإني لآسف بسببه بكل إخلاص ، يا سيدتي ، لأنك تحرمين نفسك بذلك من إحدى اللذات الأعظم رفعة . وإنك لتبعثين الدهشة في قلبي ، إذ كيف تستطيعين ، وأنت تتعاملين مع

البشر ، ألا تسكري حتى درجة الموت ، لشدة مايقرف التعامل معهم ويرهق !

ـ إسمح لي ! أريد أن أتحدث إليك حديثاً جدياً ، أريد أن أتحدث إليك على اعتبارك قوة تـ ...

ـ في خدمتك دائماً ، ياسيدتي ! في خدمتك دائماً ..

ـ لاتقاطعني ! .. أنت الذي تتمتع في الحياة بأهمية تكاد تماثل أهميتي الخاصة ، والذي تناضل ضدي ولكن لماذا ؟ . . . هذه هي القضية التي أريد أن أدرسها وإياك بحياد تام ، وبمختلف مظاهرها ، بحيث ربما استطعنا ، بفضل هذه الدراسة ، أن نتوصل إلى اتفاق . . .

ـ سيدتي ! أقسم لك قسماً معظماً بانتصاري ، هذا الانتصار الذي بدأ ، بالمناسبة ، يبعث الملل في قلبي ، أنه قد راودتك فكرةٌ فضيلة بصورة مثالية . أف ! ما أفتن أن ننظم عطلاً صغيرة ! لقد مضت قرون طويلة ونحن قائمان بثبات في مركزينا ، دون أن نستمتع أبداً بدقيقة واحدة من الراحة . . . النضال ، النضال دائماً . . . ولماذا ، ياترى ؟ . . إني أسمح لنفسي بأن أطرح عليك هذا السؤال . . .

فعقبت الفضيلة بصرامة :

ـ أرجوك ! تروَّ بجد فيما وجدت من الضروري أن أقوله لك !

ولكن الشر استنشاط غضباً ، فحدث فيه شيءٌ غريب ، وقال باعتزاز عظيم وقوة كبيرة :

ـ كلا ، أرجوك ! إني أريد أن أقول ما عندي للقول ، وحق الاله ...

فقالت الفضيلة في عتاب :

ـ سيدي أنت تتفوه بأشياء فظة ! . . .

ـ أجل ، إني أقول أشياء فظة ! ألا فلأكن ملعوناً ، فأنا أقول أشياء فظة ،

وأريد أن أقولها ، وسوف أقولها . . . وإني أريد أن أقول ما عندي للقول..
إن لي الحق في قوله . . . إني حانق ، وقد أهنت ، وأطلب أخيراً أن يُصغى
باهتمام إلى كلماتي ! ربما يظن أني لا أحسّ الاهانة ؟ أواه ! . . . إني . . .

ـ أرجوك ، أيها الشرّ العزيز ، ماعساك تريد أن تقول بهذه الشكايات وهذه
الهتافات كلها ؟ . . . أؤكد لك أنك لن تقول شيئاً لم تسبق لي معرفته . إني ،
مثلك تماماً ، ملآنة مرارة ، والناس يفترون علي ، مثلك تماماً ؛ وهم يهينونني
ويذلونني ، كما يفعلون بك تماماً . . .

ـ إيه ! ياسيدتي ! . . هـــذا هو السبب إذن في أنهم لا يحبونك : إنك
عظيمة الحماسة للخطب الطويلة .

ـ أرجوك ! كن إذن على قليل من الحس السليم ورباطة الجأش !

ـ أنا ... رباطة الجأش ! ألا فليأخذ الشيطان سائر البلاهات المحيطة بي !
هذه الحياة تشوهني ، وتلك هي الحقيقـة الواقعة . وإني لمتعب . . بلى ، متعب !
أقول لك بكل إخلاص إني قد أخذت أرتاب منذ زمن طويل في جدوى تناقضنا ،
وإني أرغب منذ فترة بعيدة أن أقترح عليك هدنة كي نتفحص الغاية من تحاملنا
على بعضنا بعضاً ! ومن يلتذ بهذا كله ، ياترى ؟ ولـكن شيئاً ما كان يمنعني من
ذلك ، وهذا أنا أكاد أضحي ، لكثرة ما أعملت فكري وعذبت نفسي ، آلة
للتفكير مثل أنصاري البشر . إني شديد البؤس ، ياسيدتي . . . وما أكثر
الألم والعذاب في حياتي ، أواه ! . . .

فقالت الفضيلة ، مقاطعة اعترافات عدوها الحزينة :

ـ ولـكن اسمعني إذن ، في النهاية ! ماجدوى شكاواك ؟ أتريد شفقة وعطفاً؟
ولـكن فلنكن صادقين حتى النهاية ، فأنت لاتجهل بكل تأكيد أني لا أعرف
أن أعطف سوى . . . بالـكلمات . . . فهل ثمة حاجة بك إلى مثل هذا العطف ؟

وإن لديّ سائر الأسباب كي أعتقد أني عندما خلقت قد وهبت مختلف الصفات الضرورية لي كفضيلة ، ولكن هذه الصفات قد تفسخت فيما يبدو مع الزمن ، أثناء نضالي ضدك ، وضاعت . وإني أقرب في الساعة الراهنة إلى شبح مني إلى كائن يتمتع بوجود حقيقي . . . أين أبحث إذن عن سبب مثل هذا الحادث المؤلم؟.. فيعلاقات البشر معي وليس في أي مكان آخر ! هذه العلاقات . . .

ـ لحظة واحدة ، ياسيدتي ! . . . لا تتحدثي عن هذه العلاقات ! لقد فهمتها بتجربتيالخاصة ، الشاقة والمريرة ، لقد عرفتها ! إن أفضل صفاتي قد نفحتها للمعجبين بي ، وقد خانوني منتقلين إلى صفوفك ، تماماً مثلما يخونونك منتقلينإلى صفوفي ! هل أنا في الوقت الراهن الشر الذي كنت فيما غبر من الزمان ؟ هذا الكائن الوضيع ، الزاحف ، النتن ، البائس ، أهو أنا حقاً ؟ أين هو نيروني ، ياسيدتي ؟أين كاليجولا ؟أين بورجيا ؟أين المركيز دي صاد ؟أين هم عباقرة الشر ؟لم يعودوا موجودين ، ياسيدتي ! .. ولن يكون أمثالهم بعد الآن مطلقاً ! وقد أصبحت عاجزاً ، من الآن فصاعداً ، عنخلق امثالهم ، إن لأن قواي السابقة قدغادرتني ، وإن لانه لم يعد ثمة قالب أصب فيه نفسي ، لم يعد ثمة بشر قادرون على العظمة في الشر أو في الفضيلة . لقد سلبني البشر ! لقد سلبوني ، كما فعلوا بك تماماً ! صفاتنا الفضلى ، وأفعالهم الافضل ، لقد أفسدوا كل شيء ، وجردوها من وحدتها ومن كمالها الفني ، وذلك بميلهم اللعين إلى التفكير . إنهم يكثرون من الذهاب والاياب بينك وبيني ، والشيطان نفسه ماعاد يستطيع أن يميز الشرير بينهم من الفضيل ! ياالمحللين الملاعين ! ..

لاذ الشر بالصمت ، مختنقاً حنقاً .

عندئذ استلمت الفضيلة دفة الكلام :

ـ إني أفهمك ياسيدي رغم ضيق نظراتي وفكري المحدود ، وأوافقك تماماً.

وكما أنك تسأل أين أفضل تلاميذك ، فاني أسأل أنا الأخرى : أين هو المواطن العظيم بروتوس ؟ أين هو أريستيد العادل ؟ أين المطوّب أوغوسطينوس الذي كان يضع في كل كلمة من كلماته كل حميـة قلبه المتأجج ؟ أين هم رجال الفضيلة العظماء ؟ أين الانسان كله ؟ ما هم سوى أشباح تحلق فيما حولي ، أشباح باردة لادماء فيها ، وليسوا هم بشراً ! هذه الاشباح تتوب وتبكي ، تبكي وتتوب ، ورغم أنها تنجز ذلك على أكمل صورة ، فهل تقوم عبادتي في هذا وحده ؟ .. أية أفعال تحوز اليوم على حق أن تدعي فاضلة ! إن كان فلان لايسرق أبداً ، ولا يكذب أبداً ، ولا يفتري أبداً ، وإذا مر بجانب قوم يرتكبون ذلك كله بحمية فلم يعش معهم ، بل استدار عنهم بسكون ، فانه فاضل ! .. ولكنه ، هو الأبله العديم الاحساس ، لمَ يستدير ؟ ألأنه يحسّ الحقد لمثل هذه الأفعال وللناس الذين يقترفونها ، أو لأنه يحسد في سره قدرتهم على اقترافها ويخشى الانضمام إلى صفوفهم لأنه لا يجد في نفسه القوة الكافية التي يتطلبها الشر والجريمة؟ هذه هي المشكلة ، ياسيدي ! ..

« وهل ليس من الواضح أننا لسنا نحن اللذين نقود البشر ، بل هم بالأحرى الذين يقودوننا ؟ أو ليس من الواضح أننا لم نعد بالنسبة إليهم سوى تسلية ، لم نعد أبداً أكثر من شيء عادي يضع في حياتهم المفسدة بعض القنوع ، شيء عديم الفائدة في الحقيقة بالنسبة إليهم ؟ .. لقد سمعت السخرية والهزء اللذين يوجهونها إليّ ، بينا تصم أذناي أنا الأخرى بما يوجهون إليك من لعنات ، ولكن أليسوا يفعلون ذلك ، ياسيدي ، بدافع من التقليد الذي ورثوا عن أجدادهم ، لا بشعور صادق ، متأصل حقاً في قلبهم ، شعور من الحب أو البغض ؟ .. أفيهم مشاعر بصورة عامة ، باستثناء اللذة الذاتية بسائر الدرجات وفي مختلف الأشكال ؟ واخيراً هل نحن ، أنت وأنا ، ضروريان لهم ، ونحن جوهران متعارضان بصورة

مباشرة ، ولكل منا مميزاته الفردية البارزة بقوة ؟ وأليس من الواجب علينا ، أنت وأنا ، أن نذهب إلى لقاء الحادث الذي سيقع بالضرورة ...

وصاح الشر فرحاً :

ـ ونذوب نحن الاثنين في كل واحد ؟ .. مرحى ! يا للفكرة العبقرية ! يا لها من فكرة ! .. هذا ، ياسيدتي ، إنه لفكرة حقاً . بل هو ليس فكرة ، لكنه وحي بالأحرى ؛ إنه .. شيء ذو عمق عظيم ، ليس ثمة صيغة له في لغة الشر أو على شفتي الفضيلة .

ـ أرجوك ، ياسيدي !..

ـ سيدتي ، هذا يكفي !.. إني أرى بكل جلاء ما ينبغي لي أن أفعل . أجل ، إني أفهم واجبي ! سيدتي ، إني أطلب منك يدك وقلبك ، إن كنت لا تبرحين تملكين منه كسرة ! .. سيدتي ، هل الجواب نعم ؟

دهشت الفضيلة وترنحت ، ورفعت ذراعيها ، مرتاعة ، صوب السماء .

وأخيراً وجدت القوة كي تهمس بصعوبة جمة :

ـ سيدي ! ..

ـ هذه قضية قد تمّ الاتفاق عليها ، يا سيدتي ؟ ... أف ! ... أية آفاق رائعة تتفتح أمامنا بفضل هذا الزواج ! سوف ننام على أكاليل مجدنا ، وقد ربطنا هذه العقد ، نتأمل بسخرية إنسانيةً قدتحررت بعد الآن بصورة نهائية من أي تصور للخير أو الشر ، للخبث أو طيبة القلب ، إنسانيةً تائهة عبر غابة من الحيرة، منجزة بحرية كل ما يحلو لها. وما أكثر الأخطاء الفاجعة المضحكة التي ستقع في البداية ، وما أكثر القلوب المحكمة الاغلاق التي ستفتح على مصاريعها ، وما أكثر الرغبات الدنيئة التي ستنطلق ، وقد كانت مقنعة حتى ذلك الحين تحت غطاء الوجدان ! وسوف يسير الصالح والطالح ، متأبطين ذراع

بعضها بعضاً ، صوب الهدف المقدس ، ألا وهو راحة الفكر والقلب . وسوف تنقلب الكرة الأرضية بأسرها إلى زريبة خنازير شاسعة الأبعاد، وتجد الراحة في النهاية ! ونحن أيضاً سوف نرتاح في ذراعي بعضنا بعضاً ، ونظل حتى نهاية الزمن راتعين في السلام والسعادة ! ولا بدّ لنا من جهة أخرى أن نرثي للقلب البشري المنقسم إلى جزئين والمرهق بالنضال بين الأبيض والأسود . الرثاء له ، يا سيدتي ! . . . لقد مضى زمن طويل وهو يخوض غمار الحرب ضد نفسه ، وهذه الحرب خالية من كل أثر من الحس أو العقل؛ فلنرث له ، ولنندب في كائن وحيد ، غير منقسم ، مهلكين الأبيض والأسود جميعاً في قبلة طويلة لاهبة ، ولنخلق فراغاً مادياً عصياً على القياس ينفذ إلى سائر الأشياء !.. سيدتي ، هل الجواب نعم ؟..

كانت الفضيلة تلوذ بالصمت. لقد اجتاحها الحنق بادئ ذي بدء بسبب اقتراح الشر ، لكنها أغرقت هذا الشعور ، شيئاً فشيئاً ، في بحر الأفكار النفعية ، وما قارب حديث الشر نهايته حتى لم تعد تحسّ شيئاً سوى الرغبة في ضمان ذاتها على أفضل وجه ممكن من الوقوع في الأخطاء الممكنة في مثل هذه القضية الهامة .

ــ سيدي ، قبل أن أقبل عرضك أرى من الضروري إيضاحه في سائر جوانبه إن بالنسبة إليّ أو بالنسبة إليك .

ــ أنت تطلبين أسبوعاً للتفكير ؟ وَيْ... اغفري لي ، ولكني على ثقة كبيرة من أن شيئاً لن ينتج عن أفكارك . أفكار فاضلة !

وافترت شفتا الشر عن ابتسامة متشككة ...

ــ كلا ، يا سيدي ، على أية حال . أنت تعرف بكل تأكيد أنني لا أستطيع أن أقبل إلا زواجاً شرعياً ، فأنا لن أوافق ...

— وَيّ . . . أخذني الشيطان ! إن للحديث مع ذلك بلاهة وابتذالاً كلاسيكيين بصورة مطلقة . . . هـذه المرة على الأقل ، ارتمي في ذراعي الشر دون احتفالات لا لزوم لها !... ما دمت ستفنين وأفنى أنا ، وما دام لن يبقى أنت أو أنا ، لن يبقى سوى اختلاط من الأفكار لا أكثر ! وسوف نخرج من الحياة ، إذا صحّ التعبير ، تاركين الناس يتدبرون أمورهم على هواهم . أنت تعنين بأشياء لا تستحق ، إيجابياً ، عناء إعارتها أدنى اهتمام . أن يريد المرء أن يستفهم عن الشروط المادية للوجود ، فاني أقبل ذلك . أما أن يكون له ، رأي ، ووهم سابق ... وَي ... وَي ...

وهنـا راودت ذهنَ الشر فكرة شريرة بصورة متألقـة ، فأخذ الفضيلة بصورة مباغتة في عناق قذر ، أو أنه ، بصورة أدق ، عناق دنيء .

صاحت الفضيلة مرتعبـة ، وقد اجتاحها الذعر الاتجـاه غير المنتظر الذي اتخذته الأمور :

— سيدي !

فهدل الشر بصوت كله اقتناع :

— سيدتي ، أنت تريدين فيما يخيل إليّ أن تظلي فاضلة ؟

ولكنه بصق مشمئزاً ، وقد قبلها على أنفها عن غير قصد .

زمجرت الفضيلة :

— أيها الدنيء ! ... إذهب من هنا !...

وانتزعت نفسها من عناق الشر .

فسأل الشر ببرود عظيم ، دون أن يؤثر فيه هذا المشهد أدنى تأثير :

— ما معنى هذا ؟...

فظلت الفضيلة جانحة إلى الصمت ، وعيناها تتألقان باعتزاز .

قال الشر متضاحكاً :

— إذن ؟

فقالت الفضيلة بصوت آمر :

— إلى مركزك ، أيها السيد !

فصاح الشر غاضباً :

— ولكن لماذا بدأت ، بحق الشيطان ، هذه المحاورة السخيفة ، يا سيدتي ؟

فأجابته الفضيلة ، وهي تهزُّ إصبعها متوعدة :

— إنك تنسى نفسك !...

— حسناً... والآن؟ سوف نعود فنضيع ، من جديد ، وقتنا في السفاسف ؟ حسناً ، فلنضيع وقتنا . . . فلنقبل ذلك ، ولكنه حماقة عديمة الجدوى . إن البشر ، إذا لم نساعدهم نحن على الوصول إلى خارج مشترك ، لن يتركونا في سلام ؛ لسوف يعذبوننا ويقسون علينا . يجب أن نختلط ، أن نذوب في كل واحد ، هذا هو رأيي . ومع ذلك ، إلى اللقاء !... إني ذاهب !...

وذهب إلى مركزه ، بينما ظلت هي واقفة في مركزها . وكان يترنم بينه وبين نفسه ، وهو يسير صوب مكانه :

ليست الحياة سوى برهة قصيرة

واللذة هي جوهر الوجود كله ومعناه .

وإن الجريمة لتستأهل فيها ، بكل تأكيد ،

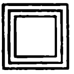
أقل من أي شيء آخر ،

أن يغضب المرء ضدها !...

كان كل شيء ساكناً فيما يحيط بتلك البقعة ... وكانت النجوم ترف بأعينها دهشة ، وسحب تمرُّ أمامها من حين لآخر ، لتطير بأقصى سرعة نحو هدف مجهول.

وعندما كانت هذه السحب تمر ، كانت النجوم تختبئ بخجل وراءها ، بينما القمر يفغر فماً كبيراً ، وينظر إلى الأرض وفي محياه سيماء (١) ...

وبدت في غضون السماء قطرات كبيرة من العرق ، ناشئة عن انتظار نهاية ذلك المشهد الفاجع ، وتساقطت باردة ثقيلة على الأرض وعلى جبيني . ولقد كنت أنا جالساً في أدغال خيالي ، وقلبي يرتعش شفقة على الشر البائس والفضيلة المسكينة . وهكذا فقد عزمت ، سيداتي سادتي ، أن أطلعكم على حالتها الحزنة ، مسبباً بدوري في قلوبكم ارتعاشاً من الشفقة عليها ، مذكراً إياكم بذلك بضرورة الأعمال الشاملة ، القوية ، القادرة على شد أزر قضية الحياة في العالم .



(١) بعض الكلمات غير الواضحة .

الجد أرخيب ولينكا

كانا ينتظران الطوف ، وقد تمددا في ظل الضفة المرتفعة ، ينظران في صمت إلى أمواج نهر الكوبان السريعة العكرة ، المتدفقة عند أقدامهما . كان لينكا قد أغفا ، أما الجد أرخيب ، وكان يحس في صدره ألماً أصم مرهقاً ، فلا يجد إلى النوم سبيلاً . وكان شبحاهما الرثان المتقلصان ينفصلان بصعوبة عن قاع الأرض الأسمر القاتم ، فكأنهما بقعتان من هذه الأرض تبعثان على الرثاء والشفقة ، إحداهما أكبر من الأخرى قليلاً ، والثانية أصغر من الأولى بقليل . وكان وجهاهما المتعبان ، اللذان لوحتهما الشمس وكساهما الغبار ، يتناسقان تماماً مع لون أسمالهما المتوحشة .

وكان جسد الجد أرخيب الطويل المتعظم يقطع لسان الرمل الضيق المتطاول في شريط أصفر على طول الشاطىء ، بين النهر والضفة المرتفعة . وكان لينكا النائم يجثم قرب جده أشبه ما يكون بهلال صغير . لقد كان لينكا هشاً ، يلوح في أسماله مثل غصن ملتوٍ ، منفصل عن الجد ، هذه الشجرة العجوز المتيبسة التي حملتها أمواج النهر وطوحت بها في هذا المكان .

وكان الجد يتطلع ، وقد رفع رأسه على مرفقه ، إلى الضفة المقابلة ، المغمورة بأشعة الشمس ، المزدانة بشجيرات من الصفصاف ؛ وكان يستطيع أن يميز بين

هذه الجذوع النادرة حافة الطوف السوداء . إنه الدمار والفراغ هناك ! وهذا الشريط الرمادي الذي تشكله الطريق ينفصل عن النهر ويغطس في السهب ، مستقيماً ، جافاً كئيباً بصورة بائسة تبعث على الشفقة والرثاء .

وكانت عينا الشيخ العكرتان الملتهبتان ، وقد احمرّت أجفانهما وانتفخت ، تطرفان دون انقطاع ، ومحياه الملون بالغضون جامداً في تعبير ينمّ عن العذاب والاعياء جميعاً . وما كان يستطيع امتناعاً عن السعال من حين لآخر ، وإذ ذاك يرنو إلى حفيده ويخفي فمه في يده . كان السعال جافاً ، مختنقاً ، يرفعه ويجتذب من عينيه عبرات كبيرة مستديرة .

وفيما عدا سعال الجد وضوضاء الأمواج الخامدة على الرمال ، كان السهب أخرس .. إنه يمتدّ عن جانبي النهر ، شاسع الأبعاد ، متوحشاً ، تحرقه الشمس اللاهبة ، إلا هناك بعيداً بعيداً ، عند الأفق ، حيث يتموج محيط مذهّب من القمح بأبهة عظيمة ، وعينا العجوز لا تكادان تريان منه شيئاً ، تسقط عليه باستقامة سماء صافية تخطف الأبصار وكان يرتسم عليه ثلاثة أشباح باسقة تمثل ثلاث أشجار حور نائية ؛ كانت هذه الأشباح تصغر تارة ، وتعظم تارة أخرى ، والسماء والقمح تحت السماء يترنحان ، يصعدان ويهبطان بصورة مستمرة . ثم يختفي كل شيء ويتلاشى بصورة مباغتة وراء الستار المتألق المفضض الذي ينشره سراب السهب ...

وكان هذا الحجاب المتدفق ، البراق والمخادع ، يقترب أحياناً حتى يكاد يلامس ضفة النهر ؛ وعندئذ يبدو هو الآخر مثل نهر ينبع فجأة من السماء ، نقياً سا كنا مثل هذه السماء عينها .

ووقتئذ كان الجد أرخيب ، الجاهل بهذه الحادثة ، يفرك عينيه ويفكر بكآبة

أن هذه الحرارة وهذا السهب سينتزعان منه البصر كما انتزعا منه قبلاً قوة الساقين .

إن حاله اليوم لأسوأ منها في هذه الأيام الأخيرة . كان يشعر أنه سيموت عما قريب ، فيتركه هذا الاحساس لا مبالياً ، دون أية أفكار ، فكأنه أمام دين لابدّ له أن يدفعه في أوانه المعين . ولكنه كان يحب ، رغم ذلك كله ، أن يموت بعيداً عن هذا المكان ، في بلاده . وإما يفكر في حفيده ، فان قلقه يبلـــغ الأوج ... إلى مَ سيصير لينكا إذن ؟ ..

كان يطرح هذا السؤال على نفسه عدة مرات كل يوم ، فيحسّ كل مرة شيئاً ينقبض في باطنه ويتجلّد ، فيجتاحه غثيان شديد حتى ليتمنى العودة إلى بيته ، في روسيا ، حالاً دون أي إبطاء ...

ولكن روسيا بعيدة .. ولن يصل إليها على أية حال ، بل سيموت في مكان ما على الدرب . الناس أسخياء ههنا ، في الكوبان ؛ هم ميسورو الحال ، لكنهم مقيتون لا يكفون عن السخرية . وما كانوا يحبون الشحادين ، لأنهم أغنياء ..

وجثمت نظرته المبتلة بدمعه على حفيده ، ومسح بيده القاسية ، بحذر ، على رأسه .

فاضطرب الطفل ورفع إليه عينيه الزرقاوين ، عينين كبيرتين عميقتين ، تنمان عن تفكير يفوق سنه ، وتلوحان أعظم اتساعاً في محياه الناحل الصغير المحفور بآثار الجدري ، محياه الرقيق الشفتين ، الخالي من الدم ، ذي الأنف المدبب .

سأل :

— هل جاء ؟

واستكفّ يده ، ورنا إلى النهر الذي يعكس أشعة الشمس .

فشرع أرخيب يقول ، وهو لايني يمسح على رأس حفيده :

ــ لم يأتِ بعد، إنه لا يتحرك . إنه ينتظر . ولماذا يأتي إلى هنا ؟ ليس إنسان يدعوه، فهو ينتظر إذن .. أكنت نائماً ؟

فهزّ لينكا رأسه بصورة غامضة ، وتمطى على الرمال .

ولاذا بالصمت ..

صرّح لينكا بعد قليل ، وهو يشخص إلى النهر بثبات :

ــ لو كنت أعرف السباحة كنت استحميت . النهر سريع جداً ، ههنا ! ليس عندنا أنهار على هذا الغرار . ما باله يضطرب ؟ إنه يركض ، وكأنه يخاف أن يتأخر ..

قال الجد ، مفكراً :

ــ إسمع ، ياصاحِ : فلننزع حزامينا ، ولنربطها ببعضها بعضاً ، فأربط ساقك بها ، وما عليك عندئذ سوى الانزلاق في الماء ، فتستحم .

فردّ عليه لينكا بصوت رزين :

ــ هيا ، ياجدي . ما هذا الذي تتخيل ! لعلك تحسب أن النهر لن يجرفك معه ؟ لهو قمين بأن يغرقنا معاً .

ــ هذا صحيح تماماً ! سوف يجرفني . أنظر كيف يندفع . مما لاريب فيه أنه يفيض في الربيع ، يالطيف ! .. ويجب أن يكون ذلك رائعاً بالنسبة إلى هذه الحقول ، هذه الحقول التي لاتنتهي !

لم تراود لينكا أية رغبة في الاجابة ، فترك الجدّ يتحدث لوحده ؛ كان يمسك بيديه قطعة من الطين الجاف يفتتها بين أصابعه وعلى محياه سيماء الجد والتفكير .

وكان الجد يتطلع إليه ويفكر ، مغضّن العينين .

بدأ لينكا يقول بصوت خفيض رتيب ، نافضاً الغبار عن يديه :

ـ يا عجباً ! .. أنظر إلى هذه الأرض .. لقد أخذتها بين يدي ، وفركتها، فاستحالت غباراً .. لا شيء سوى حبيبات دقيقة ، تكاد ألا ترى .

فاستوضح أرخيب ، وقد أخذته نوبة من السعال وراح يتفحص من خلال عبراته الكبيرة عيني حفيده الكبيرتين ، الجافتين والبراقتين في وقت واحـــد :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

وأضاف حين هدأ سعاله :

ـ لماذا تقول هذا ؟

هزّ لينكا رأسه ، ونبر :

ـ هكذا .. لمجرد القول . بخ ، إنها جميعاً على هذا الفرار ! ..

وأشار بذراعه إلى الضفة الثانية من النهر ، وأضاف :

ـ وإنه قد بُني كل شيء على هذه الأرض .. كم من مدينة اجتزنا ! أكوام من المدن ! وثمة بشرٌ في كل مكان ، ما أكثرهم !

وإذ لم يستطع لينكا أن يتفهّم فكرته جيداً ، عاد إلى الاستغراق بسكون في التفكير ، متطلعاً فيما حواليه .

ولاذ الجد برهة بالصمت هو الآخر ، ثم شرع يتحدث ، على عكس حفيده ، بصوت لطيف رقيق :

ـ أيها الخبيث الصغير ! أصبت ، فكل شيء غبار .. المدن ، والبشر ، وأنت وأنا ، نحن جميعاً من الغبار نفسه .. آه ! لينكا ، يا صغيري لينكا ! .. لو أنك ذهبت إلى المدرسة ! .. كنت إذنْ تقطع شوطاً بعيداً . لكن ، ما عسى أن يكون مصيرك ؟ ..

وشدّ الجد رأس حفيده إلى صدره وقبّله .

صاح اينـكا ، خارجاً عن صمته ، محرراً شعره الكتاني من أصابع جـــده العقدة المرتجفة :

— انتظر .. كيف قلت ؟ ذاك غبار ؟ المدن ، وكل ما هو موجود ؟

— إنه الله الذي جعلها هكذا ، ياحبيبي . كل شيء أصله من الأرض ، والأرض غبار . وكل شيء يموت على الأرض .. هكذا هي الأمور !. ولذلك ينبغي للانسان أن يعيش في العمل والذل . خُذْ ، فأنا الآخر سأموت عما قريب ..

وأضاف بكآبة :

— أين عساك تذهب عندئذ بدوني ؟

ما أكثر ماسمع لينـكا جدّه يطرح هذا السؤال ، حتى لقد شبع من التفكير في الموت ، فأدار رأسه دون أن ينبس بحرف ، وانتزع عرقاً من العشب وضعه في فمه وشرع يمضغه على مهل .

أما بالنسبة إلى الشيخ ، فقد كان الموضوع حساساً .. استفسر بلطف ، منحنياً على حفيده وهو يسعل من جديد :

— لمَ لاتقول شيئاً ؟ كيف ستدبر الأمور بدوني ، قُلْ ؟

فقال لينـكا شارداً متضايقاً ، وهو يلقي على الجد نظرة شزراء :

— لقد سبق فقلتُ ذلك ..

إذا كان هذا الضرب من الحديث لايرضيه ، فسبب ذلك أنه ينتهي إلى الخصام في أغلب الأحيان . كان الجد يثرثر طويلاً عن اقتراب الموت ، فيصغي إليه لينـكا بانتباه كبير بادىء الأمر ، ويذعر من جدة الوضع الذي يُعرض أمامه ويبـكي ، لكنه سرعان ما يتعب شيئاً فشيئاً ، فيكفّ عن الاصغاء ، ويستسلم لأفـكاره الخاصة ؛ ويلاحظ الجد ذلك فتثور ثائرته ، ويشكو من أن

لينكا لايحب جدّه ، وأنه لايُعنى بهمومه البتة ، ثم يتهمه أخيراً بأنه يتمنى موته .

ــ وماذا قلتَ ؟ إنك ماتبرح أحمق صغيراً ، فلا تستطيع أن تفهم ماهية حياتك . ماذا تبلغ من العمر ؟ أنت في الحادية عشرة من سنيك فقط . أنت هش ، لاتصلح للعمل أين عساك تذهب ؟ أتحسب أنه سيكون قوم طيبون يساعدونك ؟ آه ! لو كنت تملك مالاً ، فقد كانوا يساعدونك إذن على النهامه ، هذا ما تستطيع أن تكون على يقينٍ منه . وهل تحسب أن طلب الصدقة أمر يبعث على السرور في سني ؟ الانحناءات أبداً ، والتوســـلات أبداً ! وإنهم ليشتمونك ، بل يضطربونك أحياناً ويطردونك .. أتحسب حقاً أنهم يعتبرون المتسوّل إنساناً ؟ كلا ! لقد انقضت عشر سنوات عليّ وأنا أتدحرج عبر العالم ، فأنا أفهم ما أقول . إنهم يعطونك كسرة من الخبز فكأنها ورقة من فئة الألف روبل . ولا يكادون يعطونك إياها حتى يتصوروا أن أبواب الجنة ستنفتح أمامهم . فكر قليلاً ، ما الذي يحملهم على الصدقة ؟ كي يريحوا ضميرهم ، إنهم يفعلون ذلك في سبيل هذا وحده ، ياصغيري ، فلاتظنن أنهم يشفقون عليك . إنهم يرمون كسرة لك ، وبعدئذ يستطيعون أن يأكلوا دون خجل . والمرء الذي يأكل حتى يشبع هو حيوان مفترس لايشفق أبداً على ذلك الذي يظلّ بطنه خاوياً . إنهما عدوان أبداً ، يتبادلان النظر بصورة دائمـــة مثل الكلاب المصنوعة من الخزف . ولا يغامران بمحاولة التفاهم وتبادل الرأفة ...

وثارت حميَّة الجد بفعل الغضب والمرارة ، فارتجفت شفتاه ، وأخـــذت عيناه العكرتان تتدحرجان بين أهدابه وأجفانه المحمرة ، بينما انحفرت الغضون في محياه المظلم .

لم يكن لينكا يحب أن يراه على هذه الحال ، فانتابه شيء من الخوف .

— إني أسألك ما عساك تفعل في هذا العالم؟ أنت طفل صغير ناحل ، أما العالم فحيوان مفترس . سوف يلتهمك في الحال . أما أنا فلست أريد ذلك .. إني أحبك ، ياصاح ، وأنت تعرف ذلك ! ليس لي سواك وليس لك سواي ... كيف أستطيع الموت ؟ أن أموت وأتركك .. لمن ؟ .. يارب ! .. لمَ لم تحبُّ عبدك ؟ لم أعد أملك القوة على الحياة ، ولا أستطيع كذلك أن أموت بسبب الطفل ، إذ ينبغي لي أن أذود عنه وأحميه . لقد حملته سبع سنوات .. على ذراعيَّ العجوزين .. يارب ، مدَّ لي يد المعونة ! ..

جلس الجد وشرع يبكي ، ورأسه بين ركبتيه المرتجفتين .

كان النهر يهرب إلى المنتأى ، ويهدر بصخب على الضفة فكأنه يريد أن يخنق بهديره تأوهات العجوز . وكانت السماء البريئة من الغيوم تبتسم بصورة مضيئة ، وتسكب حرارة من نار ، وتصغي بهدوء إلى ضجيج الأمواج المضطربة الصاخب .

قال لينكا بصوت صارم ، وعيناه تنظران إلى مكان آخر :

— هذا يكفي ، لاتبكِ ، ياجداه !

وأضاف ، وقد أدار محياه صوب جده :

— لقد تحدثنا عن هذا كله ، أليس كذلك ؟ سوف أتدبر أمري ، سوف أطرق باب حانة في مكانٍ ما ..

فزمجر الجد الغارق في دموعه :

— سوف يضربونك ..

فصاح لينكا بشيء من التحدي :

— قد يكون ذلك ، وقد لايكون . كلا ، لن يضربوني . ماذا يستطيعون أن يصنعوا بي ؟ لن أسمح لهم بذلك ! ..

وسكت برهة ، ثم أضاف بعد قليل بصوت مخفوض :

— وإلا ، فسأغدو إلى الدير ..

فتنهّد الجد ، وقد دبت الحياة في أوصاله :

— ليتك تفعل ذلك !

وطوته نوبة جديدة من السعال الخانق .

وارتفع إلى الأعلى من رأسيهما صياح وصرير دواليب ..

وشقّ النداء المنطلق من أعماق الحنجرة الهواء صائحاً :

— القا ـ رب ! .. القارب ! هيا !

فهبّا على أقدامهما ، وأخذا كيسيهما وعصويهما ..

كانت عربة تصرّ بسائر دواليبها قد اندفعت في الرمال ، ينتصب فيها قوزاقي واقفاً على قدميه ، ضمت رأسه قلنسوة مخملية مالت على إحدى أذنيه ؛ وكان يتهيأ للصياح ، فهو يستنشق الهواء ، فاغراً فمه ، مقبباً صدره العريض ، وأسنانه البيض تتضوأ في إطار لحية سوداء حريرية تتسلق إلى ما تحت عينيه المحتقنتين بالدم . وكانت العين ترى تحت قميصه المفكوك الأزرار ومعطفه الملقى باهمال على كتفيه جسداً يغطيه الشعر ، قد صوّحته الشمس بنيرانها . وكان كل شيء في هذا الجسد الكبير المتين البنيان ، كما في هذا الحصان الأشهب الممتلىء لحماً ، الكبير هو الآخر بصورة شيطانية ، وكما في دواليب العربة العالية المطوقة بالحديد السميك ، كان كل ذلك يؤثر في النفس ، ويخلّف فيها انطباعاً عميقاً من الصحة ، والعنفوان ، والقوة .

— هيْ ... هيا !...

رفع الجد والحفيد طاقيتيهما وانحنيا كثيراً . غير أن القادم الجديد صاح بصوت رنان :

- صباح الخير !

وبعدما تطلع إلى الضفة الثانية حيث الطوف الاسود يبرز من خلال أشجار الصفصاف بخراقة وتمهل ، التفت إلى المتسولين يتفحصها من قمة رأسها حتى أخمص أقدامها .

— من روسيا ؟

فردّ عليه أرخيب ، وهو ينحني :

— آه ، بلى ، يا سيدي الطيب !

— يموت الناس جوعاً هناك ، ما ؟

وقفز من عربته ، وأخذ يشدّ أحد سيور الحصان .

— حتى الخنافس تموت جوعاً !

— آه ، آه ! حتى الخنافس ؟ وهـذا يعني بكلام آخر أنه لم يبق شيء من شيء ، وأنكم قـد أتيتم على كل شيء ؟ إنكم أقوياء من أجل الأكل ، أما العمل فقصة أخرى بكل تأكيد . ذلك أنه عندما يشتغل المرء جيداً ، كما ترى ، فانه يجد دائماً ما يأكله .

— إن السبب الرئيسي ههنا ، يا سيدي الطيب ، هي الأرض ... هذه الأرض ما عادت تنتج . لقد استنفدناها ، هذه الأرض .

فهزّ القوزاقي رأسه :

— الأرض ؟ يجب أن تنتج الأرض دائماً ، وهي ما أعطيت للانسان إلا في سبيل ذلك . قل بالأحرى إنها ليست الأرض ، بل الأذرعة . إن الأذرعة سيئة . الأرض لا تقاوم الأذرعة الجيدة ، بل تنتج .

وكان الطوف يقترب ...

دفع قوزاقيان يضرب وجهاهما الممتلئان الأحمران إلى اللون القرمزي الطوفَ

حتى الضفة بصخب شديد ، وقد تقوست قامتاهما فوق سيقانهما الكبيرة ، ثم تعثرا ورميا المرساة ، وأخيراً تبادلا النظر وطفقا يلهثان .

ـــ هل الطقس حار ؟

وافترّت شفتا القـادم الجديد عن ابتسامة عريضة ، ورفع يده إلى طاقيته ، وتقدم بجواده على الطوف .

قال أحد البحارين ، دافعاً يديه في جيبي سرواله المنتفخ ومتقدماً من العربة :

ـــ ليس الطقس بارداً .

ورمى نظرة إلى العربة ، وحرك ذؤابة أنفه ، مستنشقاً الهواء ملء رئتيه .

أما الآخر فاقتعد أرض الطوف ، وشرع ينزع حذائيه مزمجراً .

وتسلّق الجـد ولينكا الطوف بدورهمـا ، واستندا إلى حافتـه كي يراقبا القوزاق .

وأصدر صاحب العربة أمره :

ـــ هيا ، فلننطلق !

فسأله ذلك الذي تفحص العربة :

ـــ أفلا تأخذ معك ما نشربه ؟

كان زميله قد نزع جزمتيه وطفق يتفحص باطن ساقيها طارفاً بعينيه .

ـــ كلا . ثم ماذا ؟ أفليس في الكوبان كفاية من الماء ؟...

ـــ الماء !.. أنا لا أتحدث عن الماء ...

ـــ الخمرة إذن ؟ كلا ، لست أحمل خمرة .

فاستفسر الآخر متفكراً ، وعيناه تستقران على خشب الطوف :

ـــ كيف يمكن أن يكون ذلك ؟

ـــ هيا ، فلننطلق !

بصق القوزاقي في يديه وأمسك الحبل ، فتقدم منه المسافر يساعده . وقال البحار صاحب الجزمة متوجهاً إلى أرخيب :

— وأنت ، أيها الجد ، لماذا لا تقدم له عوناً ؟

فقال الجد بنغمة غنائية مفعمة بالشكوى ، وهو يهزّ رأسه :

— كيف لي ذلك ، أيها الصديق ؟

— ولا حاجة إلى ذلك على أية حال . سوف يتدبران الأمر لوحدهما !

وكأنه أراد أن يقنع الجد بصدق كلماته ، فترامى بثقل على ركبتيه وتمدّد على ظهر الطوف .

وبخه رفيقه بتكاسل ، فلما لم يتلقّ منه جواباً ضرب الأرض بصخب بقدميه ، جاهداً أن يثير أقصى ما يمكن من ضوضاء . وكان الطوف ، وقد حمله التيار الهادر بصدى أصمّ على جانبيه ، يرتعش ، ويترنح إلى الأمام والخلف ، ويتقدم على مهل ...

كان لينكا يحملق في الماء ويحس رأسه يدور بلطف وعينيه المتعبتين بجريان الأمواج السريع تلتصقان بالحاجة إلى النوم . كان همس الجد الأصم ، و صرير الحبل ، والهدير الطنان تهدهده جميعاً ؛ فيودّ أن يترامى على الأرض لشدة إعيائه ورغبته في النوم . بيد أن شيئاً ما قلبه بصورة مباغتة فسقط على خشب الطوف .

تطلعْ حواليه وقد جحظت عيناه . كان القوزاق يهزؤون به وهم يشدون الطوف إلى أرومة محترقة على الشاطئ .

— إذن ، فقد كنت نائماً ؟ أنت لا تستطيع وقوفاً على قدميك . إصعد إلى العربة ، وسوف أقودك حتى القرية . إصعد أنت الآخر ، أيها الجد .

فشكر الجدّ القوزاقي بصوت أراده أن يكون متهدجاً ، وتسلق العربة

مزمجراً ، وقفز لينكا بدوره إليها ، فانطلقوا جميعاً في إعصارات من الغبار الدقيق الأسود ، بينا عيَّث الجد يسعل من جديد حتى يكاد يختنق .

وراح القوزاقي ينشد أغنية . كان يغني بأصوات غريبة ، ينتزع الألحان بعنف ويختمها بصفير . كنت تقول إنه ينشر الأصوات مثل خيطان كبة الغزل ، فاذا ما صادف عقدة قطع الخيط قطعاً .

كانت الدواليب تصرُّ بشكوى ، والغبار يدوِّم ، والجد يهزُّ رأسه ويسعل دون انقطاع ، بينا لينكا يفكر أنهم سيكونون بعد برهة وجيزة في القرية القوزاقية ، وأنه سينبغي له أن يستجدي تحت النوافذ بصوته الأخن : أيها الرب يسوع المسيح ... وسيشرع الأطفال يسخرون منه من جديد ، والنساء يضايقنه بالاسئلة عن روسيا . لم يكن يحب ، في مثل هذه الأحيان ، أن ينظر إلى الجد الذي لا يكفّ عن السعال ، والذي ينحني كثيراً حتى إن لينكا ينتابه الضيق هو الآخر ويتألم ، ويتحدث بصوته الشاكي ، ويتأوه ، ويروي أشياء لم توجد قط في أي مكان على الاطلاق ... كان يقول إن الناس في روسيا يموتون في الشوارع ، وإنهم يبعثون هكذا حيث يموتون ، وإنه ليس ثمة إنسان يرفعهم لان الناس جميعاً أرهقهم السغب وهدهم ... وهما لم يريا شيئاً من ذلك في الامكنة التي مرا بها ، بيد أنه ينبغي رواية ذلك كله لاجبار الناس على العطاء . ولكن أين يمكنهما هنا أن يدسا الصدقة ؟ كانا يستطيعان في بلدهما أن يبيعا القمح بسعر أربعين كوبيكاً ، بل نصف روبل ، لكل خمسة عشر كيلوغراماً ، أما هنا فليس من يريد هذا القمح . ومن ثمّ لا بدّ من إلقاء أكياس مليئة بأشياء جيدة في السهب .

سأل القوزاقي ، وهو يتطلع من فوق كتفه إلى الشبحين المتقلصين :

— هل ستستجديان ؟

فأجاب الجد أرخيب متنهداً :

ـــ لا بدَّ من ذلك ، يا سيدي الطيب !

ـــ قم على قدميك ، أيها الجد ، وسأدلك على مسكني فتأتي لقضاء الليل عندي .

فحاول الجدُّ أن ينهض ، سوى أنه سقط من جديد ، واصطدمت أضلاعه بحفاف العربة فزمجر بصوت حادّ .

وتمتم القوزاقي مشفقاً :

ـــ ويَ ! أيها العجوز ! لا عليك ، فليس من حاجة إلى مرافقتي . عندما تحين ساعة الرقاد اسأل عن تشيرني ، أندريه تشيرني الذي هو أنا . والآن إنزل ، وداعاً !

وقف الجد والحفيد أمام باقة من أشجار النخيل . كنت ترى من خلف الجذوع سقوفاً ، وحواجز ، وباقات الأشجار نفسها تنتصب في كل مكان ، عن يسار وعن يمين . وكانت أوراقها الخضر مغطاة بغبار رمادي اللون ، وقشرة الجذوع الكبيرة فيها قد شققتها الحرارة .

وكانت درب ضيقة تمتد أمام المتسولين باستقامة ، بين سياجين ، فسلكاها وهما يترنحان كما يفعل الناس الذين مشوا كثيراً .

سأل الجد :

ـــ إذن ، يا لينكا ، ما عسانا نفعل ! هل ننطلق معاً أم يتخذ كل منا طريقه الخاصة ؟

ولم ينتظر جواباً ، بل أضاف :

ـــ يفضل أن ننطلق معاً ، فالناس لا يعطونك إلا القليل القليل . إنك لا تعرف كيف تطلب ..

فأجاب لينكا بنفور ، وعيناه تجولان فيما حوله :

— وما جدوى ذلك ؟ فأنت على أية حال لن تأكل شيئاً ...

— ما جدوى ذلك ، أيها الحيوان الكبير ؟... ولنفرض أنك وجدت شارياً بصورة لم تكن في الحسبان ؟ إليك ما ستفعل به إذن ! سوف يعطونك مالاً ، وإن المال لشيءٌ عظيم ؛ لسوف تستطيع بالمال أن تتدبر أمورك بعد موتي .

ومسح الجد على رأس حفيده ، وهو يضحك بصوت خفيض :

— هل تعرف مبلغ ما جمعت أثناء الطريق ، إيه ؟

فاستعلم لينكا في لامبالاة :

— كم جمعت ؟

— أحد عشر روبلاً ونصف الروبل !... أرأيت !

لكن المبلغ ونغمة الجد الحماسية معاً لم يؤثرا في لينكا أدنى تأثير .

تنهد الجد وقال :

— آه ، يا صغيري ، يا صغيري ! إذن فاننا ننطلق كلٌّ في طريقه ؟

— أفضّل ذلك ...

— حسناً ... سوف نلتقي قرب الكنيسة ، أتريد ذلك ؟

— اتفقنا .

سلك الجد الدرب الضيقة وانعطف إلى اليسار ، أما لينكا فتابع الطريق باستقامة . ولم يكد يخطو عشر خطوات حتى سمع صوتاً مرتعشاً : « أيتها النفوس الشفوقة !!! » كان هذا النداء يذكر بضوضاء يدٍ تمرُّ على قيثارة غير مبضوضة الأوتار ، من الوتر الأضخم إلى الوتر الأدقّ . وارتعش لينكا وحثّ خطاه . كان يحس النقمة كلما سمع هذه التوسلات ، ويحسُّ شيئاً من الكآبة بالاضافة إلى ذلك ؛ لكنه إذا ما ارتد الجد خائباً مرة فقد كان يفقد الشجاعة ،

متيقناً أن العجوز سينفجر في زمجرات مديدة .

كان لا يبرح يميز الأنغام المرتجفة الشقية السابحة في فضاء القرية القوزاقية الأهالي الشديدة الحرارة. وكان كل شيء فيما حواليه هادئاً مثله في الليل. أطفأ لينكا من الحاجز وجلس في ظل شجرة كرز تتهدّل أغصانها في الطريق . كان دويّ نحلة يشخر في مكان ما ...

رمى لينكا جرابه عن كتفه ، وأسند إليه رأسه ، وتأمل السماء برهة من خلال الأوراق فوقه ، واستغرق في نوم عميق ، تحميه من عيون المارة أعشاب كثيفة مجنونة وظل الحاجز المخطط ...

وأهبّته من رقاده أصوات غريبة سابحة في الفضاء المنتعش باقتراب المساء . كان شخص ما يبكي قريباً منه . تلك كانت دموع صبي صغير ، دموعاً ناقمة لا ينضب لها معين . وكانت الزفرات تنطفىء بلحن حاد ، ثم تنفجر من جديد بصورة مباغتة وتنتشر بقوة جديدة ، وهي تزداد قرباً دون انقطاع . فرفع لينكا رأسه وشخص إلى الطريق من خلال الأعشاب .

شاهد طفلة صغيرة يمكن أن تكون في السابعة تقترب منه ، نظيفة الهندام ، محمرّة الوجه منتفختة بفعل الدموع التي لا تبرح تجففها بطرف تنورتها البيضاء . كانت تسير على مهل ، تجر قدميها العاريتين على أرض الطريق باعثة في الفضاء سحابة من الغبار ، وهي لا تدري بكل تأكيد أين تذهب أو ما تفتش عنه . كانت العينان منها كبيرتين سوداوين ، ملأهما الغضب الآن فهما حزينتان مبتلتان ، كما أن الأذنين منها كانتا دقيقتين ورديتين تبرزان بقحة من تحت جدائلها الكستنائية الهائجة المترامية على جبهتها ، ووجنتيها ، وكتفيها .

وجدها لينكا مرحة باعثة على التسلية رغم عبراتها ... ولقد كانت لعوباً ، هذا ما لا ريب فيه .

سأل ، وهو ينتصب على قدميه عندما أصبحت في محاذاته :

ـــ ما بالك تبكين ؟

انتفضت وتوقفت في مكانها : كفت عن البكاء بغتة ، لكنها استمرت تنشج بصوت خفيض . نظرت إليه بضع ثوان ، ثم ارتعشت شفتاها من جديد ، واكتسى وجهها بالغضون ، ولهث صدرها ، وعاودت البكاء بصخب وقد تابعت طريقها .

أحسّ لينكا شيئاً ينقبض في أعماقه ، فانطلق بغتة هو الآخر يلاحقها . شرع يقول قبل أن يدركها :

ـــ لكن لا تبكي . صبية كبيرة مثلك ، أفلا تخجلين ؟

وعندما لحق بها ، حملق في وجهها واستوضح من جديد :

ـــ هيا ، ما الذي يحملك على النحيب ؟

فزعقت :

- آه ـــ ه !... لو أنك ...

وتهاوت بصورة مباغتة في غبار الطريق ، وغطت محياها بيديها ، وزمجرت بيأس .

فبدرت من لينكا إشارة تنمّ عن الاحتقار :

ـــ هيا ! أنت لست سوى امرأة !... امرأة حقيقية ! تفو !...

لكن ذلك لم يسوِّ شيئاً من الأمور ، لا بالنسبة إليها ولا بالنسبة إليه . وحينما شاهد لينكا الدموع الصغيرة تسيل من بين أصابعها الدقيقة الوردية انتابه الحزن هو الآخر وراودته رغبة في البكاء . انحنى عليها ، ورفع إحدى يديها بحذر ، ولامس شعرها ؛ لكنه ذعر في اللحظة نفسها من جرأته وسحب يده . وكانت لا تبرح تبكي ، ولا تقول شيئاً .

عاد لينكا يقول بعدصمت قصير ، وكان يحسّ حاجة ملحة إلى مساعدتها :

- أتسمعين ؟ ما بالك ؟ لقد ضربوك ، ما ؟ إن كان الأمر ذلك ، فلا عليك !... أم لعلّ هناك سبباً آخر ؟ تكلمي ! وَيْ ، أيتها الصغيرة ؟

هزت الصغيرة رأسها بكآبة دون أن ترفع يديها عن وجهها ، وأخيراً أجابته ببطء من خلال تأوهاتها ، وهي تهزّ كتفيها :

ـ لقد أضعت ... وشاحي !... لقد أتاني والدي به من المعرض ... كان أزرق اللون ، وفيه أزهار ، وقد لبسته للنزهة وأضعته.

وعادت تبكي أكثر من ذي قبل ، وهي تتأوه وتطلق زمجرة غريبة : أو - أو ـ أوه !

أحسّ لينكا أنه لن يفيدها شيئاً ، فابتعد عنها بارتباك وسما بنظره إلى السماء المظلمة متفكراً مكتئباً . كان قلبه ثقيلاً ، وكان يرثي للطفلة . همس بصوت مخفوض :

ـ لا تبكي !...

ولكنه إذ أدرك أن جهوده لتعزيتها لا تنفع شيئاً ، ابتعد عنها أكثر من ذي قبل ، مفكراً أن أباها سيقتص منها دون أدنى ريب ... وتخيل الأب في الحال ، قوزاقياً ضخماً أسود الشعر ، وهو يضرب ابنته ، والصغيرة تتجرجر عند قدميه وقد سبح محياها في الدموع ، وراح جسدها برمته يرتجف خوفاً وألماً ...

نهض وابتعد ، بيد أنه ما قطع خمس أو ست خطوات حتى التفت بغتة ، ووقف قبالتها مستنداً إلى السياج ، وحاول أن يتذكر بعض الكلمات اللطيفة الطيبة ...

- ينبغي أن تبتعدي من عرض الطريق ، يا صغيرة ! هيا ، كفي عن البكاء !

إذهبي إلى بيتك وقولي كل ما جرى لك . قولي إنك فقدته ... ما الذي يؤلمك حتى هذه الدرجة ؟

كان صوته أول الأمر لطيفاً مشفقاً ، وعندما انتهى بهتاف ثائر سرّ لرؤيتها تنهض عن الأرض . فاسترسل يقول مبتسماً فرح اللهجة :

— هذا أفضل ! إذهبي إلى البيت في الحال ! إذا أردتِ رافقتك ورويتُ كل شيء ؟ سوف أدافع عنك ، لا تخافي !

وهزّ لينكا كتفيه باعتزاز بعد أن ألقى نظرة فيما حوله.

همست ، وهي تنفض الغبار ببطء عن ثوبها ولا تبرح تنشج :

— لا ضرورة لذلك ...

فأعلن لينكا بصوت مرتفع ، وباندفاع تام ، وهو يميل بطاقيته على أذنه :

— إذا أردت فاني أرافقك .

إنه يقف الآن أمامها مقوساً بمتانةٍ فوق ساقيه ، تلوح الأسمال التي يرتديها وقد ازأبرت باقدام وجرأة . كانت عصاه تضرب الأرض بقوة وثبات ، وهو يحدّق في الصغيرة بعناد ؛ بينا عيناه الواسعتان الكئيبتان تبرقان بعاطفة من الكبرياء والشجاعة .

ألقت إليه الصغيرة نظرة منحرفة ، وفركت الدموع على وجهها وقالت وهي تصعّد تنهيدة جديدة :

— لا ضرورة لذلك ، لا تأتِ ... إن أمي لا تحب الفقراء .

وابتعدت ، بعد أن التفتت مرتين .

وانتاب الضجر لينكا ... بدّل وقفته الصارمة المتحدية بحركة بطيئة غير محسوسة ، وانحنى من جديد ، متواضعاً ، وألقى جرابه على ظهره بعد أن كان يتدلى من ذراعه حتى ذلك الحين ، وصاح بالفتاة التي كانت على وشك التواري

في منعطف الدرب الضيقة :

ــ وداعاً !

كانت قد التفتت إليه أثناء سيرها وتوارت .

كان المساء يقترب ، والجو مشحوناً بتلك الحرارة الخاصة ، الخانقة ، المرهقة ، المعلنة عن اقتراب العاصفة . وكانت الشمس واطئة وذرى أشجار النخيل تنصبغ بلون قرمزي طفيف ... لكن ظلال المساء التي تلفّ أغصان تلك الأشجار كانت تجعل أشباحها العالية الجامدة أشد كثافة وأكثر ارتفاعاً ... وإلى الأعلى منها أظلمت السماء أيضاً ، متخذة أصبغة مخملية وهي تلوح كأنها تهبط أكثر فأكثر في اتجاه الأرض وكان بعض الناس يتحدثون في مكان ما بعيداً ، وكان غناء يرتفع في مكان ما إلى الأبعد من ذلك ، لكن من جهة أخرى . وكانت هذه الأصوات الضعيفة والمليئة في الوقت نفسه تلوح هي الأخرى مشحونة بهذا الجو الخانق .

كان ضجر لينكا يتزايد دون انقطاع ، بل لقد انتابه الخوف أيضاً . راودته الرغبة في اللحاق بجده ، فأتأر النظر فيما حواليه وتقدم في الدرب الضيقة بخطوات سريعة . لم تكن به رغبة في طلب الصدقة ، فكان يمشي ويحسّ أن قلبه يخفق بسرعة عظيمة ، عظيمة جداً ، في صدره ، وأن به نوعاً من كسل خاص يمنعه من المشي ومن التفكير . . . لكن الفتاة الصغيرة لم تبارح فكره ، فكان يتساءل عما عساها تفعل الآن . إذا كانت من عائلة غنية فسوف يضربونها ، إن سائر الأغنياء بخلاء يتمسكون بالقرش الزهيد . لكنها إذا كانت فقيرة فقد لا يضربونها ... إن العائلات الفقيرة تحبّ الصغار كثيراً لأنها تعتمد على شغلهم . كانت هذه الأفكار تضطرب دون هوادة ، تلاحق بعضها بعضاً في رأسه . وكان إحساس من العذاب المرهق الجارح ، الملتصق مثل الظل بأفكاره ،

يثقل عليه أكثر فأكثر في كل لحظة ، ويجتاحه بقوة عظيمة .

وكانت ظلال المساء تزداد كثافة وإرهاقاً إن بعض القوزاق ، رجالا ونساء ، يمرون بلينكا دون أن يعيروه أدنى التفات ؛ لقد اعتادوا هذه الموجة العارمة من الجياع القادمين من روسيا . وكان هو الآخر يمرّ بنظراته الخامدة بكسل على أشباحهم الشبعانة الشاهقة ويخبّ مسرعاً صوب الكنيسة التي يبرق أحد صلبانها خلف الأشجار .

ودفّ صوبه صخب قطيع في طريق عودته إلى حظيرته . هذه الكنيسة الواطئة العريضة ، بأجراسها الخمسة المصبوغة بالزرقة ، المتجاوزة ذراها العالية الصلبان السابحة في أشعة الغروب والمتألقة من خلال الخضرة ذات الانعكاسات الذهبية الموردة . وهذا الجدّ يقترب من ناحية فناء الكنيسة ، منحنياً تحت ثقل خرجه ، متطلعاً في كل حدب وصوب ، ويده ملتصقة بجبهته .

إن قوزاقياً ثقيل المشية المهيبة يتبعه ، لابساً طاقية تغور عميقاً فوق جبينه ، وممسكاً عصاً بيده .

سأل الجد ، وهو يقترب من حفيده الذي ينتظره قريباً من بناء الكنيسة :

— إن كيسك فارغ ، أليس كذلك ؟ أما أنا ، فانظر !..

ونزع كيسه المليء حتى يكاد أن يتشقق عن كتفه ، ووضعه على الأرض وهو يلهث :

— أف ! .. إن الناس محسنون ههنا ! وإن ذلك لرائع . ولكن ما بالك مكتئباً هكذا ؟

فقال لينكا بصوت خفيض ، وهو يجلس على الأرض بجانب جده :

— إن رأسي يؤلمني ..

— قل .. إنك متعب .. ولم تعد تستطيع احتمالاً ! .. إليك ، سوف نسعى

إلى النوم في الحال . ما اسمه ، ذلك القوزاقي ؟ إيه ؟

ــ أندريه تشيرني .

ــ حسناً ، سوف تسأل : أين يقطن تشيرني أندريه ؟ إليك ، هذا شخص يقدم في هذه الناحية .. أجل .. هؤلاء قوم شجعان ، يأكلون حتى يشبعوا ! وإنهم لا يأكلون إلا خبز القمح . طاب يومك ، أيها الرجل الطيب !

فاقترب القوزاقي منهما ، وقال بصوت متمهل رداً على تحية الجد :

ــ طاب يومك أنت أيضاً !

ثم تقوس على قدميه ، وحدّق بالمتسولين بثبات بعينيه الخاليتين من كل تعبير ، وحكّ رقبته دون أن يقول شيئاً .

احتار لينكا في تعليل هذا السلوك ، بينما راح الجد يطرف بعينيه متسائلاً . وظل القوزاقي معتصماً بالصمت ، وأخيراً أخرج لسانه قليلاً كي يلتقط به طرف شاربه . وعندما نجح في هذه العملية سحب شاربه إلى فمه ، ومضغه ، وأخرجه بطرف لسانه ، وحطم أخيراً ذلك الصمت المرهق قائلاً بصوت كسول :

ــ هيا ، اتبعاني إلى المركز .

فانتفض الجد ، واستفسر :

ــ لماذا ؟

وأحسّ لينكا رعشة في أعماقه .

ــ يجب ذلك .. لقد تلقيت الأمر به . هيا !

وأدار لهما ظهره وهمّ بالمسير ، ولكنه إذ ألقى نظرة سريعة إلى الوراء وشاهد أنهما لم يتحركا من مكانهما ، فقد صاح بصوت أجش :

ــ أيجب أن أجركما جراً ؟

عندئذ لحق به الجد ولينكا بما وسعهما من سرعة .

كانت عينا اينكا مثبتتين بجده ؛ وعندما شاهد شفتيه ترتعشان ورأسه يرتجف ، ورآه يلقي فيما حوله نظرات مذعورة وينبش سترته ، راوده الشعور بأنه قد ارتكب الحماقات مرة أخرى ، كما فعل ذات مرة في تامان . وشرع الخوف ينتابه عندما فكر في قضية تامان . لقد سرق الجد يومئذ بعض الثياب الداخلية من فناء إحدى الدور فقبضوا عليه والأشياء التي سرقها بين يديه .

واقد سخروا منهما ، وأهانوهما ، بل لقد بلغ الأمر بهم أن ضربوهما ، وأخيراً طردوهما من القرية في زحمة الليل ... ولقد أمضيا ذلك الليل في مكان ما من ضفاف المضيق على الرمال ، حيث زمجر البحر بصورة مخوف طوال الليل . وكان الرجل يئن تحت وطأة الأمواج المرتدة . ولقد زمجر الجد طوال الليل وصلى إلى الله ، متهماً نفسه باللصوصية ، متوسلاً إليه أن يغفر له .

— لينكا ...

وانتفض الطفل لضربة في خاصرته ، ونظر إلى جده ؛ كان وجهه قد استطال وأصبح أكثر جفاء وظلمة منه عادة وهو لا يني يرتجف .

كان القوزاقي يسبقهما خمس أو ست خطوات ، يدخن الغليون ، ويقتطع بضربات من عصاه رؤوس القرطب دون أن يلتفت إلى الوراء مطلقاً .

همس الجد بصوت يكاد ألا يُسمع :

— إليك ، خذ .. إرمه في العشب .. وعيّن المكان حيث رميته ! .. لسوف نرجع لنفتش عنه فيما بعد !

والتصق بحفيده وهو يتابع مسيره ، ودفع في يده خرقة ملفوفة على صورة كرة .

ابتعد لينكا وهو يرتعش خوفاً ؛ واخترقته قشعريرة متجلدة بصورة مباغتة من رأسه حتى قدميه ؛ واقترب من الحاجز حيث تنمو بعض الأعشاب البرية بغزارة . مدّ يده ، وعيناه مثبتتان بالكتفين العريضين للقوزاقي الذي يرافقها ، ورمى الخرقة في الأعشاب ..

انتشرت الخرقة أثناء سقوطها فاستطاع لينكا أن يري وشاحاً أزرق ذا أزهار ترك مكانه في الحال لصورة الصبية الصغيرة الباكية . انتصبت أمامه ، فكأنها نابضة بالحياة ، فلم يعد لينكا يري القوزاقي ، أو جده ، أو أي شيء آخر مما يحيط بهم .. ملأت أذنيه من جديد ضوضاء نحيبها ، فخيل إليه أن دموعاً شافة تساقط على الأرض أمامه .. وهكذا فقد دخـــل في حال من اللاشعور تقريباً إلى المركز خلف جده ، وسمع خريراً أصم لم يستطع ولم يشأ أن يفهمه . ورأى ، فكأنما من خلال ضباب كثيف ، كسر الخبز تنسكب من خرج جده على الطاولة الكبيرة ، وأصغى إلى هذا الخبز يقرع الطاولة بصوت حادّ طري . ومن ثم انحنت رؤوس عديدة مغطاة بقبعات عالية على المائدة ؛ لقد كانت الرؤوس والقبعات كئيبة قاتمة ، وكانت تهديدات رهيبة تتصاعد وتترنح من خلال الضباب الذي يشملها هي الأخرى . ثم تمتم الجد بغتة ببضع كلمات بصوت أجش ودار مثل الخدروف في أيدي شابين متيني البنيان ..

صاح الجد بصوت مختنق :

— أنتم مخطئون ، أيها الاخوة الأورثوذكسيون ! إني بريء ، والله شاهد عليّ !

وتهاوى لينكا على الأرض ، وقد غصّت عيناه بالدموع .

عندئذ اقتربوا منه ، وأنهضوه عن الأرض ، وأجلسوه على دكة ونبشوا الأسمال التي تغطي جسده الصغير .

زمجر صوت يقول :

-- لقد كذبت دافيلوفنا ، تلك العاهرة !

فاذا هذا الصوت الغليظ الثائر يطرق أذني لينكا طرقاً شديداً .

وارتفع صوت يردّ على الصوت الأول بلهجة أشد ارتفاعاً منه :

— لعلها أخفياه في مكان ما ؟

كان لينكا يحسّ أن سائر هذه الأصوات ضربات تنهال على رأسه ، فانتابه خوف شديد أفقده الوعي ، فكأنه قد غاص بصورة مباغتة في حفرة سوداء تفغر أمامه هاوية سحيقة .

عندما استرد وعيه كان رأسه يرتاح على ركبتي جده ، ومحيا العجوز ينحني فوقه ، بائساً مغضناً أكثر منه في أي وقت آخر ؛ وكانت عيناه تطرفان ذعراً ، وتقطران على جبينه عبرات صغيرة عكرة تدغدغه وتسيل على وجنتيه وفي عنقه ..

— هل أنت أحسن ، ياصغيري ؟ فلنذهب من هنا . فلنذهب ، فقد أطلقوا سراحنا ، الكلاب الملاعين !

نهض لينكا شاعراً أن سائلاً ثقيلاً سُكب في رأسه الذي يوشك أن يسقط عن كتفيه بين لحظة وأخرى . أمسك رأسه بين يديه ، وهزّه من جهة لأخرى ، وهو يتأوه بصوت خافت .

— إنه يؤلمك ، رأسك الصغير ؟ ياحبيبي !.. لقد عذبونا .. يا للوحوش ! إن خنجراً قد تلاشى ، كما أن فتاة صغيرة قد أضاعت وشاحها .. إذن فقد سقطوا علينا ! .. أواه ! يارب !.. لمَ تعاقبنا ؟

كان صرير صوت الجد يخمش لينكا خمشاً ، فيحسّ شرارة صغيرة محرقة تشتعل فيه وتبعده عن الرجل العجوز . ابتعد عنه وتطلع فيما حوله .

كانا يجلسان عند مخرج القرية في ظل كثيف لشجرة نخيل سوداء مشوهة . وكان الليل قد أرخى سدوله ، والقمر تكبّد السماء ، ونوره الحليبي المفضض الذي يغمر فراغ السهب المتصل يلوح كأنما يُصيِّر هذا الفراغ أضيق ، وأقفر ، وأحزن . وبعيداً ، من السهب المختلط مع السماء ، كانت بعض السحب ترتفع وتسبح بهدوء ، مخفية القمر وملقية على الأرض ظلالاً كثيفة . وكانت الظلال تلتصق بالأرض ، وتنزلق على مهل ، متفكرة ، ثم تضيع بصورة مباغتة ؛ كنت تقول إنها تختفي تحت الأرض ، من خلال الشقوق المسببة عن الضربات المحرقة التي ترسلها الأشعة الشمسية . وكانت بعض الأصوات تدفُّ من القرية ، وشعلات صغيرة تلتهب في مكان ما في المنتأي ، وتشعُّ فكأنها جواب على النجوم الصافية اللون الذهبي .

قال الجد :

— فلنذهب ، ياحبيبي ! .. ينبغي أن نذهب .

فردّ لينكا بصوت خفيض :

— فلنبقَ أيضاً !

كان يهوى السهب . فاذا عبره نهاراً أحب أن ينظر إلى بعيد ، هناك حيث تستند قبة السماء إلى صدر السهل العريض . وكان يتصور هناك مدناً كبيرة رائعة ، يقطنها بشر طيبون لم يصادف مثلهم أبداً ، لن يحتاج أن يسألهم خبزاً ، بل سيعطونه إياه من تلقاء أنفسهم ، دون أن ينتظروا منه رجاءً .. ولكنه عندما كان السهب ، المنتشر على الدوام أعرض فأعرض أمام عينيه ، ينكشف فجأة عن قرية قوزاقية يعرفها من قبل ، شبيهة بأبنيتها وسكانها بسائر القرى التي سبق له أن رآها ، فهو يحسُّ الحزن والاضطراب لخطيئته .

وإنه لينظر الآن متفكراً إلى المنتأى حيث تتقدم السحب الزاحفة على

مهلتها . لقد كانت هذه السحب بالنسبة إليه دخان آلاف مداخن تلك المدينة التي ما أكثر ما يشتاق لرؤيتها .. وقطع سعال الجد الجاف تأمله .

حدّق لينكا بثبات في الوجه السابح في الدموع ، الذي يستنشق الهواء بجشع .

كان القمر ينير هذا الوجه ، وأشعار الطاقية الشعثاء ، والحاجبان واللحية ، تغطيه بما تسقطه عليه من ظلال غريبة ، فيبدو بذلك الفم الكبير الذي يتحرك متشنجاً وتينك العينين الكبيرتين المفتوحتين ، المستنيرتين باشراقٍ خفي ، مخيفاً بائساً نوعاً ما ، يوقظ في لينكا ذلك الشعور الجديد الذي يجبره على الابتعاد عن جده ...

كان يهمس ، وهو ينبش بطانة سترته بابتسامة بلهاء :

ــ إذن فلنبق ، انبق بعض الوقت !..

استدار لينكا وشرع يتأمل البعد من جديد .

صرخ الجد بغتة بنغمة ظافرة :

ــ لينكا ! .. أنظر ! ..

ومدّ إلى حفيده ، والسعال يكسره ، شيئاً طويلاً لامعاً ، وأضاف :

ــ من الفضة ! إنه من الفضة ! هذا يساوي خمسين روبلاً !

كانت يداه وشفتاه ترتعش جميعاً بالشراهة والألم ، ومحياه بأسره يكشر .

ارتعش لينكا ودفع ذراع الجد عنه . همس بصوت متوسل ، ملقياً نظرة سريعة حوله كي يتأكد من عدم وجود أي إنسان قريباً منهما :

ــ اخفه سريعاً ! .. آه ! ياجدي ، اخفه !

ــ ولكن ما بالك ، أيها الأبله الصغير ؟ أخائف أنت ، ياصغيري ؟ . . إذ نظرتُ من نافذة وجدته معلقاً .. وضعت يدي عليه ، وهذا هو تحت سترتي ! ..

واقد أخفيته بعد ذلك في السياج . وعندما خرجنا من القرية تظاهرت بأني أضعت طاقيتي ، فانحنيت ولمته .. يالهم من بلهاء ! والوشاح أيضاً قد لمته ، إليك ، هذا هو !

وسحب بيديه المرتجفتين المنديل الضائع بين أسماله ولوح به أمام وجه لينكا .

وانشقّ حجاب الضباب أمام عيني الطفل وكشف عن هذا المشهد : إن لينكا وجده يسلكان بأقصى ما يستطيعان من سرعة شارع القرية . إنهما يتجنبان نظرات المارة ، ويسيران بخوف ، ويخيل إلى لينكا أن الريح تتمتع بحقٍّ جلدهما ، والبصاق عليهما ، وإهانتهما .. إن كل ما يحيط بهما من أسوار ، وبيوت ، وشجر ، يتأرجح في ملء ضباب غريب فكأن الريح تهزّه .. وإن المرء ليسمع أصواتاً تدوي ، قاسية ، ثائرة .. هـذه الطريق لاتنتهي ، والمرء لايرى مخرج القرية خلف الكتلة المتكاثفة المؤلفة من الدور المرتجة التي تتجه تارة صوبهما فكأنها تريد سحقهما ، وتبتعد تارة إلى مكان ما كي تضحك منهما في ملء وجهها باللطخ القاتمة لنوافذها .. ويرتفع هتاف طنان بصورة مباغتة من إحدى النوافذ : « أيها السارقان ! أيها السارقان ! إنك سارق ، سارق صغير !.. » ويختلس لينكا نظرة سريعة جانبية فيرى في النافذة الصبية الصغيرة التي رآها قبل قليل تبكي فأراد أن يحميها .. اقد فاجأت نظرته ، فمدت لسانها له ، وألقت عيناها الزرقاوان الغامقتان بريقاً قاسياً خبيثاً فوخزتا لينكا مثل الابر .

انبثق هذا المشهد في ذاكرة الطفل واختفى في اللحظة ذاتها دون أن يترك أثراً سوى الابتسامة الخبيثة التي ألقاها على محيا جده .

كان العجوز يتكلم دون انقطاع ، يقاطعه سعاله من حين لآخر ، ويلوّح

بيديه ، ويهزّ رأسه ويجفف العرق المتصبب بقطرات كبيرة بين غضون وجهه .

وغطت سحابة ثقيلة ممزّقة مسننة وجه القمر ، فما عاد لينكا يميز محيا جده إلا بصعوبة جمة . لكنه تمثل بجانبه الطفلة الباكية ، وأثار في خاطره شبحها وقاسها بجده فكرياً ... العجوز العليل ، الصافر ، الجشع ، المغطى بالأسمال ، إلى جانب الصبية التي أهانها ، الغارقة في دموعها لكنها صحيحة الجسم ، طرية ، جميلة : إن الجد يلوح كائناً عديم النفع ، يكاد أن يكون في مثل « كوستشي » الأسطورة خبثاً وقرفاً . أيمكن ذلك ؟ لمَ جرحها ؟ إنه لم يكن واحداً من أفراد عائلتها ...

وكان الجد يصفر قائلاً :

ــ لو أستطيع أن أجمع مائة روبلاً !... إذن سوف أموت في هدوء ...

فالتهب شيء ما في لينكا بصورة مباغتة :

ــ شه ! إصمت بربك ، سوف تموت ، سوف تموت ... وإنك لا تموت...

ثم زعق ، وقد هبَّ بغتة على قدميه مرتجف الأوصال :

ــ إنك تسرق ! يا لك من لص عجوز ! هيا إذن !

وشدّ قبضته الصغيرة الجافة وهزّها أمام أنف الجد الذي لاذ بالصمت بغتة، ثم تهاوى على الأرض بثقل ، وهو لا يبرح يقول من بين أسنانه :

ــ لقد سرقت طفلة ... آه ، ما أجمل ذلك !... عجوز ، وبماذا يُعنى ... هذا لن يُغفر لك في العالم الآخر !

وفجأة اهتز السهب بأسره واتسع مغموراً بضياء زرقة تعمي الأبصار ... وارتعش الضباب الذي كان السهب يرتديه واختفى طوال برهة وجيزة ... وزمجر الرعد وتدحرج بصوت أصم فوق السهب ، مزلزلاً إياه والسماء على حد سواء ، هذه السماء التي يتقدم فيها سراعاً كتل كثيفة من الغيوم السود يغرق

القمر في لجتها .

وخيمت الظلمة. ولمع البرق ، ساكناً لكنه متوعد ، في مكان لما يبرح بعيداً . ولم تمضِ ثانية حتى دوى الرعد من جديد ، ضعيفاً متخاذلاً ... ثم ساد سكون يلوح أنه لن ينتهي أبداً .

رسم لينكا إشارة الصليب ، بينما ظل الجد جالساً في مكانه جامداً أخرس فكأنه قطعة واحدة من جذع الشجرة التي يستند إليها بظهره .

وارتعشت السماء من جديد ، ومن جديد اندلع لهيب أزرق ، وانهالت على الأرض ضربة معدنية جبارة ، فكأن آلاف الألواح الحديدية قد ألقيت على الأرض تتصادم وتتناطح ...

صاح لينكا :

ــ جداه !

فتردد هتافه المختنق بصدى الرعد أشبه بضربة وقعت على جرس صغير مصدوع . وقال الجد بصوت أجش ، دون أن يتحرك :

ــ ما بالك ؟... أخائف !...

وشرعت قطرات كبيرة من المطر تنهال مدرارة ، فترن طقطقتها بصورة غريبة أشبه بانذار خفي. كانت هذه الطقطقة تؤلف في المنتأى ضجيجاً مستمراً ، عريضاً ، شبيهاً باحتكاك فرشاة عملاقة بالأرض اليابسة ؛ أما ههنا ، بجانب الجد والحفيد ، فقد كانت كل قطرة ترسل أثناء سقوطها صوتاً جافاً مقتضباً ثم تموت دون صدى . وكانت أصوات الرعد تقترب دون انقطاع ، والسماء تشتعل بتواتر أعظم .

قال الجد وهو يتنهد :

ــ لن أذهب إلى القرية ! ما على المطر سوى إغراقي ... إني كلب ، ولص...

ويمكن للصاعقة أن تقتلني . لن أذهب !... إذهب إليها وحدك . إنها هناك ، الفرية ... إذهب !... لا أريدك على البقاء ههنا . . إذهب من هنا ... إذهب ، إذهب !... إذهب !...

كان الجد يصيح الآن بصوت قوي مبحوح .

توسل لينكا إليه ، مقترباً منه :

ــ جداه !... إصفح عني !

ــ لن أذهب ... لن أصفح عنك .. لقد هدهدتك طوال سبع سنوات... لقد صنعت كل شيء في سبيلك ... ولقد عشت من أجلك . هل بي حاجة إلى شيء ما ؟... إني أموت ، كما ترى ... إني أموت ... وأنت تنعتني باللص ... لماذا أقدمت على السرقة ؟ من أجلك ... هذا كله ، إنه من أجلك ... إليك ، خذ... خذ ... خذ ... من أجل حياتك . من أجل حياتك كلها ... قد جمعت ... حسناً ، بلى ... وقد سرقت أيضاً ... الله يرى كل شيء ... إنه يعرف ... أني سرقت ... إنه يعرف ذلك .. وسوف يقتص مني . ولن يصفح عن سرقات كلب عجوز مثلي . ولقد اقتص مني منذ الآن ... يا رب ! لقد عاقبتني ، ما ؟ لقد عاقبتني ؟... لقد قتلتني بيد طفل صغير ! هذا صحيح ، يا رب ! هذا طبيعي !... إنك عادل ، يا رب !... أرسل إلى نفسي ... أواه !...

وارتفع صوت الجد حتى زعيق صارخ أرسل الرعب في قلب لينكا .

كانت الرعود التي تهز السهب والسماء جميعاً تزمجر الآن عنيفة متدافعة حتى ليخيل إليك أن كلاً منها يريد أن ينقل إلى الأرض رسالة مستعجلة ضرورية ، وكانت هذه الرعود تتلاحق وتدوي دون انقطاع تقريباً . وكانت السماء الممزقة بالبروق ترتعش ، والسهب يرتعش أيضاً ، مشتعلاً تارة بلهيب أزرق ، غارقاً من جديد تارة أخرى في ظلمة باردة ، ثقيلة ، خانقة تضيّقة بصورة غريبة . وكان

برق يضيء البعد أحياناً ، فيلوح أن هذا البعد يهرب في عجلة من هـذا الصخب وهذه الزمجرات .

وأخذ المطر يهطل غزيراً ، فتخبيء قطراته ، المتخذة في ضوء البروق لماناً فولاذياً ، التذبذب المألوف لأنوار القرية .

كان لينكا يموت ذعراً وهلعاً ، ويموت أيضاً باحساس ذلك العذاب الذي يرهقه به شعور غامض بجرمه بعد تلك الصيحة التي أطلقها الجد . كان يحدق أمامه بعينين واسعتين ، ويخشى حتى أن يطرف بها عندما تسقط عليها قطرات من المـاء تنزلق عن رأسه المبتل ، ويمدّ أذنيه لصوت الجد الغارق في هـذا البحر من الأصوات الصماء .

كان لينكا يحسّ أن جده لا يتحرك ، لكنه يخيل إليه أنه سيختفي ، أنه سيذهب إلى مكان ما ويخلفه وحيداً . اقترب منه شيئـاً فشيئاً دون وعي منـه ، وعندما لامس مرفقه ارتعش متوقعاً حدوث شيء رهيب ...

ومرق برق السماء مضيئاً هذين الكائنين الملتصقين ببعضها بعضاً ، المتقلصين الدقيقين ، المتجلدين بما يسيل من جداول عن الأغصان ...

كان الجد يلوّح في الهواء بيده متابعاً زمجرته ، لكن التعب كان قد اجتاحه أثناء ذلك وشرع يقطع عليه أنفاسه .

نظر لينكا إليه وجهاً لوجه وأرسل صيحة من الرعب ... كان الوجه يلوح ، في ضوء البرق الأزرق ، ميتاً ، بينا العينان الكامدتان المتدحرجتان فيه مجنونتان.

زمجر ، وهو يلقي رأسه بين ركبتي جده :

— جداه !.. فلنذهب !..

انحنى الجد عليه ، وأخذه بين ذراعيه الرقيقتين المتعظمتين ، وضمه إليه بشدة ، وبينا هو يشدّه إلى صدره أرسل بغتة زمجرة حادة مثل ذئب سقط في الفخ .

انتزع لينكا نفسه من عناقه ، وقد صيَّره ذلك الصراخ أشبه بالمجنون ، وقفز واقفاً على قدميه ، وانطلق إلى الأمام كالسهم ، واسع العينين ، تعميه البروق المتلاحقة ، يقع على الأرض كي ينهض ، ويغوص أكثر فأكثر في الدياجير المتلاشية تارة في لمعان البروق الأزرق ، المتكاثفة تارة أخرى حول الصبي الذي ذهب الخوف بصوابه .

وكان المطر الساقط يتابع ضوضاءه الباردة الرتيبة الحزينة . وكان يلوح أن شيئاً لم يحدث قط فى السهب سوى ضوضاء المطر ، ولمعان البروق ، وزمجرة الرعد الغاضبة .

في صبيحة الغداة ، قفل بعض الصبية الذين خرجوا للنزهة في الضواحي على أعقابهم في الحال ، وأنذروا القرية معلنين أنهم رأوا شحاذ البارحة متمدداً تحت نخلة سوداء ، وأنه قد ذُبح من دون ريب ، لأنهم شاهدوا خنجراً مرمياً بجانبه .

ولكنه عندما جاء الشيوخ ليتحققوا من صحة الخبر ، وجدوا أنه لم يكن ثمة شيء من ذلك . كان العجوز لا يبرح حياً ، وعندما اقتربوا منه حاول أن ينهض عن الأرض فلم يستطع . كان قد فقد القدرة على الكلام ، فهو يسألهم جميعاً بعينين دامعتين ، ولا يكف عن التنقيب بين الجمهور دون أن يجد شيئاً أو يتلقى جواباً .

ومات حوالي المساء ، فدفنوه حيث وجدوه ، تحت النخلة السوداء ، باعتبار أنه ليس من اللائق دفنه في المقبرة : فهو غريب أولاً ، وهو لص ثانياً ، وهو قد مات دون اعتراف ثالثاً . ولقد وجدوا بجانبه ، في الطين ، الخنجر والوشاح .

ووجدوا لينكا بعد يومين أو ثلاثة أيام .

فوق أحد أودية السهب ، قريباً جداً من القرية ، طفقت عصابات من الغربان

تحوّم بصورة مستمرة ، ولما ذهبوا يتقصون السبب في ذلك عثروا على الصبي المتمدد متباعد الذراعين ، منكب الوجه في الطين السائل الذي تركته الأمطار في قاع المجرى .

وقرروا بادىء ذي بدء أن يدفنوه في المقبرة لأنه صبي صغير ، لكنهم وضعوه بعد التفكير بجانب جده تحت النخلة السوداء عينها . وصنعوا فوق القبر كومة من تراب وغرسوا فيها صليباً فظاً من الحجر .



المتسولة الصغيرة

— سأذهب الآن للقيام بنزهة !

قال بافل أندريفيتش ذلك بصوت مرتفع ، ورمى الريشة من يده ، وتثاءب ، وتمطّى في كرسيه الواسع ، ثم طفق يصفر لحناً كئيباً .

لقد سار العمل على خير ما يرام ، فهو يحسّ نشاطاً وسروراً فائقين . غداً سيلقي مرافعتين لا أهمية لهما ، ومن ثم يتكلم مرتين أيضاً ، وتنتهي الجلسة . وعندئذ سيأخذ عطلة قصيرة ويذهب إلى القرم يمتع أنظاره بالبحر الحبيب وسماء الجنوب اللاهبة ... إنه يتمتع منذ الآن بالشهرة كخطيب مفوّه وحقوقي ناجح ؛ وإن له الحق أن يترجى تعيينه مدعياً عاماً في وقت قريب ، فالحياة لا تتراءى له إذن متعبة أو قبيحة ؛ لمن المحزن حقاً أن ينظر المرء إليها من قريب جداً ، لكن هل ينبغي أن ينظر إليها المرء على هذا الغرار ؟ ماذا ينتظر المرء أن يكسب إذن ، أللهم سوى ما لا يحصى من العذابات ، من مثل هذا الموقف تجاه وجود ما أكثر ما بُذل من محاولات في سبيل تفكيك رموزه ، لكن دون جدوى ؟ ومن المؤكد أن الناس لن يبلغوا هذه الغاية أبداً .

قال بافل أندريفيتش ، دون أن ينتبه لما يندّ عنه ، منزلقاً بذلك في اتجاه فلسفة لامبرتوتشيو :

ــ لقد حدّد القدر سلفاً وجودنا بأسره .

وإذ صفر هــذا المقطع من الأوبرا بنغمة كئيبة لا تلاءمه البتة ، فقد ابتسم وتثاءب ، وصاح وهو ينهض عن كرسيه :

ــ بيفيم !

ثم نقل نظرته فيما حوله ، مسروراً من نفسه ، لكن بشيء من التحفظ .

كان مكتبه المزين بأثاث مريح غير صارخ الأبهة ، كثير الجمال مع ذلك ، ينظر إليه وقد غمرته في هذه اللحظة ، بغزارة فائقة ، أشعة الشمس الفتية النابضة بالحياة ، شمس أيام نيسان الأخيرة ، ينظر إليه من جدرانه وزينته بشيء كثير من الحنان والضياء ، مضاعفاً ما يتدفق فيه من إحساس دافئ رائع بعذوبة الحياة وجمالها .

ونادى من جديد :

ــ بيفيم !

فظهر من وراء الستارة الكستنائية التي تخفي الباب خلف ثنياتها الثقيلة البهية رأس صوفي أشيب ، وعلقت عينان طيبتان عجوزان بيافل أندرييفيتش بصورة ذات مغزى . كانت العينان غارقتين في أهداب تجاعيد اللحية والحاجبين المفضضين .

ــ سأذهب للقيام بنزهة ، يا صاح ! هيئ السماور في السابعة تقريباً . هــذا كل شيء .

ــ وإذا سألوا عنك ؟

ــ سأعود قريباً . لكنه ربما لن يأتي أي إنسان .

ــ قد يأتي بعض الزوار .

ــ هيا ، من هم الزوار الذين سيأتوننا ، نحن الاثنين . إيه ، يا بيفيم ؟

— صحيح ، إننا لا نستقبل الزوار أبداً .

— إذن فلم السؤال ؟

— إنها قضية مبدأ . تلك هي الحال ، فالخادم يطرح هذا السؤال دائماً ، في البيوتات الرفيعة ، على أسياد الدار عندما يرغبون في التغيّب عنها .

— آه ! هكذا !

وارتدى ييفيم أندرييفيتش معطفه وغادر الغرفة وفوق شفتيه ابتسامة متشككة رفيقة .

كان الشارع النظيف كثيراً والنديّ بَعْدُ بما ذاب حديثاً من الثلوج مقفراً ، لكن جميلاً بروعة مهيبة ثقيلة نوعاً ما . وكانت الدور الكبيرة البيض ، المزينة الأفاريز بالنقوش ، المكتسبة جدرانها بين النوافذ لوناً زهرياً خفيفاً تحت أشعة الغروب الربيعية ، تنظر إلى العالم بخطورة وتركيز فلسفيين . كان الثلج قد غسلها من غبارها وهو يذوب ، فهي تنتصب جنباً إلى جنب تقريباً ، نظيفة ، طرية ، شبعانة جميعاً . وكانت السماء إلى الأعلى منها تزدان ببريق لا يقل جداً ورزانة ، ولا يخلو من الضياء والرضى .

كان بافل أندرييفيتش يسير عبر الشارع مستغرقاً في التفكير . وقد أحسّ توافقاً مطلقاً مع ما يحيط به ، فالحياة جميلة عندما لا يطلب المرء منها الكثير ، وأولئك الذين يملكون قروشاً ويطلبون من الحياة الليرات هم على شيء كثير من الادعاء والسخف . يا له جنساً عجيباً ! إن الحياة تعطي الناس دروساً ، ودروساً قاسية ، سوى أنهم لا يكفون عن التخبّط ، عاجزين عن التوفيق بين إمكانياتهم ورغباتهم ...

وبينما كان يفكر هكذا ، بصورة آلية هادئة ، لم يلاحظ كيف بلغ الارصفة .

إلى الأمام منه ، في الأسفل ، كان بحر متألق ببريق بارد تحت شعاعات الشمس الغاطسة أكثر فأكثر على مهلها ، بعيداً عند الأفق . وكان البحر ، مثله مثل السماء المنعكسة على صفحته ، على شيء كثير من الهدوء المهيب . لم تكن الأمواج أو الغضون المتجمعة في شبكات كثيفة تلوح على سطحه الصقيل البارد حيث يذوب شريط الغروب المصنوع من المخمل القرمزي والذهبي في تكاسل وإعياء . وكنت ترى عن بعد شريطاً ضيقاً من الأرض قد التفّ منذ الآن بدخان المساء الخفيف ، الضارب لونه المزرقّ إلى السواد ؛ كان هذا الشريط يفصل المياه عن السماء الخالية من السحب ، المقفرة مثل البحر الذي تعلو عليه .. ما أروع أن يحلّق المرء ، عصفوراً طليقاً ، بين الجهتين ، يشق بعنف الهواء الطري الأزرق بجناحه !..

— يا سيدي الطبيب ! باسم المسيح ، قرشاً صغيراً كي أبتاع خبزاً . . من فضلك ! ليس لي عمل ، ولم آكل طوال النهار .. لم أعد أستطيع احتمالاً .. ياصاحب السعادة ، إشفق عليّ محبة بالله !..

انتفض بافل أندريفيتش والتفت إلى ورائه . كان ثمة صوتان صارخان ، أحدهما خفيض مشمور والآخر ضخم مبحوح يطفح يأساً ، يمزقان الهواء دون هوادة ويجرحان أذنيه .

وكان شخصان يقفان أمامه : فتى في العشرين من عمره ، يحمل فأساً في يده الواحدة وطاقية عتيقة ممزقة في اليد الثانية ، يتعطّف سترة نسائية ينفلت من ثقوبها العديدة قطنها وبطانتها القذرة ، والآخر فلاح في حوالي الخمسين ، يرتدي معطفاً قصيراً ، وجوربين صوفيين ، وعمرة بنية ، قذرة ، قد دفعها في زناره . وكانت سيماء شاكية نهمة قد تجمدت على محيا الفتى الترابي ، البارد والجاف ، فهو يعبر في وقت واحد عن انتظار الصدقة وعن التبجيل الذي يكنه

المتسول للناس عادة . أما الفلاح الذي يغطي وجهه شعرُه الفاسي المتساقط على جبهته ولحيته المتشابكة مثل رزمة من القش ، فهو يشخص بعناد إلى الأرض ويتمتم دونما رجاء ، ساحباً الأصوات من صدره في شيء من التراخي . كان الفتى يغني رجاءه مثل نشيد سريع النبرات ، فكأنه يخاف ألا يصغي الناس إليه حتى النهاية ، وألا يجد الوقت الكافي لتعداد سائر الأشياء التي دفعت به إلى التسول .

قال بافل أندريفيتش بغضب :

— كفى !

وأسرع يضع يده في جيبه .

وعندئذ حدث شيء غريب أدهشه حتى أفقده السيطرة على حواسه .

— ثيدي ، ياثيدي اللطيف ! لا تعطها هما ! .. لاتعطها ! .. لقد جمعا حتى الآن خمثة وثلاثين كوبيكاً . . يا لهما طماعين !.. ثيدي ، لي أنا ! .. يا ثيدي الطيب ، أعطِ فتاة ثغيرة من أجل الخبز ، باثم المثيح !..

وأحسّ بافل أندريفيتش شخصاً يتمسك بقوة باليد التي أدخلها في جيبه ، يتمسك بها ويشدها ، زاعقاً بصوت مرتفع رنان كلمات تبعث على الشفقة ، مفعمة في الوقت ذاته برجاء حار .

كانت أشبه بكرة صغيرة حية قذرة ، قد غرق رأسها عميقاً في ثنيات معطف بافل أندريفيتش ؛ وكانت هذه الكرة تدوم وتحوم في مكانها بسرعة فائقة ، مثل الخنكليس ، حتى يستحيل تماماً أن يدرك المرء حقيقتها . . وكانت الأصوات الثلاثة تزمجر بأقصى ما تسعفها القوة ، فتصم أذنيه ، وتبعث فيه نقمة حادة .

صاح :

صمتاً ! انذهبوا عني .

لكن تعنيفه الجازم لم يأتِ أثراً ما .

هتف الصوت الثخين المبحوح ، ساحباً هتافه من أعمق أعماق نفسه :

ــ وا أسفاه ! يا سيدي !

وقال الصوت الخفيض بنغمة حادة فيها بعض الغناء :

ــ إنك لمحسن إلينا !

ــ هما يكذبان ، يا ثيدي ، فلا تشدقها ! لقد جمعا حتى الآن خمثة وثلاثين كوبيكاً !.. ولن يدق ناقوث ثلاة الغروب حتى يذهبا إلى الكنيثة ، ويبتزا من الناث ما لا يقل عن هذا المبلغ .. أيها الطاعان الملعونان !..

صرخ بافل أندريفيتش مرة أخرى بصوت رنان :

ــ هيا ، قلت لكم !

وأقسم أيماناً مغلظة ، وأسرع يلقي في الحال نظرة مضطربة فيما حوله .

لكن الرصيف كان مقفراً ، فليس إنسان يستطيع أن يشهد غضبته . عندئذ انتزع بحركة عنيفة الكرة العنيدة من المعطف المتعلقة به ، ورفعها بيده حتى مستوى عينيه . لكنه دهش في الحال ، فأرخى يده ، الأمر الذي جعل الكائن المتخبط في تلك اليد يسيل على الرصيف ، دون أن يكف مع ذلك عن السؤال بصوت عالٍ مرتعش طنان .

أغلق بافل أندريفيتش عينيه لحظة ، وصعّد زفرة حرى ، ودسّ في إحدى الأيدي الممتدة إليه شيئاً من النقود ، ولوح بيده إشارة الاستياء جواباً على أدعية الامتنان حيث يتردد شيء من الالزام الغريب والحزن ، ثم انحنى على الكائن المتعثر في أسماله في ذات اللحظة التي انفصل فيها هذا الكائن عن الأرض بقوة ، مثل طابة من المطاط : إن كومة الأسمال القذرة المتدلية عنه ،

وقد اهتزت بفعل هذه الحركة المفاجئة ، جملته يشبه فراشة ليلية عملاقة مخيفة .

— يا ثيدي الطيب ، ياثيدي اللطيف ، كوبيك صغير لي أنا أيضاً ! . . أعط باسم المسيح !

وأخذت المخلوقة الدقيقة تدوم كالخدروف بين ساقيه من جديد .

تمتم بافل أندريفيتش حائراً ، وهو يتفحصها بعناية :

— انتظري ! انتظري ! . .

كانت صبية صغيرة ريانة المحيا ، في السادسة أو السابعة من العمر ، خفيفة مثل الفضة ، مهترئة الثياب بصورة لا تصدق ، تزنرها أسمال خرقة حمراء ممزقة تغطي كامل جسدها الصغير ، فلا يظهر منها سوى رأس صغير يسمح بضمها إلى الجنس البشري . وكان هذا الرأس بالضبط هـــو الذي أدهش بافل أندريفيتش العارف بالجمال ، المعجب بسائر الفتن . كانت ذات جمـــال خارق بقامتها الطفولية ، رغم الأسمال القذرة التي تغطيها ، أو ربما بسبب هذه الأسمال بالضبط ، إذ هي تبرز بصورة حية لون محياها الصغير ورقته . كانت حلقات جدائلها الدقيقة الصغيرة تنفلت من عصابتها ، وتسقط على جبهتها وخـــديها فترتعش عليها ، مظهرة من خلالها لونها الوردي ، البراق النابض بالحياة . وكان أنفها الصغير الموحي بأنه منحوت بالمنقش ، المنتفخ المنخرين الورديين الشفافين انفعالاً بصورة حية ، وشفتاها الرقيقتان القرمزيتان ، المهتزتان برعشة عصبية ، الناعمتان والمتألقتان ، وذقنها التام الاستدارة ، المزين بحفرة ناعمة فاتنة ، وعيناها الكبيرتان الزرقاوان ، كان هذا كله ، بالاضافة إلى أسمالها ، يجعلها تشبه بصورة غريبة كتلة صغيرة من القذارات قد تفتحت في وسطها وردة ذات جمال فاتن متقلب . أما هي فكانت ترن بصوتها الرفيع ، دون

انقطاع ، كلمات تبعث على الشفقة ، مداهنة بصورة وضيعة ، الأمر الذي كان يدمر الوهم ويمحوه .

كان بافل أندرييفيتش يقول بشيء من النقمة هذه المرة :

ــ انتظري إذن ، انتظري !..

كانت به رغبة أن تلوذ بالصمت ، وأن تكف عن الحركة هكذا ، فتعطيه بذلك فرصة تفحصها جيداً . كان يسير على مهلته على طول الرصيف ، يفكر في وسيلة تحملها على السكوت .. أيعطيها صدقة ؟ سوف تشكره . أيأخذها إلى داره ؟ يا للسخف ! وكان لايني يردد في نفسه باعجاب ، وتلك الأفكار تتلاحق في ذهنه ، « لكن ، ياجمالها ! جمال ملائكي ، ملائكي بالضبط » .

ــ ياثيدي الطيب ، أعطِ ! . . أمي مريضة في البيت ، وأخي الصغير رضيع بعد . أعــ ط بأثد ــ ثم الـ ..

ــ كفى ، انتظري . سوف أعطيك ، هل تفهمين ؟ سوف أعطيك كثيراً . اصمتي برهة . انتظري . قولي لي قبلاً من أين تأتين ؟ عائلتك ؟ من هو أبوك ، وأمك ؟ أتفعلين هذا منذ زمن طويل ، أعني تطلبين الصدقة ؟

فتفحصته عينان زرقاوان من المحيا الصغير المرتفع نحوه ، مفعمتان بالثقة حتى درجة الخطورة ، توقظان فيه بصورة غــــير إرادية بعض العواطف المضطربة المجهولة منه ، وتؤهبانه لأفعال استثنائية . وألقى عينيه فيما حوله . . .

كان الشارع مقفراً ، والمساء يشمله شيئاً فشيئاً بظله الطري . عندئذ أمسك بالطفلة من يدها وذهب ، جاهداً أن يوفق خطواته مع مشية الصغيرة العجول القافزة . لكنه لم ينجح في ذلك البتة ، فكان يضطر هو نفسه إلى أن يقفز بين الفينة والفينة ، فيتجاوزها تارة ، ويتركها تتجاوزه تارة أخرى ، بينما هي تخب إلى جانبه ، تشدّ يده وتروي بصوت شديد الارتفــــاع

بحيث يستطيع الشارع كله أن يسمعها :

— لكنني من هنا . إننا نقطن هناك ، في الأثفل ، في الضاحية . أبي ، لقد مات . ذلك بسبب الفودكا . وأمي أيضاً ماتت ، لأنه كان يضربها كثيراً ، كثيراً جداً . وأنا أعيش الآن عند العمة نيثا . إنها تقول لي : « أيتها العفريتة ، إذا لم تجمعي مالاً كثيراً ، فسوف أثوقك من شعرك ، أنا » . إن العمة نيثا تقول هكذا .. إنها غضب هي الأخرى .. يا ثيدي الطيب ..

— انتظري ، لقد قلت لك إني سأعطيك . ولكن فلنرَ ، لقد قلت لي مع ذلك إن أمك وأخاك مريضان في البيت ..

— العمة نيثا تأمرني أن أقول ذلك لأنه يثير شفقة أعظم . إنها تقول إن الناث لا يعطون إذا لم يتأثروا . إنهـــا تقول : « أيتها الشيطـانة الثغيرة ، إحذري ان تعودي بالقليل ، اكذبي ما اثتطعت .. وليثر ذلك شفقة أعظم .. وإلا لن يعطوك .. »

كان صوت الصغيرة الرفيع يبعث فيه بقوة متزايدة أبداً أفـكاراً غريبة غير معهودة . كان يسير على مهل ، متفكراً ، ملتفاً بمعطفه بقوة ، مصخياً إلى موسيقى الكلمات . قال في نفسه إنها تحسُّ برداً عظيماً من دون ريب في هذه الأمسية الربيعية الرطبة ، فرمى بصره بصورة آلية على قدميها الصغيرتين وشعر شيئاً أشبه بوخزة مقيتة . كان حذاؤها القذر المهترىء الذي يضرب الأرض بسرعة وصخب عظيمين يبتسم ابتسامة عريضة كلما رفعت قدمها عالياً ، فتكشف هذه الابتسامة عن عقبين عاريين مبتلين ، أحمرين بفعل البرد . ولشدّ ما كانت وسخة مهلهلة الثياب ! .. رفع رأسه وألقى على الشارع نظرة سريعة .

كان صفان من المنازل العالية الباردة ينظران من لطخ نوافـــذها

القاتمة إلى بافل أندريفيتش ورفيقته الصغيرة معنفين لأعين . كانت هـــذه البيوت تلوح مستاءة منه ، مستاءة لأنه سمح لهذه البائسة الصغيرة أن تثير كل هذا الرنين .

وعلى حين بغتة ، فكر بافل أندريفيتش ، وقد ألقى به حديث الصغيرة في نوع من الاستغراق المضني ، وطفق يحس الاعياء والانكسار ، فكر أنه لو صادفه إنســـان من معارفه بصحبة هذه الرفيقة ، فسيكون ذلك . . مضحكاً للغاية . كان الناس يضفون عليه منذ الآن صفة المتشائم التي لايستحقها ، وذلك بسبب وحيد ، ألا وهو نفوره من العلاقات الحميمة جـداً ، وإن لم يكن يتجنب مثل هذه العلاقات بدافع من حقد البشر أبداً . فهو إذا لم يدخل مـع الناس في ما يسمونه علاقات حميمة أو صداقة ، فسبب ذلك بـكل بساطة أن مثل هذه العلاقات تستدعي الالزام السخيف بالاصغاء إلى قصصهم التي لاتنتهي عن أشياء مبتذلة عديدة ، وعن مشاكلهم ، وصحتهم ، وأخلاق زوجاتهم ، وحوادث أخرى عديدة من الحياة اليومية ، بما فيها آلام البطن . وفيم تفيد هــــذه المحادثات الفارغة المبتذلة ؟ هذا كله عديم الأهمية والفائدة . الطمـأنينة ، والتأمل ، والفضول أحياناً ، بشرط أن يكون فضولاً بريئاً من الهوى لاينسى المرء فيه نفسه ، تلك هي الحياة الطبيعية . إن العالم الباطني للانسان الحديث عالم كثير التعقيد والتنوع بحيث تكفي دراسته لارضاء ما يحس الذكاء من عطش مغرور إلى معرفة المزيد ، ولارضائه بصورة تامة مطلقة أيضاً . أما عالم الظواهر الخارجية فشديد الاثارة للأعصاب حتى ليستهلك سراعاً الانسان الراغب في الحياة ببساطة وسلام . إن الانسان يزداد سعادة بقدر ما ينعزل عن الناس الآخرين ، ذلك أن السعادة هي السلام من دون أي شيء آخر . ما كانت حاجته إذن إلى هذه الطفلة المتقدة بالأسمال ، الملائكية الحسن ، هو بافل أندريفيتش ،

مساعد المدعي العام ، والانسان الذي يملك نظرات واضحة نهائية عن الوجود ؟ هذه الطفلة مقدمة لمأساة أليمة وسخيفة ليست به رغبة في مشاهدتها .

إنه يعرفها ، هذه المآسي البسيطة ، ولقد اكتفى منها أيضاً . إنه يرثي لها ؛ ثم ماذا ؟ كيف يستطيع أن يمدّ لها يد المعونة ؟ ليس بواسطة المال بكل تأكيد ، هذا المال الذي ستبتلعه العمة نيسا . ولم يك يرى حلولاً أخرى . ما بالها إذن تدوي في أذنيه بأغنيتها الذبابية الحزينة ؟ ما جدوى هذا كله ؟ تفو ! إن ذلك لغير طبيعي وسخيف حتى الدرجة القصوى !...

أفلت بافل أندرييفيتش يد الصغيرة ، وتناول حافظة نقوده من جيبه ، واستغرق في التفكير . كم يعطيها ؟ إن روبلاً واحداً قد يحسّن حالها مؤقتاً ، لكنه يستطيع كذلك أن يزيد شهية العمة نيسا ، فلا تمضي ثلاثة أيام حتى تتفاقم الحالة سوءاً .

كانت الصغيرة تقول بنغمة عتاب ، وقد بان الجد في سيماها :

ــ هما ، ذانك الاثنان ، إنهما طماعان ... حتلا على خمسة وثلاثين كوبيكاً ، وهما يطلبان المزيد . لو أني جمعت هذا ، خمسة وثلاثين كوبيكاً ، كنت أعود إلى البيت !

ولاحظ بافل أندرييفيتش أن لعينيها بريقاً جافاً غير مألوف عند الأطفال . إن جسدها الصغير ، المنكمش بفعل البرد ، قد ازداد صغراً أيضاً ، بينما أسمالها قد قنفذت بصورة غريبة . إنها لتشبه الآن بومة صغيرة صيدت واقتلعت أرياشها . وتخيلها ذاهبة في الليل ، وحيدة ، في الطريق الباردة الساكنة وسط هذه المنازل المرهقة المظلمة . تلك لوحة حزينة جداً ... لكن ما عساه يفعل بها ؟ وأحسّ من جديد أنه مضطر أن يصنع شيئاً ما . ولقد كان في مكنة الانسان ذي المزاج المتفائل أن يجد حلاً سريعاً لهذا الموقف الحرج . إن الانسان العادي

ما كان يلاحظ ، بكل بساطة ، هـذا الموقف البتة ؛ أما هو ، فلقد فقـد طمأنينته وراحته .

وبدأ الغضب من نفسه يجتاحه ويطغى عليه ؛ لكنه انتبه في تلك اللحظة أنه بلغ باب داره ، فقال في نفسه إن الحل الأفضل هو أن يترك الصغيرة تقضي الليل في غرفة بيفيم ، ولعل الصباح يحمل إليه فكرة ما .

قال للصغيرة التي التصقت بالباب بردانة :

ـــ ستأتين إلى داري !

وشدّ قبضة الجرس .

لم تدهش ، ولم تقل شيئاً ، بل قد انزلقت بحمية عبر الباب أمامه ، فوقعت بين ساقي بيفيم تماماً .

وأجاب بافل أندرييفيتش بابتسامة خبيثة على تساؤل خادمه الصامت ، وخلع ثيابه ، وأمر ضيفته قائلاً : « إخلعي ثيابك ! » ، وأمر بيفيم بقوله : « أغسلها » ، ودخل إلى غرفته وهو يفرك بقوة يديه المتجلدتين قليلاً ، وجلس أمام الطـاولة في مقعد عميق طري .

كان السماور ينقّ أمامه ويبخّ ، ومن فتحة غطائه ينطلق خيط من البخار مع صفير خفيف . وخيل إلى بافل أندرييفيتش أنه يميز في هـذا الصفير شيئـاً ساخراً ، وأن في غليان الماء الأصم بعض الاستياء .

ارتفق المـائدة وأغلق عينيه ـــ وهي عادة عزيزة عليـه ـــ متخيلاً ضيفته ترتدي ثوباً نظيفاً ، وقـد اغتسلت ومشطت شعرها . . . إن ذلك لجميل بصورة مثالية .

سأل بيفيم ، وقد مدّ رأسه عبر الباب :

ـــ وأين تريدني أن أضعها ؟

فالتفت بافل أندريفيتش إليه :

— وما رأيك ، يا بيفيم؟

فقرر الآخر :

— لكن ما عساني أصنع بها سوى إعطائها بعض الشاي وإرسالها إلى بيتها ؟ سأذهب بها في الحال .

فقال بافل أندريفيتش ، وقد عاد فاستغرق في أفكاره :

— هَه — حسناً ، فليكن !

وصبّ الشاي لنفسه . كان يحب شاي المساء . ما أحلى أن يحلم المرء ويتنفس على أنغام النشيد الحزين الذي يغنيه السماور ، في الغرفة المغمورة بنور المصباح الزهري ... وما أحلى السكون ، هذا السكون اللذيذ ... ولكن هذه أصوات جديدة اليوم ، في جناحه . إنه صوت ضيفته الهزيل المتردد في غرفة بيفيم ، وهي لا تكف عن رواية قصة ما ، دون أن تكل ، فلا يقاطعها صوت بيفيم الغليظ سوى في الندرى . ماذا ينتظر هذه الصغيرة غداً ؟ ماذا ينتظرها بعد عشرة أعوام ؟...

— يا الله !... أي مزاج حزين تفاؤلي سألقي بنفسي فيه ! وأية مادة للتفكير يمكن أن نجد في هذا كله ؟ أساعدها ؟ يا لقصر النظر والحماقة ! ثمة آلاف منهم ، أطفال الأزقة هؤلاء ، ولن يستطيع أي جهد منعزل أن يحسّن أوضاعهم . ثم إن فيها منذ الآن ، من دون ريب ، غرائز لا يمكنني التغلب عليها بالثقافة ، وهي يمكن أن تتطور مع الزمن . ليحفظها الله ، هذه الطفلة الصغيرة ! . . سوف تكون بنت هوى ، في أحسن الحالات ، وذلك إذا كانت ذكية طبعاً ...

لكن بافل أندريفيتش يحسّ أنه لا يحسن التفكير هذا النهار ، مهما كان الأسلوب الذي يلجأ إليه كي يفكر كل ما خطر في ذهنه أشياء قديمة مبتذلة ،

بعيـدة عن أية فكرة جديدة وشخصية ... لمَ ذلك ؟ إنه عاجز ، كيفما فكر ، عن الالمام بالمشكلة التي تطرحها هذه الصبية الصغيرة من سائر وجوهها . كان شيء يبقى ، لا تستطيع الكلمات صياغة له ، شيء مضطرب ، غـير مرغوب ... أفليس ذلك وعي واجباته تجاه هذه الصغيرة ، وهي كائن إنساني رغم كل شيء ، هـذا الوعي الذي يستيقظ فيه ويشتد ؟ ذلك قليل الاحتمال جداً ... فوجود مثل ذلك الواجب قليل الاحتمال جداً . إن قوانين الحياة في المجتمع ، وقوانين الأخلاق ، وبصورة عامة سـائر القوانين الممكنة الوجود والممكنة التخيل ، ليست بكل تأكيد سوى عمـارات منطقية مصطنعة ، أدلة ممتازة على نوايا صانعيها وعواطفهم الطيبة ، ولا شيء أكثر من ذلك .

صاح بافل أندريفيتش :

ــ يفيم ! حسناً ، ماذا حلّ بها ؟

فأعلن يفيم ، وقد رقّ قلبه :

ــ لقد نامت ، يا سيدي :

ــ نامت ؟ إيه ؟.. ما عسانا نصنع الآن ؟

ــ فلنتركها حتى الغداة ، مهما يكن الأمر . وغداً صباحاً سأصرفها . ماذا يمكن أن يسبب ذلك ؟ إنها تنام، وهي لا تزعج أحداً . إنها لاتكف عن الزقزقة، تقول : خمثة وثلاثون كوبيكاً ... مما لا شك فيه أن خمسة وثلاثين كوبيكاً تساوي مائة روبل عندها . يا لهـا من صغيرة ! لا بدّ أن إنساناً ما جمع هـذه الكوبيكات الخمسة والثلاثين .

فقال بافل أندريفيتش بشرود :

ــ أجل ، أجل . أعرف ذلك . لا بأس ، فلتنم هناك !

فقال يفيم :

ــ نعم ، هذا هو المعقول ! فليحفظها الله ! أما أنا ، فينبغي أن أخرج يا سيدي ، إذا سمحت !

ــ حسناً ، والطفلة ؟

ــ وماذا عنها ؟ إنها تنام . وأنا لن أغيب طويلاً .

ــ حسناً ، حسناً ، إذهب ، إذهب . لكن عجل ، وإلا استيقظت ولم أدرِ ما أفعل .

فقال ييفيم ، وقد دهش قليلاً :

ــ إيه ! وماذا تفعل أيضاً ! ليس ما تفعله . سأتحدث إلى الطاهية ، فيما إذا حدث شيء .

واختفى .

أشعل بافل أندريفيتش لفافة ، وتمدد على الكنبة . وسكت السماور . إن الغرفة بأسرها ملآنة الآونة بدقات الساعة .

ــ يجب إبدال هذه الساعة ، فرقاصها يثير صخباً عظيماً ...

لكن بافل أندريفيتش فاجأ نفسه ههنا يراوده إحساس غريب جداً . ذلك كان شيئاً أشبه بالخوف من التفكير ، شيئاً جديداً كل الجدة . إن عاطفة غامضة تتحرك في مكان ما من نفسه ، عاطفة غير معهودة ، تطلب بعناد أن توضع صيغة لها ! وقال في نفسه ، بغية أن يطرد تلك الأفكار : « ما هذه سوى سخافات ! ليس كل شيء سوى سخافات ! » لكنه شعر ، بعد أن ظل متمدداً برهة ، أنه لا بدّ له من النهوض والذهاب لرؤية الصغيرة كيف تنام .

نهض ، وإذا مرّ قرب مرآة بغت على محياه ابتسامة مضطربة حائرة آلمته .

ــ ما أسخفني هذا اليوم !

وجرب أن يعقل ، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

هذا سرير يغيم أمامه ، تخفيه ستارة من القماش الهندي . كان يسمع ، وراء هذه الستارة ، تنفساً عميقاً منتظماً ، فتناول مصباحاً عن الجدار ، وأبعد الستارة يتطلع إلى ما ورائها .

كانت الصغيرة تضطجع على ظهرها ، مرفوعة الوجه ، متمددة بحرية واسترخاء . وكانت جدائلها تزرع محياها بأسره بحلقاتها الدقيقة ، بينا تكشف شفتاها المنفرجتان في ابتسامة لطيفة عن أسنان صغيرة بيض . وكان صدرها الصغير يرتفع وينخفض في كثير من الانتظام ، بينا هي جميعاً — ولشد ما هي جميلة رقيقة — وحيدة جداً ، باعثة كثيراً على الاشفاق ...

قطب بافل أندرييفيتش ما بين حاجبيه وابتعد بسرعة . وإما اضطجع على الكنبة أدرك أن مزاجه قد أفسد لزمن طويل ، وأن ذلك ليس بكل شيء فيما يبدو ... تساءل ، ببرود وحدة : « لعل ذلك يؤدي بي إلى التوبة من أنانيتي ، إلى الفرح العظيم الذي يعرفه السادة المثاليون والهواة الآخرون للعاطفية ؟ لسوف أتوب، وأمتلئ بتواضع بذلك الهم المفضال نحو قريبي ومصيره ؟ » — وكان يحس مبلغ ما تترك أفكاره من مذاق حزين خبيث . ما كان يستطيع أن ينسى ، رغم ما بذل من جهود ، أن في جناحه ، بالاضافة إلى حياته المتزنة الهادئة ، حياة أخرى أيضاً ، حياة جنينية هزيلة في الوقت الراهن ؛ ولعل ذلك يؤلف في المستقبل قصة أليمة معفرة بالطين ، قصة قد تكون طويلة جداً ... وإنها لتكون سعيدة أيضاً إذا ظلت غبية متطفلة ، لكن ماذا إذا استيقظ الوجدان ؟.. سيكون إذن نضال لا نهاية له ، نضال معذب ينتهي بسقوطها . « ولعلني أبرهن أنا ، وقد أصبحت مدعياً عاماً ، للسادة المحلفين ضرورة زج هذه الصغيرة في السجن مثلما يساوي اثنان واثنان أربعة . يا للسخرية ! » .

أغلق عينيه ، وخفض ذبالة المصباح . وتمدد جامداً على الكنبة .

كانت الأفكار تولد في رأسه الفكرة تلو الفكرة وتتكاثر ، فاذا أبعدها لحظة بجهد أحسّ نفسه عاجزاً ، باعثاً على الشفقة ، عبداً ومجرماً في وقت واحد. وكان هذا التيه من الاحساسات مضباً مضطرباً كله حتى الدرجة القصوى .

تساءل بكآبة :

ــ لماذا جئت بهذه الصبية الصغيرة ؟ إن عشرة أشخاص قد تصدقوا عليها ومضوا في سبيلهم ، ولقد كانوا من دون ريب أناساً أفكارهم أقل حزماً مني ، وهم أكثر حساسية مني . هذا أمر لا شك فيه ! لماذا ينبغي إذن أن أتألم أنا بالضبط من أجلها ؟

ولكنه وجد نفسه سخيفاً عندما بلغ هذه النقطة من تفكيره ، فاسترسل :

ــ مثل هذا السؤال أشبه بالتساؤل عن قطعة إفريز السطح لماذا سقطت على رأس هذا الشخص دون ذاك من المارة . هذه الصبية الصغيرة ، هي ، بدورها ، دعابة طارئة من القدر ...

وتقطر عرق بارد من جبينه ، وشعر ثقلاً يضطهده ويرهقه ، ويمنعه من التنفس . فنزع سترته وصدريته ، وفكّ أزرار قميصه ، وأغلق عينيه من جديد .

وبينا هو يخلع ثيابه لاحظ أن ستارة الباب تضطرب بحركة غريبة ، لكنه لم يعرها التفاتاً . كان مستغرقاً في أفكاره ، متمدداً مغلق العينين في ظل الغرفة الكئيب ، يخيل إليه أن الزمن يسيل ببطء لا يطاق رغم دقات الساعة المتسارعة...

وخيل إليه بغتة أنه يسمع شيئاً كالحفيف ... فتح عينيه وانتفض في مكانه : كانت ستارة الباب قد حررت من ربطها ، فهي تغطي الباب تماماً وتتحرك بلطف ، تبعدها يد صغيرة طفولية . ولم يتحرك بافل أندريفيتش ، بل طفق يراقب ما يحدث ، وعيناه نصف مغلقتين ، وقد أمسك أنفاسه ، جاهداً ألا يفضح وجوده في الغرفة بأدنى صوت على الاطلاق . وظهر رأس ضيفته المذهب على قعر

الستارة : كانت تدور في كل حدب وصوب ، تتفحص الغرفة بعناية وعيناها الصبيانيتان الزرقاوان مفتوحتان بشدة ، رزينتان وطافحتان بعزم غير معهود في الأطفال . وكان المصباح يعطي ما يكفي من النور المزهر كي يكون في الامكان تمييز سائر ملامح الصبية . كان الانتباه ينقص من جمال الوجه ، لكن يصيّره أكثر غرابة وأشد فتنة . وكانت عدة حلقات قد ارتفعت بدلال فوق جبينها ، مؤلفة ما يشبه التاج ، ومحياها الصغير ، المغسول جيداً ، شاحباً رغم نور المصباح الزهري الذي يضيئه بلطف وحنان . وكانت عيناها تبدوان لبافل أندرييفيتش أجمل منها قبلاً .

وهذه هي ترفع بحذر قدمها اليمنى ، العارية القذرة ، لكن الدقيقة الجميلة ، وتخطو خطوة نحو المائدة حيث ينتصب المصباح وأشياء كثيرة غير ذات قيمة . ثم خطت خطوة أخرى وأدارت رأسها صوب بافل أندرييفيتش . . عندئذ انتفضت واتجهت نحو الباب بحركة سريعة وقد صفقت بيديها ومدتها إلى أمامها فكأنها تتأهب للهرب . لكن بافل أندرييفيتش جرب أن يتنفس بانتظام وبما يكفي من القوة كي تسمعه .

وكانت هي تنظر في اتجاهه ، جامدة ، منفرجة الشفتين ، على محياها الملائكي الصغير تعبير من اللهو ، وتصيخ بسمعها .

كان ثوبها المتسخ قصيراً ضيقاً ، فكنت ترى ساقيها حتى الركبتين ، كما أن ذراعيها يخرجان كثيراً من كميها ، ولا يثبت الثوب على قامتها سوى زر واحد ، بحيث كان عنقها الرقيق الأبيض وجزء من صدرها مكشوفين تماماً . وتمنى بافل أندرييفيتش أن يختفي دونما ضوضاء ، غير تارك في المكان سوى عينيه . ولكن الصبية اقتنعت من دون ريب أنه مستغرق في النوم ، فاذا هي تصبح قرب الطاولة من جديد بثلاث حركات مرنة خفيفة كحركات قط صغير .

وأسندت مرفقيها الصغيرين إلى حافتها ، واعتمدت رأسها بيديها ، وافترت شفتاها عن ابتسامة عريضة نيرة ، ثم طوت ساقها اليسرى أقصى ما تستطيع تحت ثوبها . ومن ثمة بانت الدهشة والسرور على محياها ، فهزت رأسها ، وأخذت بيدها الرقيقة بحذر مطواة ورق تمثل دبة برفقة ولديها الصغيرين ، وجذبتها إليها ، وانحنت برأسها عليها ؛ ودارت برأسها حولها ، يميناً ويساراً ، فكأنها تخشى أن تلمسها بيديها ، تتفحصها باشراق عظيم ، وهي تبتسم وتهمس همساً خفيفاً بشفتيها الصغيرتين القرمزيتين ، فيما جدائلها ترتعش وتنتشر على المائدة . ثم أبعدت المطواة بحذر وشيء من العبادة ، وتناولت منفضة اللفائف ، مكررة معها ، بالدقة ذاتها ، نفس عملية الفحص ، ثم وضعتها بدورها جانباً ، واستعرضت سائر الأشياء الموجودة على الطاولة واحداً إثر الآخر ، وأخيراً صعدت تنهيدة عميقة وارتفقت المائدة من جديد وشرعت تنظر .. وتذكرت بغتة شيئاً ما ، فتركت الطاولة والتفتت إلى بافل أندرييفيتش ، مقتربة منه بمشيتها المرنة الساكنة الشبيهة بخطوات القط الصغير .

دهش بافل أندرييفيتش كثيراً وجمد في مكانه . لكنه كاد يفضح دهشته بصيحة عندما اقتربت من الكرسي الذي وضع ثيابه عليه ، وأخذت تنبش هذه الثياب ، وأخيراً تركتها وجلست أرضاً قرب قدميه . ولم يفهم من ذلك شيئاً . لم يكن يستطيع الآن أن يرى جيداً ماتفعله ، فتمالك نفسه بجهد عظيم ، مانعاً رغبته في الالتفات لاتخاذ وضعية تسمح له بمراقبتها في مكانها الجديد . كان الفضول يحرقه حرقاً .

وتناهى إلى سمعه صوت نقود تقرع السجادة .

فانتفض باول أندرييفيتش وفهم ..

خطر له بادىء ذي بدء أن ينهض ويوقفها ؛ لكن شيئاً أوقفه هو نفسه ، فظل متمدداً ، يصغي إلى القطع النقدية تحتك ببعضها بعضاً في يديها . قال في

نفسه : « إنها تسرق ! .. إنها لصة ! .. » وأحس أن هذه الكلمات لاتنطبق على صبية صغيرة مذهبة الجدائل ، على فقيرة رائعة من صغيرات الشارع . كان يصغي ، والأفكار تخز دماغه مثل الابر .

سمع همساً خفيفاً يقول :

— هذه ، إنها عشرة كوبيكات .. وهذه أيضاً . وهذه .. ثوى أن هذه كبيرة . هذا يثاوي خمثة وثلاثين وأكثر ! أوه ! أوه ، أوه ! .. تعالي وانظري الآن ! لعل هذا لايكفيك أيضاً بعد ؟ .. أيتها الطماعة العجوز ! ..

أحسّ بافل أندرييفيتش أنه لايستطيع احتمالاً لهذا المشهد ، وأنه ينبغي وضع حد له . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ كيف ؟ أيستيقظ ؟ اسوف تجنّ خوفاً إذن ..

وفجاءة ، دفّ من غرفة بيفيم صدى حفيف وخطوات ، فاطلق بافل أندرييفيتش تنهيدة ارتياح .

— يا لهذه الخبيثة الصغيرة !

لم تكن الصبية الصغيرة قد سمعت صوت الخطوات أو الضوضاء ، لكنها سمعت جملة بيفيم المدهوشة .

قفزت على ساقيها ، وانطلقت في اتجاه الباب ، فرنت القطع النقدية الفضية والبرونزية وراءها بخيانة وتدحرجت على الأرض . كان بيفيم يقف عند الباب يعلو وجهه تعبير من الرعب ، فسقطت في ملء الذراعين اللتين مدهما نحوها .

هتفت بنغمة مترجية معذبة :

— عماه !..

همس بيفم بصوت خطير :

— آه ! أيتها الدنيئة ! .. أنت لصة ! .. ما ؟ .. لسوف ..

فقرر بافل أندرييفيتش أن الوقت حان كي يتدخل ، فصاح وهو ينهض عن الكنبة :

— يفيم ! ..

واقترب من الباب ، وقال بصرامة :

— ما هذه الضوضاء ؟

فتمتم يفيم حائراً ، ممسكاً الصبية الصغيرة بقوة بين يديه ، منقلاً بصورة غريبة أنظاره بين الصغيرة وبافل أندرييفيتش :

— أو ـ ه .. إنها تسرق ، ياسيدي ! .. إنها تسرق .. و ..

كانت الصبية ترتجف بكليتها خوفاً وانفعالاً ، وتلتصق به بشدة جاهدة ألا ترى السيد .

كان يفيم يقول :

— لقد أدفأناها في حضننا ، إذا صح التعبير ، وهي . إليك ما تفعل ! .. كانت تريد أن تسلبنا . مثل هذه اللاشيء ! ما ؟ طفلة ، وانظر إليها ! . . إنها منذ الآن شخص يافع . آه ! أنت .. أنت .. أنت .. أيتها الصغيرة الوسخة ! أوه ! أنت .. أنت .. آه ، يالطيف ! .. أيمكن يا الله أن يسرق المرء في هذه السن .

اجتاحت بافل أندرييفيتش رغبة عظيمة في إنهاء كل شيء . . قال بلهجة تنم عن اللامبالاة المطلقة ، وبسرعة غريبة أدهشت يفيم أكثر من اللهجة نفسها :

— خذ ، إليك هذا الروبل ، استأجر عربة وخذها إلى بيتها بسرعة ! .. هل تسمع ؟ تهيأ بسرعة ، وانطلق ! خذها وردّها إلى ذويها ! ولا تقل شيئاً هناك في بيتها .. أو بالأحرى بلى ، قل لهم كل شيء ؛ بلى ، من الأفضل أن تروي لهم ، حدثهم بكل ما جرى . هيا ، اذهب ، هيا !

لاذ يفيم بالصمت ، وألقى نظرة عميقة على سيده ، وارتدى معطفه ، وأخذ يردُّ الصغيرة بأسرع ما يمكن إلى أسمالها ، وهي صامتة لاتقول شيئاً ، ملتصقة به أبداً .

قال عندما انتهى من إلباسها :

— هيا ، تعالي !

وخرج بسرعة من الغرفة ، دافعاً بلطف الصبية الصغيرة أمامه .

كان بافل أندريفيتش لايبرح واقفاً على عتبة الباب ... سمع صوتاً من الشارع يصيح : « يا سائق ! .. » فاقتربت عربة تزمجر كالرعد وتوقفت قرب الباب الخارجي ، ثم ارتفع صوتها الأصم من جديد ، أشبه باحتجاج عنيف .

عندئذ قفل بافل أندريفيتش إلى غرفته ، ورفع ذبالة المصباح ، وجلس إلى المائدة حيث كانت الصبية الصغيرة ، قبل خمس دقائق ، تتفحص ما عليها من حاجيات دقيقة متفرقة . كان يخيل إليه أن هذه الحاجيات قد اتخذت بالنسبة إليه نوعاً من السر الجديد ، الغريب . وكان هو جالساً هناك ، يراقبها بانتباه قاتم .

قال بصوت خفيض :

— إنك لن تنسى هذا في وقت قريب ، لا وحقِّ الشياطين ! لن تنسى هذا في وقت قريب !

وترك مقعده واقترب من النافذة بانفعال .

كان الليل أسود هادئاً . وكانت المنازل في الجانب الآخر من الطريق ، وقد التفت بالدياجير ، باردة كئيبة .

همس بافل أندريفيتش بنغمة حزينة : « ما أغرب ذلك ! ما أبشع ذلك ! » ، وأسند جبينه إلى الزجاج الرطب البارد . أحس نفسه منحطماً .. إنه يحاول منذ

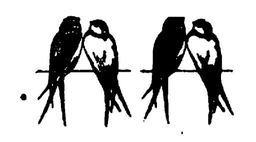
زمن بعيد أن يبتعد عن الحياة ، وقد خيل إليه أنه توصل إلى ذلك ، وأن الحياة ستعجز بعد الآن عن الوصول إليه وتعكير علاقاته اللامبالية معها ، وأنه سلم من تلك الأفكار والانفعالات الأليمة الباقية هناك ، بعيداً في المؤخرة ، والتي عذبته فيما مضى من الأيام . . وهذه هي تنبثق من جديد . . هذه هي قد انبثقت في نفسه واحتلت مكانها !

– أيمكن حقاً أن يكون المرء حراً ؟ ألا يحس نفسه مجبراً على أن يفعل هذا الشيء ، وأن يتعذب من أجل ذلك الشيء الآخر ؟ حسناً . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فانه عبودية إذن !

وجفف جبينه المبلل براحة يده ، وعاد يذرع أرض الغرفة بخطواته :

– ربما كانت أعصابي التي تؤلمني ؟ لاشيء سوى أعصابي ؟ وأن . . ذلك سيمضي سريعاً ؟

كانت الساعة ترسل دقاتها السريعة المباغتة تيك تاك ، تيك تاك ، تيك تاك ! وكانت الغرفة مقفرة ، باردة وساكنة بصورة غير عادية . أبداً لم تكن هذه الغرفة ، في يوم من الأيام ، على مثل هذا السكون .



حادث استثنائی

كان نيقولاي دودوتشكا يعتبر نفسه فيلسوفاً ، الأمر الذي كان أحد أسباب نزهاته الأحدية في المقبرة . وكان يعرف ثلاثة فلاسفة قد اكتسبوا صفة مميزة خاصة بكل منهم : كان « بنوا سبينوزا » يحب أن يراقب حياة العناكب وعاداتها ، ويضحك ملء شدقيه عندما تلتهم بعضها بعضاً ؛ وكانت دقة « عمانوئيل كانت » تشكل بالنسبة إلى أهالي كونسبرغ الوسيلة الأدق لضبط ساعاتهم ؛ وأخيراً فان صديق نيقولاي ، أكاكي دفوئيوتوتشي — وهو يعمل نجاراً ، لكنه ذو رسالة فلسفية هو الآخر — كلما تحدث عن شيء مرهف رفيع طفق يشدّ بتأمل أذنه اليسرى ، أو يدفع قمة لسانه في فترات الصمت بصورة تشير إلى العمق ، فكأنه يسخر من المستمعين إليه كما يسخر من القضايا التي يثيرها .

وكذلك فان نيقولاي قد أضفى على نفسه صفة مميزة ، ألا وهي تلك النزهات في المقبرة في سائر أيام الأحد ، منذ الظهيرة حتى الساعة الثالثة .

وإليكم كيف حدث ذلك : ذهب ذات يوم ، وهو لايدري كيف يقتل الزمن ، يتنزه في أرجاء المدينة ، وإذا هو يجد نفسه دون انتباه ، لشدة ما كان مستغرقاً في تأملاته ، في حقل الموتى .

كان الزمن ربيعاً . وكانت الأدغال والأشجار التي تغطي بكثافة المقبرة

العتيقة ، المزروعة في كل حدب وصوب بقبور متلاصقة بشدة ، قد ارتدت حديثاً زينتها الندية الرائعة ؛ وكانت أغصانها المرنة تظلل بلطف حجارة القبور والمرتفعات الصغيرة المغطاة بخضرة حريرية ، والشمس ترسل بريقاً فتياً نيراً حتى الدرجة القصوى .. وعندما كان النسيم الربيعي ، اللطيف والفواح ، يمرّ من فوق القبور ، كان العشب وأوراق الشجر تتنهّد بأسى ، فتقول إذن إنها ترثي لأولئك المضطجعين تحت الأرض ، الذين لن يروا أبداً بعد الآن الربيع أو يسمعوا موسيقاه . كانت الأضرحة الثقيلة الغارقة في الخضرة ترمي نظرات حزينة جداً ومركزة لدرجة بعيدة حتى لتحسب أنها مستاءة من الربيع الذي لم يترك المقبرة في سلام ، بل جاء ينزع عنهـــا تلك الهيبة الرزينة وذلك الجمال الصارم اللذين يتوافقان تماماً في الخريف مع الأغصان المعراة على الأشجار ، والأوراق الصفر المتساقطة على الأرض ، والسماء الرمادية المليئة بالكآبة . أما الآن فقد جردت جميعاً من طهارتها ، فبريق هذه السماء الربيعية ، والخضرة الفرحة ، وسحابة الفراشات الطائرة في كل عطفة ومنحنى ، وكل ما يحمله الربيع معه ، تدفعها إلى المؤخرة ، وتلقي بها في الظل ، وتسرقها بطريقة ما . .

كان نيقولاي يتنقل في المقبرة ويفكر في لامبالاة الطبيعة ، وفي مصير البشر البائس ، وفي راحة الموت الأبدية ، وفي كل ما يثيره في الفكر منظر كتلة من القبور تغمرها الشعاعات الحية للشمس الربيعية . وراقه هذا المكان الحزين : لشدّ ما يؤثر في حركة أفكاره ، وما أكثر ما في الأحلام التي يرميه فيها من كآبة وعمق . وقد أغري نيقولاي أيضاً بالصفة ذاتها التي تكتسبها الأفكار في ذلك المكان ! وأخيراً فقد سُرّ من ذاته ، سعيداً أن يجد نفسه قادراً على التأمل في الوجود ، وقادراً عدا ذلك على التأمل في مثل هذا الاتفاق

التام مع الظروف . لم يكن يحب القراءة ، لكن التشاؤم ، ذلك الذي يصادفه المرء في الحياة اليومية ، المفرط والمتباهي دائماً ، المتحلي بالذكاء والصدق في الندرى ، وغير الفلسفي البتة ، كان هذا التشاؤم مألوفاً لديه ، يروقه منه صفته الناحية باللوم . لقد كان من عادة المرحوم أكاكي دفوئيوتوتشي أن يقول له دائماً إن التشاؤم هو النظرية الوحيدة العاقلة في العالم ، وإن كل إنسان بعيد عن التشاؤم لا يزيد عن كونه كذاباً غبياً : « إفهم هذا فقط ، ياصاح : الحيـــاة كلها تذهب إلى الهاوية ! أتفهم ؟ الحياة كلها ! هذا هو التشاؤم ! إنها القفزة العظمى التي حققها الفكر الانساني ، ياصاح ، إذ أن إنكار الحياة شيء لا يمكن الذهاب إلى أبعد منه . وإذا قال لك أحياناً هؤلاء الناس جميعاً إن العالم بأسره يجب أن يعيش كي يعيش ، فابصق في وجوههم ! ياصاح ، لا يمكن أن يخرج من هذه الحياة شيء حسن ، أنا أكفل لك ذلك ، أنا أكاكي دفوئيوتوتشي ! فلنشرب إذن كأساً أخرى !.. » وكانا يشربان ، وقد شرب ذلك المسكين أكاكي كثيراً حتى وقع أخيراً في حالة من السكر الدائم وضعت حداً لحياته وأعطت صديقه حجة إضافية لزيارة المقبرة .

ثم اعتاد ذلك حتى درجة بعيدة ، بحيث يبدو له الأحد الذي يمنـــع فيه من القيام بنزهته أحداً ضائعاً . كان يحس لذة مرضية في البقاء في زاوية ظليلة مقتعداً حجراً ، يفكر في المضطجع في ذلك القبر ويبني حياته يوماً فيوماً . وكان هذا يؤدي إلى قصص كئيبة يرضى نيقولاي عن نفسه بمقدار ما يكون بناؤها منطقياً ، مبتعداً هكذا عن الحياة العاقلة ، غارقاً أكثر فأكثر في عالم مرضي يبدعه خيال مكتئب ، في دنيا ذات جمال قاتم تمنعه من رؤية الحياة بكل بساطة ، هذه الحياة التي تمر أمام عينيه طوال الأسبوع ، من أحد إلى أحد . كانت مهنته ، ورفاقه ، وزوجه ، وكل شيء يفقد شيئاً فشيئاً من قيمته في

عيني نيقولاي ، ويتراءى له بائساً سخيفاً . .

وبدأ الناس يسخرون منه ، وقد لاحظوا أنه يفر من المجتمع : أخـــذوا يقولون إنه يريد أن يتأثر خطوات السكير دفوئيوتوتشي ، هذا الرجل الذي جرحه الوجود ، فهو بائس ، مجرد عن الارادة ؛ وكانوا يضحكون ، وكانوا يفترون ؛ ولكن أحداً لم يفكر ، كما يحدث دائماً ، في إلقاء نظرة على عالمه الباطن. ولقد أثار ذلك حنق نيقولاي ، فما أسرع أن وجد نفسه وحيداً بصورة مطلقة ، وازداد ميله إلى الرحلات في ميدان الفرضيات واللوحات المتشائمة . ولقد ازداد هياماً بنفسه أكثر فأكثر ، وتباهياً بوضعيته الاستثنائية ، فانتهى إلى عدم الاهتمام بكل ما يخرج عن إطار خياله الحزين . في هذه الحياة ، في وسط أناس لاتربطهم وحدة الأهداف ، ولا الاحترام أو الثقة المتبادلان ، يمكن لكل إنسان بسهولة وسرعة كبيرتين أن يتلاشى أو يجن إذا لم يكن على ما يكفي من الثبات أو إذا لم يكن له شخص يعلق على وجوده شيئاً كثيراً من القيمة والأهمية .

لكن اليوم الذي كان نيقولاي فيه شاهداً عياناً لحادث استثنائي كاد يخرجه من هوة التشاؤم ، وقد طفق يرويه فيما بعد وهو يخفي اضطرابه وراء لهجة وابتسامة متشككتين ، كان ذلك اليوم من آب حاراً وعلى درجة عظيمة من الجفاف .

كان قد خلع قبعته التي يستعملها كمروحة وراح يسلك دروب المقبرة الصغيرة المتعرجة ، يقرأ للمرة المائة الكتابات المحفورة في الصلبان أو الأنصاب مبتسماً لها في حزن فكأنها معارف قدماء . ولقد منح نيقولاي لتلك الكائنات التي كانت بشراً في الأيام الخوالي ، والتي تستقر اليوم في سلام وسكون تحت هذه الصلبان والأنصاب ، ترجمات حياة من اختراعه ، وهذا هو يتيه بينها

الآونة ، لا ينزع عنها شيئاً من ألوانها القاتمة أو كآبتها ، بل يضاعف منها بالأحرى . وكان هوس حقيقي ينمو في باطنه ، يدفعه إلى اختراع مصائب وأحزان يضفيها على حياة أشخاصه الراحلين ، البائسة سلفاً

وكان السكون يرين على المقبرة المقفرة ، والأشجار والأدغال جامدة في قلب الهواء الحار ، تنتصب دون أن تتحرك أوراقها وتلوح كأنها غارقة في التأمل ، من دون علم نيقولاي ، في موضوع الموت ، والمصائب ، والأحزان ، وسائر الأشياء البغيضة الأخري . وكان العشب الذي يغطي القبور المغبرة يحني جذوعه هو الآخر بشيء كثير من الكآبة ...

ومرّ نيقولاي بقرب مغارة محاطة بسور حديدي متقن الصنع زرعت داخله ورود مختلفة جلبت ابتسامة إلى شفتيه ، ففكر :

— ورود على قبر ! .. لا ريب أن من زرعها ههنا قد فعل ذلك بنية خالصة . ومع ذلك فوجودها غير لائق على أية حال . ويتراءى لي أنها تخاطب ذاك الراقد هنا ، تحت الأرض ، معطياً إياها نسغ الحياة ، بقولها : « أترى ، أنت ميت ، بيد أن هذا لا يمنعنا البتة من الازدهار ! » وإن موتك لا يمنع شيئاً في الحقيقة . لعلك كنت تؤمن بنفسك ، وتعتبر أنك شيء ما في هذا العالم ؟ عبثاً . كنت موجوداً ، وكانت الحياة أيضاً ؛ وهذا أنت غير موجود ، والحياة موجودة بعد . وإن وجودك أو غيابك في الحياة لا يمنحانها أي فارق مخصوص . لعلك كنت تفترض أنك ضروري لانسان ما ، وأن شخصاً ما قد يتألم لموتك ؟ وإني لأمرّ في كثير من الأحايين أمام قبرك ، ولم أرَ قط أن إنساناً قد داس العشب المحيط بسياجك . ومن الواضح أن أحداً لا يأتي لزيارتك ، ياصاح ! . . ولعلك كنت تسعى ، أثناء حياتك ، صوب هدف ما بهوى واندفاع ، الأمر الذي صيّر حياتك معذبة مضطربة ؟ . . إيه ! كنت تفعل حسناً لو تذكرت بصورة دائمة

أن سائر جهودنا في سبيل تسلق السماء لا تفعل سوى التعجيل بقدوم ذلك اليوم الذي نرحل فيه إلى تحت التراب حيث البرد والرطوبة على غاية الشدة ، وحيث يعتبر الركض خطيئة ، منذ قدومنا إلى العالم ، لأننا لانستطيع في حال من الأحوال أن نتجنب ما هو محتوم ..

وتنهد نيقولاي وتطلع حواليه . كانت المقبرة ، في هـــذا اليوم الشديد الحرارة ، تتناسق تماماً مع مفهومه عن العالم ، كانت ساكنة ، مقفرة ، مرهقة بالحرارة ، تتطلع بكل من تفاصيلها ودقائقها إلى السماء اللاهبة بشيء كثير من التركيز والثبات بحيث يلوح أنها تخاطبها بقولها : « كل ما خلقته وأرسلت في أوصاله الحياة ملك لي . وأنت تريدين أن تخلقي رغم كل شيء ؟ شكراً لهذا الانزعاج ، لكنني لا أعرف في الحقيقة إن كان ذلك مفيداً لأي من كلانا » .

وفكر نيقولاي في وليجة نفسه : « يالها لعبة قاسية لعبة الخلق والدمار القديمة ! » لكنه كان يتكيف معها لأنه لم يكن سبيل إلى الفرار منها . وإننا لنتكيف بسهولة مع كل شيء ، حتى كنا نعتاد فكرة سخف وجودنا منذ زمن طويل لو لم تكن مثل هذه الفكرة تجرح غرورنا .

وقال نيقولاي ، وهو يتوقف بجانب قبر غطته الأكاليل حديثاً :

ــ آه ؟ هذا هو ، قبر الشهرة ! حسناً ! أيها المثالي العجوز ؟ كيف شعورك تحت هذه التربة ؟ ألا استرح من حياة العناء التي عشت ، والتي تشكل هذه الأكاليل المبتذلة أجرتها الوحيدة ! لقد كانت جنازتك ، بفخامتها وأبهتها ، تسلية جيدة بالنسبة إلى المجتمع ؛ كما أن موتك وفر للأحاديث والصحف موضوعاً جاهزاً . . طوال ثلاثة أيام . وهذا كل شيء . وإنه لهزيل قليلاً بالنسبة إلى أربعين عاماً من العناء ، هزيل قليلاً ! .. وحتى اليوم لم يفكر إنسان في ترتيب مسكنك الأخير على هذه الأرض .

وعاود نيقولاي نزهته بعد أن حيا القبر باشارة من رأسه . كان يتذكر الرجل الذي يرقد هناك ، فهو عجوز مريض ، متيبس ، ذو حديث متأرّث الحيوية ، وعينين حاميتي البريق غير معهودين في الشيوخ ؛ وكنت تجده في عجلة من أمره على الدوام ، يدافع باستمرار عن شيء ما ، أو يلعن إنساناً ما ، فهو بعيد كل البعد عن فهم نيقولاي عصي عليه. وكان نيقولاي يتساءل عندما يراه يغضب، أو يفرح ، أو يتألم ، وباختصار يختصر وجوده بمختلف الأساليب : « أية نوابض تحركه ؟ » وكان يخيل إليه عندئذ أن هـذا العجوز ، بالرغم من كل جمـال عالمه الداخلي ووحدته ، محدود الأفق ضيق التفكير . أمن الممكن أنه لم يفهم هـذه الحقيقة ، ألا وهي أن سائر تصرفاته ما هي سوى فقاعة من الصابون ؟ أكان يعتقد حقاً أن في مكنته إعادة صنع الحياة ؟ إعادة صنع الحيـاة ، هذا يعني بكلام آخر خلق إنسان جـديد ... وكان يبتسم في نفسه ابتسامة متشككة عندما كان يصغي إلى الحديث عن نجاحات هذا العجوز وإخفاقه .

ولقد انقضى شهر ونصف الشهر منذ رحيل هذا العجوز إلى مملكة الظلال . لقد جرى الحديث عند قبره عن جدارته و ... وفي حقه . ولقد قيل عنه الشيء الكثير ، لكن أجمل الخطابات وأشدها إخلاصاً كانت كلمة ذلك الفتى الذي أكثر يومذاك من الشراب ، إذ قال :

— وداعاً ، أيهـا الأخ ! وداعاً ، أيهـا المشاغب العجوز ! لـقد تركت بمغادرتك لنا أعداء ظافرين أكثر مما تركت أصدقاء مفجوعين . وإن هذا لجيد! هذا جدير حقاً بالمديح !..

وتذكر نيقولاي هذا الوصف المقتضب ، لكن المضبوط ، للراحل وافترت شفتاه عن ابتسامة حزينـة : لقد كان كل شيء فيه مضبوطـاً ، منذ الألف حتى الياء . لقد خلف من الأعداء أكثر مما خلف من الأصدقاء ... وإن المقاتل

الشريف الطيب هو وحده من يربي عـدداً كبيراً من الأعداء . وكانت الدرب التي يسلكها نيقولاي تدور حول قبر كبير من الرخام ، انبثق من خلفه فلاحان وقابلاه وجهاً لوجه. وانتحيا جانباً في اضطراب ، ملتصقين بدرابزون القبر بشدة ، مفسحين المجـال لهذا السيد الذي لقياه هنالك ، وهما يتفحصانه في سكون ، وبهيئة تنم عن التساؤل .

وسمع نيقولاي أحدهما يقول :

ــ إذا سألناه ...

ــ ما جدوى ذلك ؟ قلت لك إني أعرف المكان ! لقد رأيت حين دفنوه .

وتساءل نيقولاي وهو يتابع طريقه :

ترى ، عمن يتحدثان ؟

واجتاحته الرغبة ، بعد دقيقة واحدة ، في معرفة الشخص الذي يبحثان عنه. كان شخصان رماديان يلتفان بالأسمـال البالية ينزلقان أمامه في سكون ، على بعد عشر خطوات تقريبـاً ، عبر الأشجار الضخمة وبين القبور ، ويتطلعان حوالهما دون انقطاع ويتوقفان بين لحظة وأخرى .

وبلغ هذا الهتاف الفرح أذني نيقولاي :

ـ هذا هو !

وفكر نيقولاي : « آه ! لا ريب أنهما النجاران ! » وتذكر في الحال أن اليوم أحد ، وأضاف : « إذن فقـد جاءا لأخذ مقاييس السور بكل بساطة ... » بيد أن هذا الاستنتاج لم يقض على الاهتمام الذي يحمله نحو الرجلين ، فاستحث خطاه . ورأى لدى اقترابه أن الهيئتين الرماديتين تجثوان على بقع من العشب المجفف ، بجانب قبر ذلك العجوز الذي مرّ بجـانبه قبل برهة ؛ وطفقا يرسمان إشارة الصليب ، وهما يحنيان رأسيهما نحو الأرض دون انقطاع .

وهتف نيقولاي :

— شه ! هذا إذن !

وأحس شيئاً نافذاً عذباً يخترق قلبه ، فاقترب أكثر من ذي قبل ، ووقف على بعد خطوتين إلى الخلف منها ، تخفيه الأشجار عن أنظارها .

كان أحدها ، الأكبر سناً ، الذي يرتدي سترة من الفرو المهترىء مفكوكة الأزرار ، يتنهد :

— يا رب !

وكان شعره شائباً ، وكان قذراً أشعث ، يتنهد ويرفع وجهه نحو السموات ويروح يتأملها طويلاً .

وكان الآخر ، وهو فتى مكتئب الوجه الجاف ، يصلي في سكون ، وكلما انحنى نحو الأرض سقط شعره الأصهب المقوص بصورة مباغتة على جبهته وصدغيه ، فدفعه بيده اليسرى ، وهو لا يني يرسم إشارة الصليب باليد اليمنى .

وكانت شجرة جرمشق تمد أوراقها المتعاقدة فوق رأسيها وتغطيها بظلالها ، وهي جامدة متصلبة في حرارة ذلك اليوم الصائف . وكان كل شيء فيما حولها يلوذ بالصمت ، وصرامة غريبة ، أو فراغ عجيب ، يرينان على كل شيء . ورغب نيقولاي في رؤية وجهيها ، فتهيأ يريد أن يدور حول القبر كي يقف قبالتها ، حين سمع الأكبر سناً يتنهد ويتفوه بصوت مرتفع :

— أرح نفسه ، يا رب ، أنت وقديسوك !

وأنهى صلاته وجلس على الأرض ، مستند العطف إلى القبر ، وصورته الجانبية تتجه نحو نيقولاي . وجلس الفتى أيضاً بجانبه ، بعد أن وضع رزمته على القبر بجانب باقة ذابلة من الورود الطبيعية . وكانت دمعة عكرة تسيل على مهلتها على الخد الأيسر للعجوز ، المستدير نحو نيقولاي ، وما كانت تعكس أشعة

الشمس الضاربة هذا المحيا المغضن العجوز في ملئه . وكان محيا الرجل الأصغر سناً مركزاً جافاً ، وغضن عميق يقطع جبينه ؛ وأخرج من جيب سترته المصنوعة من قماش رمادي علبة تبغ قذرة ، وطفق يلف لفافة وهو مستغرق في تفكير عميق . أما الشيخ ، فكان لا يبرح جالساً في سكون ، يتأرجح من الأمام إلى الخلف وقد أخذ ركبتيه بين ذراعيه .

بدأ يقول ، وهو يتنهد :

— إذن ، في هذا المكان ...

فسأل الأصغر سناً دون أن يرفع رأسه :

— ماذا كان يدعى ؟

فرفع الكبير رأسه ، وشدّ بقوة على شفتيه ، وقال وهو يمشط بأصابعه لحيته الكثة :

— ماذا كان يدعى ؟ لقد نسيت اسمه ، فقد كان اسمه معقداً . وماذا يهمنا ، اسمه ؟ لقد كان محسناً ، هذا الرجل ، أواه ، لقد كان كذلك حقاً ! ولقد عنف ذات مرة موظف التأمينات من أجل تأدية أحد المبالغ ! يا صاح !.. كيف فعل ذلك ! قال له : « إذن ماذا ؟ ما أنت إلا أبله لا تنفع لشيء ، وهذا صحيح ، فتلك هي حقيقتك ! الفلاح ، لا ينبغي له أن ينتظر بعد استحقاقه !.. » آه ! أيها الرب الاله ! لقد كان قلبه طيباً للغاية تجاه الفلاحين !..

وجنح العجوز إلى الصمت ، وقد رق قلبه ، وأمرّ راحته القاسية على جبينه .

وبدأ الأصغر سناً يقول ، وهو يشعل لفافة :

— ذات مرة رأيته ، أنا الآخر ..

فدبت الحياة في العجوز، وسأل :

– رأيته ؟

– بل نقلته بالعربة من القرية إلى المحطة . وكان شعره أبيض صارمـاً . سألني : « كيف الأحوال عندكم ؟ » فأجبت : « حسنة ، يا سيدي ، يعني أني لا أعرف جيداً كيف أجيب عن سؤالك هـذا . ذلك أننا نحن أنفسنا لا نفهم كيف تجري الأمور . يعني أننا إذا لم نمت جميعاً من المجاعة هذا العام ، فيمكنك أن تقول إن معجزة عظيمة وقعت ! إن لدينـا خبزاً ، حسناً جداً ، حتى إن الفئران والصراصير لا تريد أن تأكله ، تلك هي الحقيقة . » وأخذت أصف له الأمور ، ما ؟ وكان هو صامتـاً أثناء ذلك ، لا يقول شيئاً ، وهذا هو يهتف بي بصورة مفاجئة : « هيـا ، يا فتى ، ينبغي ألا تتألم هـكذا . دع العويل للنساء . رغم أن الأمور كما تقول ، قال لي ، فأنتم مسؤولون أيضاً عن ذلك نوعاً ما . إفتح عينيك ومدّ أذنيك . تعلم ، فلهذا قـد منحت العقل . » وهـذا هو قد رحل !.. ولقد كان هذا كله ، عنده ، بسيطاً للغاية ، متحداً ، سهلاً على الفهم . وقلت في نفسي : « يا للفتى ! » ، وأوقفت الجياد ، فسمعته يقول لي : « ماذا أصابك حتى توقفت عن المسير ؟ » فقلت : « إليك ، فأنا لا أسمعك ، لأن الدواليب تصرّ وتزعق . » فراح يضحك : « يا للشباب الظريف ! » ومن ثم ضربني على ظهري مداعباً وقال : « تعال لزيارتي ، عندما تكون في المدينة ، وسوف أحدثك إن كانت بك رغبة في الاصغاء إلي ... » .

وسأل العجوز :

– وهل ذهبت ؟

– كلا . لقد ذهبت حتى داره ، مرة . اقتربت ، وماذا رأيت ؟ عربة أمام الباب . وبقيت برهة أنظر . الخوف ، ماذا ! من أنا بالنسبة إليه ! ثم جاء إنسان آخر في عربة ، سيد عظيم الأهمية أيضاً ، كما يبدو . ثم آخر وآخر ... وعندئذ

رجعت أدراجي ...

وكان قد انتهى من الحديث ، فرمى لفافته على الأرض ، وألقى على القبر نظرة قاتمة طويلة .

— أجل ، لقد كان إنساناً يهتم بأمور الفلاحين . والآن ، يا صاحبي ، لقد قطعت أرجلنا . أجل ، فتلك خسارة قاسية بالنسبة إلينا !

قال العجوز ذلك وعاد يتأرجح في مكانه .

ولاذ كلاهما بالصمت. كان وضعهما يحدث عن حزنهما العظيم ، وعن اضطرابهما العميق . وكانت ظلال أفكارهما تمر على وجهيهما المتفكرين ، المنقلبين بحزن أشبه ما يكون بعاطفة اليتيم . وأظلمت الهيئتان الرماديتان أكثر من ذي قبل ، وكانتا خرقاوين ، يلوح سكوتهما لنيقولاي فائق البلاغة .

وبالرغم من أنهما لم يحلا أسنانهما المطبقة ، فقد كان يلوح لنيقولاي أن اليتيمين يتحدثان باستمرار عن « المحسن إليهما » ، ويقولان دائماً نفس الجمل المجتمعة بفظاظة إلى بعضها البعض ، وذلك بذات اللهجة القديمة التعبير التي كانا يتحدثان بها قبل دقيقتين أو ثلاث دقائق .

وكانت المقبرة تحتفظ بسكون مركز لا مبالٍ ، وتسبح في حرارة استوائية ، مقفرة بالرغم من سكانها الكثيرين . والصلبان ، والأنصاب ، وخضرة الأشجار ، إن نيقولاي يعرف المقبرة معرفة تامة ومنذ زمن طويل ؛ بيد أنه يلوح في ناظريه الآونة أن صفة جديدة ظهرت فيها ، باردة قاسية ، تغير تماماً سيماها العامة . كان يلوح له أن كل قطعة من الصلبان وكل زاوية من الأنصاب تتراءيان في ملء الخضرة ، أن هذه الخضرة نفسها ، في جمود الموت الذي يرين عليها ، أن كل شيء أخيراً يعبق ، في السماء الحارة الصافية ، ببرودة الموت وإنكار كل ما يحيا ، ويحس ، ويتعطش إلى الحياة .

وأرسل نيقولاي تنهيدة عميقـة وجفف جبينه براحـة يده . واجتاحته الرغبة في التحدث إلى « اليتيمين » ، بيد أن الأكبر سناً استدار في تلك اللحظة نحو رفيقه وطفق يتكلم من جديد :

- إليك ، هـذا يشبه ما حدث مرة في المجلس ، حيث أطـاح لك بسيد تيليشينسك . كان ينبغي أن ترى ذلك ... يا الله ! لـقد قال الآخر إذن : « إذا لم يأت القمح ، فمـا عليهم إذن سوى أن يزرعوا الشعير ! » وكان يقول ذلك عنا . عندئذ نهض هو ، وراح يدق الأجراس في وجه الآخر ، فقال : « أنت ، أنا ، والفلاحون ، نحن بشر جميعـاً ، نحن متشابهون جميعاً ، وهـذه هي الحقيقة ! » وأضاف ، ليس تماماً كما أنقله أنا الآن ، « لأن الموجيك هو الذي يغذينا ، ونحن مدينون له ديناً لا يمكننا وفاءه . ولذا فلو لم يكن هنا فأنتم ستكونون أول من تشدون الحزام ، وبقسوة أيضـاً . إذا لم يكن الفلاحون موجودين ، فليس لكم طعام إذن ! » ولقد مزقه الك ، وكان ذلك أعجوبة ! وصار الآخر أحمر كله من الغضب . أجل ! هذا كان إنساناً ، أراح الله نفسه !..

ورسم العجوز إشارة الصليب ، ونظر إلى القبر بعينين تطفحان حباً .

وقال الأصغر سناً ، وقد شرع يلف لفـافة جديدة :

ـــ وكولاس الذي رباه ، يجب أن تري الفتى كيف أصبح ، دماغاً حقاً ! وقـد جاء العام الماضي لرؤية أبيه ، فاذا هو طالب حقيقي . قال : « بعـد سنتين سأكون طبيباً . » .

وبدأ العجوز يقول :

ـــ والمدرسة أيضاً ...

لكنه لوح بيده فكأنه يريد أن يقول : « ما جدوى ذلك ؟ » وسكت .

وأحسّ نيقولاي إعياء في ساقيه ، فراودته الرغبة في الجلوس . بيد أن كمّ

معطفه علق بأحد الأغصان وهو يحاول ذلك ، فندّ عنه طقطقة شاكية، فانتفض اليتيمان ، وأدارا رأسيهما نحوه وراحا يتفحصانه بنظرات مرتابة ، وبعناد ، ثم استدارا عنه ؛ وطفق الأصغر سناً يأخذ من لفافته أنفاساً عميقة ، وهو يبصق لعابه بضوضاء عظيمة ويتطلع من جهة إلى جهة بقسوة ، بينما غرس البكر ذقنه بين ركبتيه ، وركن إلى الهدوء ، أشبه ما يكون بكرة رمادية من الطين الجاف.

وأغلق نيقولاي عينيه ، وجرب أن يعيد تركيب النظرة التي وجهها كلاهما إليه قبل برهة وجيزة . كان فضول بارد وشك قاسٍ يتألقان في عيني الأصغر سناً ، بينما الأكبر سناً ينظر بعينيه الصغيرتين الدامعتين في لامبالاة وبشيء من الازدراء . وقرر نيقولاي أن أوان الرحيل قد حان .

قال العجوز ، وهو ينهض على قدميه :

ــ ماذا وضعوا له كأكاليل ، إيه ؟ قل ربك ! هيا ، تعال ، يا ييفيم !..

فأجاب الآخر باقتضاب :

ــ هيا بنا !

ونهض بدوره .

وأخذا يصليان من جديد وقد حسرا عن رأسيهما . كان الأصغر سناً يصلي في سكون ، بينما البكر يتمتم بشيء ما بصوت يختنق .

قال الفتى :

ــ هيا ، وداعاً !

وجثا وانحنى نحو الأرض .

وهمس العجوز :

ــ إلى المرة القادمة .

كان نيقولاي جانحاً إلى الصمت يلاحقهما بأنظاره ، وهما يسلكان الدرب

المتعرجة بخطاً متمهلة مترنحة ، واختفيا دون أن يستديرا نحو القبر مرة واحدة .

واقترب نيقولاي من المكان حيث كانا يجلسان ، ونظر إلى القبر وإلى الأكاليل التي تغطيه ، وابتسم .

كانت الأكاليل مضطربة ، جافة ، مغبرة ، تبعث على الرثاء . وكان فيها شيء يبعث على الضحك والسخرية بصورة مبتذلة . وكان نيقولاي مضطرباً ، مستاء من منظرها ومن شيء آخر أيضاً . لكنه ما كان يرغب في تحليل عواطفه.

— بخ ، ما معنى هذا ؟ حسناً ! ما هـذا سوى حادث استثنائي . حادث استثنائي ، وهذا كل شيء !

وهزّ كتفيه ، واتجه بسرعة نحو بوابة المقبرة .

وفيما بعد ، حين كان يروي هـذه القصة كلها ، كان يبدأ حديثه هـكذا على الدوام :

— ذات يوم ، كنت شاهداً على حادث جميل جداً ، حادث استثنائي ...



المشتمل